عنوان السعادة

ح عبد الرحمن بن محمد بن موسى آل نصر ، ١٤٣٩ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

آل نصر، عبد الرحمن بن محمد بن موسى
عنوان السعادة في شرح كتاب توحيد العبادة من القرآن وصحيح السنة / عبد الرحمن بن محمد بن موسى آل نصر - المدينة المنورة ، ١٤٣٩هـ
٢٩٦ ص؛ ١٧×٢٤ سم
ردمك: ١-٧٦١٤-٠٢-٦٠٣-٩٧٨
١- التوحيد ٢ - العقيدة الإسلامية أ . العنوان
ديوي ٢٤٠ ١٤٣٩/٩٩٨١

رقم الإيداع ١٤٣٩/٩٩٨١
ردمك: ١-٧٦١٤-٠٢-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٤٠ هـ/ ٢٠١٩ م

الميمنة

مكتبة الميمنة المدنية
المملكة العربية السعودية
المدينة المنورة جنوب الجامعة الإسلامية
هاتف: 00966148473148
جوال: 00966558343947

دار الميمنة
للنشر والتوزيع
سورية - دمشق
هاتف: 00963115827281
جوال: 00963933119455
daralmimna@gmail.com

عنوان السعادة

في شرح

كتاب توحيد العبادة

تأليف

عبد الرحمن بن محمد بن موسى آل نصر

غفر الله له ولوالديه

دار الميمنة

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمدُ للَّه ربِّ العالمين، الرحمنِ الرحيمِ، مالكِ يومِ الدين.

لك الحمدُ ربَّنا على آلائك، ولك الشكرُ على جَزيلِ عطائك، عمّت فواضلُك، وتمّت نوافلُك، تتابعَ برُّك، واتصلَ خيرُك، لا أُحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيتَ على نفسك، هديتنا إلى الإسلام، وهديتنا في الإسلام إلى السُّنّة، وحبّبت إلينا أحبَّ العلوم إليك، وسلكتَ بنا سبيل طالبيه؛ نستغفرك اللهم ونتوب إليك، نعوذ بعزتك ربَّنا أن تُزيغ قلوبَنا، أو أن تَستبدل بنا غيرَنا، نستجيرُ بك من علمٍ لا يصاحبه عمل أو يكون علينا حجة، يا حي يا قيوم برحمتك نستغيث، اختم لنا بكلمةِ التوحيد خالصةً من قلوبنا، بلِّغنا رضاك، وأَسبغ علينا من رحمتِك، وأَوزعنا شكرَ نعمتِك، وأدخلنا في السابقينَ فسيحَ جنّتِك، أَلزمنا الإخلاصَ، ومَسّكنا بالسُّنّة، واجعلنا هداةً مهتدين، وبوِّئنا رتبةَ ورثةِ النبيّين، وأكرمنا بمرافقةِ نبينا إمامِ الموحدين، اللهم صلِّ وسلِّم عليه، وعلى آله وصحبه ومحسني التابعين.

أما بعدُ؛ فقد عهِدت إليَّ اللجنةُ العلميّة في (**جمعية مركز الإمام الألبانيّ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **للدراسات والأبحاث**) إعدادَ مقرَّر في (توحيد العبادة) بغيةَ تدريسه في

الدورة المستمرة التي تعقدها الجمعية؛ فأكرمني اللَّه ويسّر لي تصنيفَ متن عقدي فيه، يشتمل على جملةٍ منتقاةٍ من آي الكتابِ وأصحِ أحاديث الباب، جعلتُها في واحد وأربعين بابًا، ونُشر - برغبة مني -باسم: اللجنة العلمية في المركز -زادها اللَّه توفيقًا-، وطبع ثلاث طبعات إلى الآن بحمد اللَّه.

ثم أكرمني اللَّه بتدريس هذا المتن في إندونيسيا والأردن؛ فألح عليّ جماعةٌ من الفضلاء بكتابة شرح له ميسّرٍ وجيزٍ يُعنى بمقاصده وبما لا يسعُ طالبَ العلم جهلُه من أصول هذا العلم ومسائلِه؛ فقصدتُ إلى ذلك مستعينًا باللَّه، ولم يبرحني وأنا أرقمُ أبوابَه يقينٌ بكثرةِ مصنَّفات أهل العلم في هذا الفن وبركتِها وحصولِ الغَناء بها، غير أني رجوت أن أكون به يوم الدِّين مرحومًا، وفي خَدَمة هذا العلم -ولو بجهد المُقِلّ- منظومًا، ورحم اللَّهُ من قال: «فإن التوحيد هو سرُّ القرآن، ولبُّ الإيمان، وتنويعُ العبارات بوجوه الدّلالات من أهمّ الأمور وأنفعِها للعبادِ في مصالح المعاشِ والمعادِ».

وقد اجتهدتُ في تقريبه، وحرَصتُ على تذييل التقريرات العلمية بجواباتٍ على قدرٍ صالحٍ من الإشكالاتِ المُلصَقة بها، وضمنّتُه نصيبًا مفروضًا من عباراتٍ لأئمتنا التقطتُها من كتبهم، ونظمتُها والتقريراتِ في نظامٍ واحدٍ، وختمتُ الكتاب بثمانين سؤالًا تُعين طالبَ العلم بعد إتمام قراءته قراءةَ تحصيلٍ على المراجعةِ والمذاكرةِ واختبارِ ضبطه للمسائل والدلائل.

وإني أَحمدُ اللَّهَ تعالى أن أقرَّ عيني سيّدي ووالدي الحبيب وشيخي الأول برؤية هذا الكتاب بطبعته الأولى قبل وفاته بيومين؛ ففرِح به أيّما فرحٍ، وشجعني أيّما تشجيعٍ كعادته؛ فاللهم ارحمه وأَعلِ درجته، وأسكنه فردوس

جنّتك، واجمعني وأحبابه به صحبةَ نبينا ﷺ، واجزه عني خير ما جزيتَ والدًا عن ولده، وشيخًا عن تلميذه.

واللَّهَ أسألُ أن يجزي علماءَنا ومشايخَنا عنّا أحسن الجزاء، وأن يتقبَّل هذا الكتابَ عنده بقبول حسن؛ إنه سميعُ الدّعاء، وهو أهلُ الرّجاء، والحمد للَّه أولًا وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا.

* * *

متن

كتاب توحيد العبادة

من القرآن وصحيح السُّنَّة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد للَّه، وصلى اللَّه وسلّم على رسول اللَّه، وعلى آله، وصحبه.

١- بابٌ أقسام التوحيد ثلاثة

توحيد العبادة، وتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات

وقول اللَّه -تعالى-: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ١-٥].

وقوله: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

وقوله: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٥].

وقوله: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [المائدة: ٧٦].

* * *

٢- بابُ تفسير توحيد العبادة ومعنى لا إله إلا الله

وقول اللَّه -تعالى-: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٦].

وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزُّخرُف: ٢٦- ٢٨].

وقوله عن قوم هود عليه السلام: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [الأعراف: ٧٠].

وقوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات: ٣٥-٣٦].

وقوله: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**بُنِيَ الإِسلامُ عَلَى خَمسٍ: عَلَى أَن يُعبَدَ اللَّهُ وَيُكفَرَ بِمَا دُونَهُ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَحَجِّ البَيتِ، وَصَومِ رَمَضَانَ**». أخرجه مسلم (١٦) (٢٠).

* * *

٣- بابُ شروط لا إله إلا الله

وهي: العلم، واليقين، والإخلاص، والصدق، والمحبة، والقبول، والانقياد

وقول اللَّه -تعالى-: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ [محمد: ١٩].

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وَقوله: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ ٣٦ بَلۡ جَآءَ بِٱلۡحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٣٧ إِنَّكُمۡ لَذَآئِقُواْ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَلِيمِ ٣٨ وَمَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٣٩ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [الصافات: ٣٥-٤٠].

وقوله: ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ﴾ [لقمان: ٢٢].

وعن عثمان رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**مَن مَاتَ وَهُوَ يَعلَمُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الجَنَّةَ**». أخرجه مسلم (٢٦).

وعَن أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي مَسِيرٍ، قَالَ: فَنَفِدَت أَزوَادُ القَومِ، قَالَ: حَتَّى هَمَّ بِنَحرِ بَعضِ حَمَائِلِهِم، قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَو جَمَعتَ مَا بَقِيَ مِن أَزوَادِ القَومِ، فَدَعَوتَ اللَّهَ عَلَيهَا، قَالَ: فَفَعَلَ، قَالَ: فَجَاءَ ذُو البُرِّ بِبُرِّهِ، وَذُو التَّمرِ بِتَمرِهِ، - وَقَالَ مُجَاهِدٌ: وَذُو النَّوَاةِ بِنَوَاهُ، قُلتُ: وَمَا كَانُوا يَصنَعُونَ بِالنَّوَى؟ قَالَ: كَانُوا يَمُصُّونَهُ وَيَشرَبُونَ عَلَيهِ

الماءَ-، قال: فدعا عليها قالَ حتَّى ملأَ القومُ أزوِدَتَهم، قالَ: فقالَ عِندَ ذَلِكَ: «**أَشهَدُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، لَا يَلقَى اللَّهَ بِهِمَا عَبدٌ غَيرَ شَاكٍّ فِيهِمَا؛ إِلَّا دَخَلَ الجَنَّةَ**». أخرجه مسلم (٢٧) (٤٤).

وعن عتبان بن مالك رضي الله عنه قال: قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**لَن يُوَافِيَ عَبدٌ يَومَ القِيَامَةِ يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَبتَغِي بِهِ وَجهَ اللَّهِ إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيهِ النَّارَ**». أخرجه البخاري (٦٤٢٢).

وعن أَنَس بن مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَمُعاذٌ رَدِيفُهُ عَلَى الرَّحلِ قَالَ: «**مَا مِن أَحَدٍ يَشهَدُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ صِدقًا مِن قَلبِهِ إِلَّا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّار**»، قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَفَلَا أُخبِرُ بِهِ النَّاسَ فَيَستَبشِرُوا؟ قَالَ: «**إِذًا يَتَّكِلُوا**»، وَأَخبَرَ بِهَا مُعَاذٌ عِندَ مَوتِهِ تَأَثُّمًا. أخرجه البخاري (١٢٨).

* * *

٤- بابٌ توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات من براهين توحيد العبادة

وقول الله -تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

وقوله: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦].

وقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقوله: ﴿قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سبأ: ٢٧].

* * *

٥- بابٌ التوحيد فرض على جميع الثقلين

وقول اللَّه -تعالى-: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقوله: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ [هود: ١-٢].

وقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣].

وقوله: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦].

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قَالَ: كُنتُ رِدفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ: عُفَيرٌ؛ فَقَالَ: «**يَا مُعَاذُ هَل تَدرِي حَقَّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَمَا حَقُّ العِبَادِ عَلَى اللَّهِ؟**»، قُلتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعلَمُ، قَالَ: «**فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى العِبَادِ أَن يَعبُدُوهُ وَلَا يُشرِكُوا بِهِ شَيئًا، وَحَقَّ العِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَن لَا يُعَذِّبَ مَن لَا يُشرِكُ بِهِ شَيئًا**»، فَقُلتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ؟، قَالَ: «**لَا تُبَشِّرهُم فَيَتَّكِلُوا**».
أخرجه البخاري (٢٨٥٦)، ومسلم (٣٠) (٤٩).

وعن عمرو بن عَبَسَةَ السُّلميّ رضي الله عنه قال: كُنتُ وَأَنَا فِي الجَاهِلِيَّةِ أَظُنُّ أَنَّ النَّاسَ عَلَى ضَلَالَةٍ، وَأَنَّهُم لَيسُوا عَلَى شَيءٍ وَهُم يَعبُدُونَ الأَوثَانَ، فَسَمِعتُ بِرَجُلٍ بِمَكَّةَ يُخبِرُ أَخبَارًا، فَقَعَدتُ عَلَى رَاحِلَتِي، فَقَدِمتُ عَلَيهِ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُستَخفِيًا جُرَءَاءُ عَلَيهِ قَومُهُ، فَتَلَطَّفتُ حَتَّى دَخَلتُ عَلَيهِ بِمَكَّةَ، فَقُلتُ لَهُ: مَا أَنتَ؟ قَالَ: «**أَنَا نَبِيٌّ**»، فَقُلتُ: وَمَا نَبِيٌّ؟ قَالَ: «**أَرسَلَنِي اللَّهُ**»،

فَقُلتُ: وَبِأَيِّ شَيءٍ أَرسَلَكَ، قَالَ: «أَرسَلَنِي بِصِلَةِ الأَرحَامِ، وَكَسرِ الأَوثَانِ، وَأَن يُوَحَّدَ اللَّهُ لَا يُشرَكُ بِهِ شَيءٌ». أخرجه مسلم (٨٣٢).

* * *

٦- بابُ فضل التوحيد

وقول اللَّه -تعالى-: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

وقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

وعن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَن شَهِدَ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلقَاهَا إِلَى مَريَمَ وَرُوحٌ مِنهُ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ؛ أَدخَلَهُ اللَّهُ الجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ**». أخرجه البخاري (٣٤٣٥)، ومسلم (٢٨) (٤٦)، واللفظ للبخاري، ولهما زيادة: «**مِن أَبوَابِ الجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ أَيَّهَا شَاءَ**».

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**مَن شَهِدَ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيهِ النَّارَ**» أخرجه مسلم (٢٩).

وعن طارق بن عبداللَّه المحاربي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: رَأَيتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سُوقِ ذِي المَجَازِ وَعَلَيهِ حُلَّةٌ حَمرَاءُ وَهُوَ يَقُولُ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تُفلِحُوا**»، وَرَجُلٌ يَتبَعُهُ يَرمِيهِ بِالحِجَارَةِ، وَقَد أَدمَى عُرقُوبَيهِ وَكَعبَيهِ، وَهُوَ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لَا تُطِيعُوهُ، فَإِنَّهُ كَذَّابٌ، فَقُلتُ: مَن هَذَا؟ قِيلَ: هَذَا غُلَامُ بَنِي عَبدِ المُطَّلِبِ، قُلتُ: فَمَن هَذَا الَّذِي يَتبَعُهُ يَرمِيهِ

بِالحِجَارَةِ؟ قَالَ: هَذَا عَبدُ العُزَّى أَبُو لَهَبٍ. أخرجه ابن خزيمة (١٥٩)، وابن حبان (٦٥٦٢- الإحسان)، وصححه الألباني.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الإِيمَانُ بِضعٌ وَسَبعُونَ أَو بِضعٌ وَسِتُّونَ شُعبَةً، فأفضلُها: قَولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدناهَا: إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالحَيَاءُ شُعبَةٌ مِنَ الإيمان**». أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥) (٥٨)، واللفظ له.

وعن أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**يَقُولُ اللَّهُ عز وجل: مَن جَاءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ عَشرُ أَمثَالِهَا وَأَزِيدُ، وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَجَزَاؤُهُ سَيِّئَةٌ مِثلُهَا أَو أَغفِرُ، وَمَن تَقَرَّبَ مِنِّي شِبرًا؛ تَقَرَّبتُ مِنهُ ذِرَاعًا، وَمَن تقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا؛ تَقَرَّبتُ مِنهُ بَاعًا، وَمَن أَتَانِي يَمشِي؛ أَتَيتُهُ هَروَلَةً، ومَن لَقِيَنِي بِقُرَابِ الأَرضِ خَطِيئَةً لَا يُشرِكُ بِي شَيئًا لَقِيتُهُ بِمِثلِهَا مَغفِرَةً**». أخرجه مسلم (٢٦٨٧).

وعن طارق الأشجعي رضي الله عنه قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَن وَحَّدَ اللَّهَ وَكَفَرَ بِمَا يُعبَدُ مَن دُونِ اللَّهِ؛ حَرُمَ مَالُهُ، وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ**». أخرجه مسلم (٢٣) (٣٨).

وفي رواية: «**مَن قالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَكَفَرَ بِمَا يُعبَدُ مَن دُونِ اللَّهِ...**».

* * *

٧- بابُ صفة تحقيق التوحيد وفضله

وقـول الـلّـه -تـعـالـى-: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠].

وعَن عَوفِ بنِ مَالِكٍ الأَشجَعِيّ ﷺ قَالَ: كُنَّا عِندَ رَسُولِ اللّهِ ﷺ، تِسعَةً أَو ثَمَانِيَةً أَو سَبعَةً، فَقَالَ: «**أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ؟**»، وَكُنَّا حَدِيثَ عَهدٍ بِبَيعَةٍ، فَقُلنَا: قَد بَايَعنَاكَ يَا رَسُولَ اللّهِ، ثُمَّ قَالَ: «**أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ؟**» فَقُلنَا: قَد بَايَعنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: «**أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ؟**» قَالَ: فَبَسَطنَا أَيدِيَنَا وَقُلنَا: قَد بَايَعنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَعَلَامَ نُبَايِعُكَ؟ قَالَ: «**عَلَى أَن تَعبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشرِكُوا بِهِ شَيئًا، وَالصَّلَوَاتِ الخَمسِ، وَتُطِيعُوا -وَأَسَرَّ كَلِمَةً خَفِيَّةً-: وَلَا تَسأَلُوا النَّاسَ شَيئًا**»؛ فَلَقَد رَأَيتُ بَعضَ أُولَئِكَ النَّفَرِ يَسقُطُ سَوطُ أَحَدِهِم، فَمَا يَسأَلُ أَحَدًا يُنَاوِلُهُ إِيَّاه. أخرجه مسلم (١٠٤٣).

وعَن ابنِ عَبَّاسٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ قَالَ: «**يَدخُلُ الجَنَّةَ مِن أُمَّتِي سَبعُونَ أَلفًا بِغَيرِ حِسَابٍ هُم الَّذِينَ لَا يَستَرقُونَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ وَعَلَى رَبِّهِم يَتَوَكَّلُونَ**». أخرجه البخاري (٦٤٧٢)، ومسلم (٢٢٠)، واللفظ للبخاري، وفي لفظ: «**ولا يكتوونَ**».

* * *

٨- بابُ فضل الدعوة إلى التوحيد والبداءة به

وقول اللّه -تعالى-: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

وقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وعن سَهل بن سَعدٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ يومَ خيبَرَ: «**لَأُعطِيَنَّ هَذِهِ الرَّايَةَ رَجُلًا يَفتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيهِ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ**». قَالَ: فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيلَتَهُم أَيُّهُم يُعطَاهَا فَلَمَّا أَصبَحَ النَّاسُ غَدَوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كُلُّهُم يَرجُونَ أَن يُعطَاهَا فَقَالَ: «**أَينَ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ**»؛ فَقَالُوا: هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَشتَكِي عَينَيهِ، قَالَ: فَأَرسَلُوا إِلَيهِ فَأُتِيَ بِهِ فَبَصَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي عَينَيهِ وَدَعَا لَهُ فَبَرَأَ حَتَّى كَأَن لَم يَكُن بِهِ وَجَعٌ فَأَعطَاهُ الرَّايَةَ؛ فَقَالَ عَلي رضي الله عنه: يَا رَسُولَ اللَّهِ أُقَاتِلُهُم حَتَّى يَكُونُوا مِثلَنَا؟؛ فَقَالَ: «**انفُذ عَلَى رِسلِكَ حَتَّى تَنزِلَ بِسَاحَتِهِم ثُمَّ ادعُهُم إِلَى الإِسلَامِ، وَأَخبِرهُم بِمَا يَجِبُ عَلَيهِم مِن حَقِّ اللَّهِ فِيهِ، فَوَاللَّهِ لأَن يَهدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيرٌ لَكَ مِن أَن يَكُونَ لَكَ حُمرُ النَّعَمِ**». أخرجه البخاري (٣٧٠١)، ومسلم (٢٤٠٦).

وعن ابنَ عبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: لَمَّا بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ مُعَاذَ بنَ جَبَلٍ إِلَى نَحوِ أَهلِ اليَمَنِ قَالَ لَهُ: «**إِنَّكَ تَقدَمُ عَلَى قَومٍ مِن أَهلِ الكِتَابِ فَلْيَكُن أَوَّلَ مَا تَدعُوهُم إِلَى أَن يُوَحِّدُوا اللَّهَ -تعالى-، فَإِذَا عَرَفُوا ذَلِكَ فَأَخبِرهُم أَنَّ اللَّهَ قَد فَرَضَ عَلَيهِم**

خَمسَ صَلَوَاتٍ فِي يَومِهِم وَلَيلَتِهِم، فَإِذَا صَلَّوا فَأَخبِرهُم أَنَّ اللَّهَ افتَرَضَ عَلَيهِم زَكَاةً فِي أَموَالِهِم تُؤخَذُ مِن غَنِيِّهِم فَتُرَدُّ عَلَى فَقِيرِهِم، فَإِذَا أَقَرُّوا بِذَلِكَ فَخُذ مِنهُم وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَموَالِ النَّاسِ». أخرجه البخاري (٧٣٧٢)، ومسلم (١٩) (٣١)، واللفظ للبخاري، وفي رواية: «فليكن أولَ ما تدعوهم إليه عبادةُ اللَّه ﷻ»، وفي رواية: «شهادة أن لا إله إلا اللَّه».

وعن الحَارِثِ الأَشعَرِيِّ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ يَحيَى بنَ زَكَرِيَّا بِخَمسِ كَلِمَاتٍ أَن يَعمَلَ بِهَا وَيَأمُرَ بَنِي إِسرَائِيلَ أَن يَعمَلُوا بِهَا... فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِخَمسِ كَلِمَاتٍ أَن أَعمَلَ بِهِنَّ وَآمُرَكُم أَن تَعمَلُوا بِهِنَّ؛ أَوَّلُهُنَّ: أَن تَعبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشرِكُوا بِهِ شَيئًا، وَإِنَّ مَثَلَ مَن أَشرَكَ بِاللَّهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اشتَرَى عَبدًا مِن خَالِصِ مَالِهِ بِذَهَبٍ أَو وَرِقٍ؛ فَقَالَ: هَذِهِ دَارِي وَهَذَا عَمَلِي؛ فَاعمَل وَأَدِّ إِلَيَّ؛ فَكَانَ يَعمَلُ وَيُؤَدِّي إِلَى غَيرِ سَيِّدِهِ؛ فَأَيُّكُم يَرضَى أَن يَكُونَ عَبدُهُ كَذَلِكَ..». أخرجه الترمذي (٢٨٦٣)، وصححه الألباني.

* * *

٩- بابُ الخوف من الشرك

وقول اللَّه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦].

وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزُّمَر: ٦٥].

وقال الخليل ابراهيم ﷺ: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٥-٣٦]، قال إِبرَاهِيمُ التَّيمِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مَن يأمَنُ مِن البَلَاءِ بَعدَ خَلِيلِ اللَّهِ إبرَاهِيمَ حِينَ يَقُولُ: رَبِّ ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾؟ رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٦٨٧).

وعَن عَبدِ اللَّهِ بن مسعود رضي الله عنه قَالَ: سَأَلتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: أَيُّ الذَّنبِ أَعظَمُ عِندَ اللَّهِ؟ قَالَ: **«أَن تَجعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»** قَالَ: قُلتُ لَهُ: إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ، قَالَ: قُلتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: **«ثُمَّ أَن تَقتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أَن يَطعَمَ مَعَكَ»** قَالَ: قُلتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: **«ثُمَّ أَن تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ»**. أخرجه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).

وعن جَابِرِ بن عَبدِ اللَّهِ رضي الله عنهما قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: **«مَن لَقِيَ اللَّهَ لَا يُشرِكُ بِهِ شَيئًا دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَن لَقِيَهُ يُشرِكُ بِهِ دَخَلَ النَّارِ»**. أخرجه مسلم (٩٣) (١٥٢).

وعَن عَائِشَةَ رضي الله عنها قُلتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ابنُ جُدعَانَ كَانَ فِي الجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ، وَيُطعِمُ المِسكِينَ؛ فَهَل ذَاكَ نَافِعُهُ؟ قَالَ: «**لَا يَنفَعُهُ، إِنَّهُ لَم يَقُل يَومًا: رَبِّ اغفِر لِي خَطِيئَتِي يَومَ الدِّينِ**». أخرجه مسلم (٢١٤).

* * *

١٠- بابُ وجوب البراءة من الشرك والمشركين، وموالاة أهل التوحيد والإيمان

وقول اللَّه -تعالى-: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٩].

وقوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

وقوله: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وقوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٥-٥٦].

وقوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ﴾ [التوبة: ٧١].

وعَنِ ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**خَالِفُوا المُشرِكِينَ...**».
أخرجه البخاري (٥٨٩٢)، ومسلم (٢٥٩) (٥٤).

* * *

١١- باب بيان الشرك الذي كان عليه مخالفو الرسل -عليهم الصلاة والسلام-

وقول الله -تعالى- : ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩].

وقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزُّخرُف: ٩].

وقوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: مِن إيمانِهِم: إذَا قِيلَ لَهُم: مَن خَلَقَ السَّماءَ، وَمَن خَلَقَ الأَرضَ، وَمَن خَلَقَ الجِبالَ؟، قَالُوا: اللَّهُ، وَهُم مُشرِكُونَ. رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٣٧٢).

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزُّمَر: ٣].

وقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

وعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: كَانَ المُشرِكُونَ يَقُولُونَ: لَبَّيكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، قَالَ: فَيَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**وَيلَكُم قَد قَد**»؛ فَيَقُولُونَ: إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ تَملِكُهُ وَمَا مَلَكَ، يَقُولُونَ هَذَا وَهُم يَطُوفُونَ بِالبَيتِ. أخرجه مسلم (١١٨٥).

وعَن عِيَاضِ المُجَاشِعِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ ذَاتَ يَوم فِي خُطبَتِهِ: «**أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَن أُعَلِّمَكُم مَا جَهِلتُم مِمَّا عَلَّمَنِي يَومِي هَذَا، كُلُّ مَالٍ نَحَلتُهُ عَبدًا حَلَالٌ، وَإِنِّي خَلَقتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُم، وَإِنَّهُم أَتَتهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجتَالَتهُم عَن دِينِهِم وَحَرَّمَت عَلَيهِم مَا أَحلَلتُ لَهُم وَأَمَرَتهُم أَن يُشرِكُوا بِي مَا لَم أُنزِل بِهِ سُلطَانًا، وَإِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهلِ الأَرضِ، فَمَقَتَهُم عَرَبَهُم وَعَجَمَهُم، إِلَّا بَقَايَا مِن أَهلِ الكِتَابِ. .**». أخرجه مسلم (٢٨٦٥).

* * *

١٢- بابٌ كل مَن عَبدَ غير اللّه فهو مشركٌ أيًّا كان معبوده

وقول اللّه -تعالى-: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٠].

وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ﴾ [المائدة: ١١٦-١١٧].

وقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧].

وقوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠-٤١].

وقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فُصِّلَت: ٣٧].

وقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٩-٢٠].

* * *

١٣- بابُ إبطال التعلق بالأنبياء والصالحين

وقول اللَّه -تعالى-: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [إبراهيم: ١١].

وقوله: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥].

وقوله: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وقوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣٠-٣١].

وقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

وعن المسيّب بن حزن رضي الله عنه قالَ: لَمَّا حَضَرَت أَبَا طَالِبٍ الوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَوَجَدَ عِندَهُ أَبَا جَهلٍ وَعَبدَ اللَّهِ بنَ أبي أُمَيَّةَ بنِ المُغيرَةِ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«يَا عَمِّ قُل: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً أَشهَدُ لَكَ بِهَا عِندَ اللَّهِ»**؛ فَقَالَ أَبُو جَهلٍ وَعَبدُ اللَّهِ بنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ أَتَرغَبُ عَن مِلَّةِ عَبدِ المُطَّلِبِ؟ فَلَم يَزَل رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعرِضُهَا عَلَيهِ وَيُعِيدُ لَهُ تِلكَ المَقَالَةَ حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُم: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبدِ المُطَّلِبِ، وَأَبَى أَن يَقُولَ

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَمَا وَاللَّهِ لأَستغفِرَنَّ لَكَ مَا لَم أُنهَ عَنكَ**»؛ فَأَنزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]، وَأَنزَلَ اللَّهُ -تعالى- فِي أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]. أخرجه البخاري(١٣٦٠)، ومسلم (١٤١).

وعَن أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كُسِرَت رَبَاعِيَتُهُ يومَ أُحُدٍ وَشُجَّ فِي رَأسِهِ فَجَعَلَ يَسلُتُ الدَّمَ عَنهُ وَيَقُولُ: «**كَيفَ يُفلِحُ قَومٌ شَجُّوا نَبِيَّهُم وَكَسَرُوا رَبَاعِيَتَهُ وَهُوَ يَدعُوهُم إِلَى اللَّهِ**». فَأَنزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]. أخرجه البخاري (٤٠٦٨)، ومسلم (١٧٩١).

وعَن ابن عمر رضي الله عنهما أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِذَا رَفَعَ رَأسَهُ مِن الرُّكُوعِ مِن الرَّكعَةِ الآخِرَةِ مِن الفَجرِ يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ العَن فُلَانًا وَفُلَانًا وَفُلَانًا**» بَعدَ مَا يَقُولُ: «**سَمِعَ اللَّهُ لِمَن حَمِدَهُ رَبَّنَا وَلَكَ الحَمدُ**»، فَأَنزَلَ اللَّهُ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ إِلَى قَولِهِ: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨]. أخرجه البخاري(٤٠٦٩).

وعن أَبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ أَنزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] قَالَ: «**يَا مَعشَرَ قُرَيشٍ -أَو كَلِمَةً نَحوَهَا- اشتَرُوا أَنفُسَكُم لَا أُغنِي عَنكُم مِن اللَّهِ شَيئًا، يَا بَنِي عَبدِ مَنَافٍ لَا أُغنِي عَنكُم مِن اللَّهِ شَيئًا، يَا عَبَّاسُ بنَ عَبدِ المُطَّلِبِ لَا أُغنِي عَنكَ مِن اللَّهِ شَيئًا، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ لَا أُغنِي عَنكِ مِن اللَّهِ شَيئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنتَ**

مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئتِ مِن مَالِي لَا أُغنِي عَنكِ مِن اللَّهِ شَيئًا» . أخرجه البخاري (٢٧٥٣).

وعن عَبدِ اللَّهِ بنِ مَسعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ قال: دَخَلتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يُوعَكُ وَعكًا شَدِيدًا فَمَسِستُهُ بِيَدِي فَقُلتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعكًا شَدِيدًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«أَجَل إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنكُم»** فَقُلتُ: ذَلِكَ أَنَّ لَكَ أَجرَينِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«أَجَل»**. أخرجه البخاري (٥٦٦٠)، ومسلم (٢٥٧١).

* * *

١٤- بابُ إبطال التعلق بالملائكة

وقول الله -تعالى-: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٩].

وقوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ۚ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا الْحَقَّ ۖ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣].

وعَن أَبي هُريرَةَ رضي الله عنه يَبلُغُ بِهِ النَّبيَّ ﷺ قَالَ: «**إِذَا قَضَى اللَّهُ الأَمرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَت المَلَائِكَةُ بِأَجنِحَتِهَا خُضعَانًا لِقَولِهِ كَأَنَّهُ سِلسِلَةٌ عَلَى صَفوَانٍ** - قَالَ عَلِيٌّ: وَقَالَ غَيرُهُ -أي: غير ابن عيينة-: **صَفوَانٍ يَنفُذُهُم ذَلِكَ** -؛ **فَ﴿إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا الْحَقَّ ۖ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾**». أخرجه البخاري (٧٤٨١).

* * *

١٥- بابٌ الشفاعة ملكٌ لله فلا تُطلب من غيره، ولا تَحصل إلا بشرطين: الإذن والرضا

وقول الله -تعالى-: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ﴾ [الزُّمَر: ٤٤].

وقوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦].

وقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقوله: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ﴾ [سبأ: ٢٢-٢٣].

وقوله: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لكلِ نبيٍّ دعوةٌ مستجابةٌ فتعجّلَ كلُّ نبيٍّ دعوتَه، وإنّي اختبأتُ دعوتي شفاعةً لأُمتي يومَ القيامةِ، فهي نائلةٌ إن شاءَ اللَّهُ مَن ماتَ من أمتي لا يشركُ باللَّهِ شيئًا»**. أخرجه مسلم (١٩٩).

وعنه رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: مَن أَسعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَومَ القِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«لَقَد ظَنَنتُ يَا أَبَا هُرَيرَةَ أَن لَا يَسأَلُنِي عَن هَذَا الحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنكَ لِمَا رَأَيتُ مِن حِرصِكَ عَلَى الحَدِيثِ، أَسعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَومَ القِيَامَةِ مَن قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَالِصًا مِن قَلبِهِ أَو نَفسِهِ»**. أخرجه البخاري (٩٩).

* * *

١٦- باب ما جاء في التحذير من الغلو في الصالحين، وأنه من ذرائع الشرك

وقول اللَّه -تعالى-: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]: قال ابن عباس رضي الله عنهما: أَسمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِن قَومِ نُوحٍ؛ فَلَمَّا هَلَكُوا أَوحَى الشَّيطَانُ إِلَى قَومِهِم: أَن انصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِم الَّتِي كَانُوا يَجلِسُونَ أَنصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسمَائِهِم؛ فَفَعَلُوا؛ فَلَم تُعبَد، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ العِلمُ؛ عُبِدَت. رواه البخاري (٤٩٢٠).

وعنه رضي الله عنهما سَمِعَ عُمَرَ رضي الله عنه يَقُولُ عَلَى المِنبَرِ: سَمِعتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**لَا تُطرُونِي كَمَا أَطرَت النَّصَارَى ابنَ مَريَمَ؛ فَإِنَّمَا أَنَا عَبدُهُ فَقُولُوا: عَبدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ**». أخرجه البخاري (٣٤٤٥).

* * *

١٧- باب ما جاء في التحذير من الافتتان بقبور الصالحين أو اتخاذها مساجد، وأنهما من ذرائع الشرك

عَن عَائِشَةَ رضي الله عنها: أَنَّ أُمَّ حَبِيبَةَ وَأُمَّ سَلَمَةَ رضي الله عنهما ذَكَرَتَا كَنِيسَةً رَأَينَهَا بِالحَبَشَةِ - فِيهَا تَصَاوِيرُ- لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ أُولَئِكِ إِذَا كَانَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فَمَاتَ؛ بَنَوا عَلَى قَبرِهِ مَسجِدًا وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلكَ الصُّوَرَ، أُولَئِكِ شِرَارُ الخَلقِ عِندَ اللَّهِ يَومَ القِيَامَةِ**». أخرجه البخاري (٤٢٧)، ومسلم (٥٢٨).

وعن عائشة وابن عباس رضي الله عنهم قالا: لَمَّا نُزِلَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ طَفِقَ يَطرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجهِهِ؛ فَإِذَا اغتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا عَن وَجهِهِ؛ فَقَالَ وَهُوَ كَذَلِكَ: «**لَعنَةُ اللَّهِ عَلَى اليَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنبِيَائِهِم مَسَاجِدَ**»؛ يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا. أخرجه البخاري (٤٣٥ و٤٣٦)، ومسلم (٥٣١).

وعَن أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَا تَجعَلُوا بُيُوتَكُم قُبُورًا، وَلَا تَجعَلُوا قَبرِي عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّ صَلَاتَكُم تَبلُغُنِي حَيثُ كُنتُم**». أخرجه أبوداود (٢٠٤٢)، وصححه الألباني.

وعَن أَبِي الهَيَّاجِ الأَسَدِيِّ قَالَ: قَالَ لِي عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه: أَلَا أَبعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ أَن لَا تَدَعَ تِمثَالًا إِلَّا طَمَستَهُ، وَلَا قَبرًا مُشرِفًا إِلَّا سَوَّيتَهُ». أخرجه مسلم (٩٦٩).

وعَن أَبِي مَرثَدٍ الغَنَوِيِّ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**لَا تُصَلُّوا إِلَى القُبُورِ، وَلَا تَجلِسُوا عَلَيهَا**». أخرجه مسلم (٩٧٢).

وعن جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنهما قال: نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَن يُجَصَّصَ القَبرُ، وَأَن يُقعَدَ عَلَيهِ، وَأَن يُبنَى عَلَيهِ. أخرجه مسلم (٩٧٠).

وعَن أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه يَبلُغُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ: «**لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: مَسجِدِي هَذَا، وَمَسجِدِ الحَرَامِ، وَمَسجِدِ الأَقصَى**». أخرجه البخاري (١١٨٩)، ومسلم (١٣٩٧).

* * *

١٨- باب النهي عن عبادة اللَّه حيثُ يُشرَك بالله

عن ثابت بن الضحاك ﵁ قال: نَذَرَ رَجُلٌ عَلَى عَهدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أن يَنحَرَ إِبِلًا بِبُوَانَةَ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَال: إِنِّي نَذَرتُ أَن أَنحَرَ إِبِلًا بِبُوَانَةَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**هَل كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِن أَوثَانِ الجَاهِلِيَّةِ يُعبَدُ؟**» قَالُوا: لَا، قَالَ: «**هَل كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِن أَعيَادِهِم؟**»، قَالُوا: لَا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَوفِ بِنَذرِكَ؛ فَإِنَّهُ لَا وَفَاءَ لِنَذرٍ فِي مَعصِيَةِ اللَّهِ، وَلَا فِيمَا لَا يَملِكُ ابنُ آدَمَ**».

أخرجه أبوداود (٣٣١٣)، وصححه الألباني.

* * *

١٩- باب إخبارِه ﷺ بأن بعض أُمته سيقع في الشرك الأكبر بعده

عَن ثَوبَانَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَلحَقَ قَبَائِلُ مِن أُمَّتِي بِالمُشرِكِينَ، وَحَتَّى يَعبُدُوا الأَوثَانَ، وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي ثَلَاثُونَ كَذَّابُونَ كُلُّهُم يَزعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لَا نَبِيَّ بَعدِي**». أخرجه أبوداود (٤٢٥٢)، والترمذي (٢٢١٩)، وابن ماجه (٣٩٥٢)، واللفظ للترمذي، وصححه الألباني.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَضطَرِبَ أَلَيَاتُ نِسَاءِ دَوسٍ عَلَى ذِي الخَلَصَةِ، وَذُو الخَلَصَةِ طَاغِيَةُ دَوسٍ الَّتِي كَانُوا يَعبُدُونَ فِي الجَاهِلِيَّةِ**». أخرجه البخاري (٧١١٦)، ومسلم (٢٩٠٦).

و عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ الَّذِينَ مِن قَبلِكُم شِبرًا بِشِبرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَو دَخَلُوا فِي جُحرِ ضَبٍّ لَاتَّبَعتُمُوهُم**»؛ قُلنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ آليَهُودَ وَالنَّصَارَى؟، قَالَ: «**فَمَن؟**». أخرجه البخاري (٧٣٢٠)، ومسلم (٢٦٦٩).

* * *

٢٠- بابٌ الذبح لغير اللَّه شرك أكبر

وقول اللَّه -تعالى-: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢].

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

وعن علي رضي الله عنه قال: سَمِعتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقُولُ: «**لَعَنَ اللَّهُ مَن ذَبَحَ لِغَيرِ اللَّهِ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَن آوَى مُحدِثًا، وَلَعَنَ اللَّهُ مَن لَعَنَ وَالِدَيهِ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَن غَيَّرَ المَنَارَ**». أخرجه مسلم (٥٢٤٠).

* * *

٢١- بابٌ النذر لغير اللّه شرك أكبر

وقول اللّه -تعالى-: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٧٠].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «رَأَيتُ عمرَو بنَ عَامِرِ بنِ لُحَيٍّ الخُزَاعِيَّ يَجُرُّ قُصبَهُ فِي النَّارِ، وَكَانَ أَوَّلَ مَن سَيَّبَ السَّوَائِبَ». أخرجه البخاري (٣٥٢١)، ومسلم (٢٨٥٦) (٥١).

* * *

٢٢- بابٌ دعاء غيرِ اللَّه فيما لا يقدر عليه إلا اللَّه شركٌ أكبر

وقول اللَّه -تعالى-: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥-٦].

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٣-١٥].

وقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

وعَنِ النُّعمَانِ بنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ الدُّعَاءَ هُوَ العِبَادَةُ**»، **ثُمَّ قَرَأَ**: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾». أخرجه أبوداود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩)، وابن ماجه (٣٨٢٨)، وصححه الألباني.

وعن عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**مَن مَاتَ وَهوَ يَدعُو مِن دُونِ اللَّهِ نِدًّا؛ دَخَلَ النَّارَ**». أخرجه البخاري (٤٤٧٩).

* * *

٢٣- بابُ ما جاء في التوسل المشروع

وقول اللَّه -تعالى-: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٣٥].

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٦].

وعَن جَابِرِ بنِ عَبدِ اللَّهِ رضي الله عنهما قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا الِاستِخَارَةَ فِي الأُمُورِ كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِن القُرآنِ يَقُولُ: «**إِذَا هَمَّ أَحَدُكُم بِالأَمرِ فَليَركَع رَكعَتَينِ مِن غَيرِ الفَرِيضَةِ، ثُمَّ لِيَقُل: اللَّهُمَّ إِنِّي أَستَخِيرُكَ بِعِلمِكَ وَأَستَقدِرُكَ بِقُدرَتِكَ وَأَسأَلُكَ مِن فَضلِكَ العَظِيمِ فَإِنَّكَ تَقدِرُ وَلَا أَقدِرُ وَتَعلَمُ وَلَا أَعلَمُ وَأَنتَ عَلَّامُ الغُيُوبِ...**» -الحديث-. أخرجه البخاري (١١٦٢).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بَينَمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَخطُبُ يَومَ الجُمُعَةِ إِذ جَاءَ رَجُلٌ؛ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَحَطَ المَطَرُ؛ فَادعُ اللَّهَ أَن يَسقِيَنَا؛ فَدَعَا؛ فَمُطِرنَا. أخرجه البخاري (١٠١٥)، ومسلم (٨٩٧)، واللفظ للبخاري.

* * *

٢٤- بابٌ محبة غير اللَّه محبة تعبّديّة شرك أكبر

وقول اللَّه -تعالى-: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وعَن أَنَسٍ ﷺ عَن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**ثَلاثٌ مَن كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمَانِ: أَن يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَن يُحِبَّ المَرءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَن يَكرَهَ أَن يَعُودَ فِي الكُفرِ كَمَا يَكرَهُ أَن يُقذَفَ فِي النَّارِ**». أخرجه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣)، وفي لفظ للبخاري: «**لَا يَجِدُ أَحَدٌ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ حتى..**».

* * *

٢٥- بابٌ الخوف من غير الله خوفًا تعبّديًّا شرك أكبر

وقول الله -تعالى-: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨].

وقوله: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [النحل: ٥١].

* * *

٢٦- بابٌ التوكل على غير اللّه فيما لا يقدر عليه إلا اللّه شرك أكبر

وقول اللّه -تعالى-: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨].

وقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢].

وقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

* * *

٢٧- بابٌ من الشرك: لُبس التمائم بقصد الوقاية أو العلاج

عن عُقبَةَ بنِ عَامِرٍ الجُهَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَقبَلَ إِلَيهِ رَهطٌ؛ فَبَايَعَ تِسعَةً وَأَمسَكَ عَن وَاحِدٍ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، بَايَعتَ تِسعَةً وَتَركتَ هَذَا؟ قَالَ: «**إِنَّ عَلَيهِ تَمِيمَةً**»؛ فَأَدخَلَ يَدَهُ فَقَطَعَهَا فَبَايَعَهُ، وَقَالَ: «**مَن عَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَد أَشرَكَ**». أخرجه أحمد(١٧٤٢٢)، وصححه الألباني.

وعن أبي بشير الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي بَعضِ أَسفَارِهِ؛ فَأَرسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَسُولًا أَن: «**لَا يَبقَيَنَّ فِي رَقَبَةِ بَعِيرٍ قِلَادَةٌ مِن وَتَرٍ أَو قِلَادَةٌ إِلَّا قُطِعَت**». أخرجه البخاري (٣٠٠٥)، ومسلم (٢١١٥).

* * *

٢٨- باب ما جاء في الرقى المشروعة والرقى الممنوعة

عن عائشة رضي الله عنها أن رسولَ اللَّهِ ﷺ كانَ إذا اشتكى نفثَ على نفسه بالمُعَوِّذات، ومسح عنه بيده؛ فلما اشتكى وجعَه الذي تُوُفِّي فيه طفِقتُ أنفِثُ على نفسه بالمعوذات التي كان ينفِث، وأمسحُ بيدِ النبيِّ ﷺ عنه. أخرجه البخاري (٤٤٣٩)، ومسلم (٢١٩٢)، وهذا لفظ البخاري.

ولفظ مسلم: قَالَت: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا مَرِضَ أَحَدٌ مِن أَهلِهِ نَفَثَ عَلَيهِ بِالمُعَوِّذَاتِ، فَلَمَّا مَرِضَ مَرَضَهُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، جَعَلتُ أَنفُثُ عَلَيهِ وَأَمسَحُهُ بِيَدِ نَفسِهِ، لِأَنَّهَا كَانَت أَعظَمَ بَرَكَةً مِن يَدِي.

وعَن عَوفِ بنِ مَالِكٍ الأَشجَعِيِّ رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا نَرقِي فِي الجَاهِلِيَّةِ فَقُلنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيفَ تَرَى فِي ذَلِكَ؟ فَقَالَ: **«اعرِضُوا عَلَيَّ رُقَاكُم، لَا بَأسَ بِالرُّقَى مَا لَم يَكُن فِيهِ شِركٌ»**. أخرجه مسلم (٢٢٠٠).

وعن جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنهما قَالَ: نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الرُّقَى، فَجَاءَ آلُ عَمرِو بنِ حَزمٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهُ كَانَت عِندَنَا رُقيَةٌ نَرقِي بِهَا مِنَ العَقرَبِ، وَإِنَّكَ نَهَيتَ عَنِ الرُّقَى، قَالَ: فَعَرَضُوهَا عَلَيهِ، فَقَالَ: **«مَا أَرَى بَأسًا؛ مَنِ استَطَاعَ مِنكُم أَن يَنفَعَ أَخَاهُ فَليَنفَعهُ»**. أخرجه مسلم (٢١٩٩) (٦٣).

وعن عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«إن الرُّقَى والتَّمَائِمَ والتِّوَلَةَ شِرك»**. أخرجه أبو داود (٣٨٨٣) وابن ماجه (٣٥٣٠)، وصححه الألباني.

٢٩- بابٌ من الشرك: التبرّك بالأحجار والأشجار ونحوهما

عَن أَبِي وَاقِدٍ اللَّيثِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا خَرَجَ إِلَى حُنَينٍ مَرَّ بِشَجَرَةٍ لِلمُشرِكِينَ يُقَالُ لَهَا: ذَاتُ أَنوَاطٍ؛ يُعَلِّقُونَ عَلَيهَا أَسلِحَتَهُم، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اجعَل لَنَا ذَاتَ أَنوَاطٍ كَمَا لَهُم ذَاتُ أَنوَاطٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**سُبحَانَ اللَّهِ، هَذَا كَمَا قَالَ قَومُ مُوسَى: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ﴾** [الأعراف: ١٣٨]، **وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ لَتَركَبُنَّ سُنَّةَ مَن كَانَ قَبلَكُم**». أخرجه الترمذي (٢١٨٠)، وصححه الألباني.

وعَن عَابِسِ بنِ رَبِيعَةَ عَن عُمَرَ رضي الله عنه أَنَّهُ جَاءَ إِلَى الحَجَرِ الأَسوَدِ؛ فَقَبَّلَهُ فَقَالَ: إِنِّي أَعلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنفَعُ، وَلَولَا أَنِّي رَأَيتُ النَّبِيَّ ﷺ يُقَبِّلُكَ مَا قَبَّلتُكَ. رواه البخاري (١٥٩٧)، ومسلم (١٢٧٠).

وعَنِ المَعرُورِ بنِ سُوَيد قَالَ: خَرَجنَا مَعَ عُمَرَ رضي الله عنه فِي حَجَّةٍ حَجَّهَا فَقَرَأَ بِنَا فِي الفَجرِ: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ﴾ [الفيل: ١]، وَ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ﴾ [قريش: ١] فَلَمَّا قَضَى حَجَّهُ وَرَجَعَ وَالنَّاسُ يَبتَدِرُونَ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ فَقَالُوا: مَسجِدٌ صَلَّى فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: هَكَذَا هَلَكَ أَهلُ الكِتَابِ اتَّخَذُوا آثَارَ أَنبِيَائِهِم بِيَعًا مَن عَرَضَت لَهُ مِنكُم فِيهِ الصَّلَاة فَليُصَلِّ وَمَن لَم تَعرِض لَهُ مِنكُم فِيهِ الصَّلَاة فَلَا يُصَلِّ. رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧٦٣٢)، وصححه الألباني.

* * *

٣٠- بابٌ الطِّيَرَةُ شركٌ

عَن عَبدِ اللَّهِ بنِ مَسعُودٍ رضي الله عنه عَن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ، «الطِّيَرَةُ شِركٌ، الطِّيَرَةُ شِركٌ» ؛ ثَلَاثًا، «وَمَا مِنَّا إِلَّا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُذهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ» . أخرجه أبو داود (٣٩١٠) والترمذي (١٦١٤) وابن ماجه (٣٥٣٨)، وصححه الألباني.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سَمِعتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا طِيَرَةَ وَخَيرُهَا الفَألُ» ، قَالُوا: وَمَا الفَألُ؟ ، قَالَ: «الكَلِمَةُ الصَّالِحَةُ يَسمَعُهَا أَحَدُكُم» . أخرجه البخاري (٥٧٥٤)، ومسلم (٢٢٢٣).

وعن معاوية بن الحكم رضي الله عنه قال: قُلتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنِّي حَدِيثُ عَهدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ وَقَد جَاءَ اللَّهُ بِالإِسلَامِ وَإِنَّ مِنَّا رِجَالًا يَأتُونَ الكُهَّانَ؛ قَالَ: «فَلَا تَأتِهِم» ، قَالَ: وَمِنَّا رِجَالٌ يَتَطَيَّرُونَ؛ قَالَ: «ذَاكَ شَيءٌ يَجِدُونَهُ فِي صُدُورِهِم فَلَا يَصُدَّنَّهُم» أخرجه مسلم (٥٣٧).

* * *

٣١- بابٌ الحلفُ بغيرِ اللَّه من شعار الجاهلية

عن عُمَرَ بن الخطاب رضي الله عنه قال: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ يَنهَاكُم أَن تَحلِفُوا بِآبَائِكُم**»، قَالَ عُمَرُ: فَوَاللَّهِ مَا حَلَفتُ بِهَا مُنذُ سَمِعتُ النَّبِيَّ ﷺ ذَاكِرًا وَلَا آثِرًا. أخرجه البخاري (٦٦٤٧)، ومسلم (١٦٤٦) (١).

وعن ابن عُمَر رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَن كَانَ حَالِفًا فَلَا يَحلِف إِلَّا بِاللَّهِ**»، وَكَانَت قُرَيشٌ تَحلِفُ بِآبَائِهَا، فَقَالَ: «**لَا تَحلِفُوا بِآبَائِكُم**». أخرجه البخاري (٣٨٣٦)، ومسلم (١٦٤٦).

وعَن أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَن حَلَفَ مِنكُم فَقَالَ فِي حَلِفِهِ: بِاللَّاتِ وَالعُزَّى؛ فَليَقُل: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَمَن قَالَ لِصَاحِبِهِ: تَعَالَ أُقَامِركَ؛ فَليَتَصَدَّق**». أخرجه البخاري (٦١٠٧)، ومسلم (١٦٤٧).

وعَن بُرَيدَةَ بن الحُصَيبِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَن حَلَفَ بِالأَمَانَةِ فَلَيسَ مِنَّا**». أخرجه أبوداود (٣٢٥٣)، وصححه الألباني.

* * *

٣٢- بابٌ من الشرك: قول: ما شاء اللَّهُ وشئتَ، ونحوه

عن ابن عباس رضي الله عنهما قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يُرَاجِعُهُ الكَلَامَ، فَقَالَ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئتَ، فَقَالَ: «**جَعَلتَنِي لِلَّهِ عَدلًا، مَا شَاءَ اللَّهُ وَحدَهُ**». أخرجه ابن ماجه (٢١١٧) وأحمد (٣٢٤٧)، وصححه الألباني، واللفظ لأحمد، وفي لفظ له: «**أَجَعَلتَنِي وَاللَّهَ عَدلًا؟، بَل مَا شَاءَ اللَّهُ وَحدَهُ**».

وعَن طُفَيلِ بنِ سَخبَرَةَ أَخِي عَائِشَةَ لأُمِّهَا رضي الله عنهما أَنَّهُ رَأَى فِيمَا يَرَى النَّائِمُ كَأَنَّهُ مَرَّ بِرَهطٍ مِنَ اليَهُودِ، فَقَالَ: مَن أَنتُم؟ قَالُوا: نَحنُ اليَهُودُ، قَالَ: إِنَّكُم أَنتُمُ القَومُ لَولَا أَنَّكُم تَزعُمُونَ أَنَّ عُزَيرًا ابنُ اللَّه، فَقَالَتِ اليَهُودُ: وَأَنتُمُ القَومُ لَولَا أَنَّكُم تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، ثُمَّ مَرَّ بِرَهطٍ مِنَ النَّصَارَى، فَقَالَ: مَن أَنتُم؟ قَالُوا: نَحنُ النَّصَارَى، فَقَالَ: إِنَّكُم أَنتُمُ القَومُ لَولَا أَنَّكُم تَقُولُونَ المَسِيحُ ابنُ اللَّهِ، قَالُوا: وَأَنتُمُ القَومُ لَولَا أَنَّكُم تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ مُحَمَّدٌ، فَلَمَّا أَصبَحَ أَخبَرَ بِهَا مَن أَخبَرَ، ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَخبَرَهُ، فَقَالَ: «**هَل أَخبَرتَ بِهَا أَحَدًا؟**» قَالَ: نَعَم؛ فَلَمَّا صَلَّوا، خَطَبَهُم فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثنَى عَلَيهِ، ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ طُفَيلًا رَأَى رُؤيَا فَأَخبَرَ بِهَا مَن أَخبَرَ مِنكُم، وَإِنَّكُم كُنتُم تَقُولُونَ كَلِمَةً كَانَ يَمنَعُنِي الحَيَاءُ مِنكُم أَن أَنهَاكُم عَنهَا**»، قَالَ: «**لَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ مُحَمَّدٌ**». أخرجه ابن ماجه (٢١١٨م)، وأحمد (٢٠٦٩٤)، والسياق له، وصححه الألباني.

* * *

٣٣- بابٌ من الشرك: نسبة التسبّب بإنزال المطر إلى النجوم

وقول اللّه -تعالى-: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢].

وعَن زَيدِ بنِ خَالِدٍ الجُهَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبحِ بِالحُدَيبِيَةِ فِي إِثرِ السَّمَاءِ كَانَت مِنَ اللَّيلِ، فَلَمَّا انصَرَفَ أَقبَلَ عَلَى النَّاسِ؛ فَقَالَ: «**هَل تَدرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُم؟**» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعلَمُ، قَالَ: «**قَالَ: أَصبَحَ مِن عِبَادِي مُؤمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَن قَالَ: مُطِرنَا بِفَضلِ اللَّهِ وَرَحمَتِهِ؛ فَذَلِكَ مُؤمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالكَوكَبِ، وَأَمَّا مَن قَالَ: مُطِرنَا بِنَوءِ كَذَا وَكَذَا؛ فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤمِنٌ بِالكَوكَبِ**». أخرجه البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١)، وفي رواية له: «**فَنَزَلَت هَذِهِ الآيَةُ**: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ حَتَّى بَلَغَ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٧٥-٨٢]».

وعن أبي مالك الأشعريّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**أَربَعٌ فِي أُمَّتِي مِن أَمرِ الجَاهِلِيَّةِ لَا يَترُكُونَهُنَّ: الفَخرُ فِي الأَحسَابِ، وَالطَّعنُ فِي الأَنسَابِ، وَالاستِسقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ**». أخرجه مسلم (٩٣٤).

* * *

٣٤- باب ما جاء في سب الدَّهر والرِّيح

عَن أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ اللَّهُ عز وجل: «يُؤذِينِي ابنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهرَ وَأَنَا الدَّهرُ، بِيَدِي الأَمرُ أُقَلِّبُ اللَّيلَ وَالنَّهَارَ». أخرجه البخاري (٤٨٢٦)، ومسلم (٢٢٤٦).

وعنه رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تُسُبُّوا الرِّيحَ؛ فَإِنَّهَا مِن رَوحِ اللَّهِ تَأتِي بِالرَّحمَةِ وَالعَذَابِ، وَلَكِن سَلُوا اللَّهَ مِن خَيرِهَا وَتَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِن شَرِّهَا». أخرجه أبوداود (٥٠٩٧)، وابن ماجه (٣٧٢٧)، واللفظ له، وصححه الألباني.

* * *

٣٥- باب ما جاء في الرِّياء والسُّمعة

وقول اللَّه -تعالى-: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

وعَن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ اللَّهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-: أَنَا أَغنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّركِ، مَن عَمِلَ عَمَلًا أَشرَكَ فِيهِ مَعِي غَيرِي، تَرَكتُهُ وَشِركَهُ». أخرجه مسلم (٢٩٨٥).

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقضَى يَومَ القِيَامَةِ عَلَيهِ رَجُلٌ استُشهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلتُ فِيكَ حَتَّى استُشهِدتُ، قَالَ: كَذَبتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلتَ لِأَن يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَد قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجهِهِ حَتَّى أُلقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ العِلمَ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ القُرآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمتُ العِلمَ، وَعَلَّمتُهُ وَقَرَأتُ فِيكَ القُرآنَ، قَالَ: كَذَبتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمتَ العِلمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأتَ القُرآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَد قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجهِهِ حَتَّى أُلقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيهِ، وَأَعطَاهُ مِن أَصنَافِ المَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكتُ مِن سَبِيلٍ تُحِبُّ أَن يُنفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنفَقتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَد قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجهِهِ، ثُمَّ أُلقِيَ فِي النَّارِ». أخرجه مسلم (١٩٠٥) (١٥٢).

وعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَن سَمَّعَ سَمَّعَ اللَّهُ بِهِ، وَمَن رَاءَى رَاءَى اللَّهُ بِهِ». أخرجه مسلم (٢٩٨٦).

٣٦- باب ما جاء في إرادة الدنيا بعمل الآخرة

وقول اللَّه -تعالى-: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [هود: ١٥-١٦].

وعَن أُبَيِّ بنِ كَعبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**بَشِّر هَذِهِ الأُمَّةَ بِالسَّنَاءِ وَالرِّفعَةِ وَالدِّينِ وَالنَّصرِ وَالتَّمكِينِ فِي الأَرضِ**»، وَهُوَ يَشُكُّ فِي السَّادِسَةِ، قَالَ: «**فَمَن عَمِلَ مِنهُم عَمَلَ الآخِرَةِ لِلدُّنيَا؛ لَم يَكُن لَهُ فِي الآخِرَةِ نَصِيبٌ**». أخرجه أحمد (٢١٢٢٠)، وصححه الألباني.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**تَعِسَ عَبدُ الدِّينَارِ وَعَبدُ الدِّرهَمِ وَعَبدُ الخَمِيصَةِ، إِن أُعطِيَ رَضِيَ وَإِن لَم يُعطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانتَكَسَ وَإِذَا شِيكَ فَلَا انتَقَشَ، طُوبَى لِعَبدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَشعَثَ رَأسُهُ مُغبَرَّةٍ قَدَمَاهُ؛ إِن كَانَ فِي الحِرَاسَةِ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ وَإِن كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ؛ إِن استَأذَنَ لَم يُؤذَن لَهُ، وَإِن شَفَعَ لَم يُشَفَّع**». أخرجه البخاري (٢٨٨٧).

* * *

٣٧- باب ما جاء في الزجر عن كلّ ما ينافي تعظيم الله

عَن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ أَخنَعَ اسمٍ عِندَ اللَّهِ رَجُلٌ تَسَمَّى مَلِكَ الأَملَاكِ، لَا مَالِكَ إِلَّا اللَّهُ** عَزَّ وَجَلَّ». أخرجه البخاري (٦٢٠٦)، ومسلم (٢١٤٣)، واللفظ له.

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**لَا يَقُل أَحَدُكُم: اللَّهُمَّ اغفِر لِي إِن شِئتَ، ارحَمنِي إِن شِئتَ، ارزُقنِي إِن شِئتَ، وَليَعزِم مَسأَلَتَهُ، إِنَّهُ يَفعَلُ مَا يَشَاءُ، لَا مُكرِهَ لَهُ**». أخرجه البخاري (٧٤٧٧)، ومسلم (٢٦٧٩) (٨)، واللفظ للبخاري، ولمسلم: «**إِذَا دَعَا أَحَدُكُم فَلَا يَقُل: اللَّهُمَّ اغفِر لِي إِن شِئتَ، وَلَكِن لِيَعزِمِ المَسأَلَةَ وَليُعَظِّمِ الرَّغبَةَ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيءٌ أَعطَاهُ**».

وعَن عَبدِ اللَّهِ بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ قَالَ: كُنَّا إِذَا كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الصَّلَاةِ، قُلنَا: السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ مِن عِبَادِهِ، السَّلَامُ عَلَى فُلَانٍ وَفُلَانٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا تَقُولُوا السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّلَامُ..**». أخرجه البخاري (٨٣٥)، ومسلم (٤٠٢).

و عَن جُندَبِ بن عبداللَّه رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَدَّثَ «**أَنَّ رَجُلًا قَالَ: وَاللَّهِ لَا يَغفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ، وَإِنَّ اللَّهَ -تعالى- قَالَ: «مَن ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَن لَا أَغفِرَ لِفُلَانٍ؛ فَإِنِّي قَد غَفَرتُ لِفُلَانٍ، وَأَحبَطتُ عَمَلَكَ**» أَو كَمَا قَال. أخرجه مسلم (٢٦٢١).

* * *

٣٨- بابٌ السِّحرُ من نواقض التوحيد

وقول اللَّه -تعالى-: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢-١٠٣].

وعن بَجالة بن عبدة التميميّ قال: جَاءَنَا كِتَابُ عُمَرَ رضي الله عنه قَبلَ مَوتِهِ بِسَنَةٍ: اقتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ... فقتلنا في يومٍ ثلاثَ سَواحِرَ. رواه أبوداود (٣٠٤٣) وصححه الألباني.

* * *

٣٩- بابٌ ادعاءُ علم الغيب المطلق أو تصديق مدّعيه من نواقض التوحيد

وقول اللَّه -تعالى-: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].

وعَن أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَن أَتَى كَاهِنًا أَو عَرَّافًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ؛ فَقَد كَفَرَ بِمَا أُنزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ**». أخرجه أحمد (٩٥٣٦)، وصححه الألباني.

وعَن صفية بنت أبي عبيد عَن بَعضِ أَزواجِ النَّبِيِّ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَن أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَن شَيءٍ لَم تُقبَل لَهُ صَلَاةٌ أَربَعِينَ لَيلَةً**». أخرجه مسلم (٢٢٣٠)، وأخرجه أحمد (١٦٦٣٨) بلفظ: «**فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ**..».

وعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَنِ اقتَبَسَ عِلمًا مِنَ النُّجُومِ؛ اقتَبَسَ شُعبَةً مِنَ السِّحرِ زَادَ مَا زَادَ**». أخرجه أبو داود (٣٩٠٥) وابن ماجه (٣٧٢٦)، وصححه الألباني.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: من زعم أنَّ رسول اللَّه ﷺ يَعلم ما في غد؛ فقد أعظمَ على اللَّه الفِرية، واللَّه يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]. أخرجه البخاري (٤٨٥٥)، ومسلم (١٧٧) (٢٨٧) والترمذي (٣٠٦٨)، وغيرهم، واللفظ للترمذي.

* * *

٤٠- بابٌ سبُّ اللَّه -تعالى- أو سبُّ رسوله ﷺ، أو الاستهزاءُ بدينه من نواقض التوحيد

وقول اللَّه -تعالى-: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦]، وعَن عَبدِ اللَّهِ بنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَجُلٌ فِي غَزوَةِ تَبُوكَ فِي مَجلِسٍ: مَا رَأَينَا مِثلَ قُرَّائِنَا هَؤُلَاءِ أَرغَبَ بُطُونًا وَلَا أَكذَبَ أَلسِنَةً وَلَا أَجبَنَ عِندَ اللِّقَاءِ، فَقَالَ رَجُلٌ فِي المَجلِسِ: كَذَبتَ، وَلَكِنَّكَ مُنَافِقٌ، لَأُخبِرَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ، وَنَزَلَ القُرآنُ، قَالَ عَبدُ اللَّهِ بنُ عُمَرَ: فَأَنَا رَأَيتُهُ مُتَعَلِّقًا بِحَقَبِ نَاقَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، تَنكُبُهُ الحِجَارَةُ، وَهُوَ يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلعَبُ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥- ٦٦]. رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٤٣)، وصححه مقبل الوادعي.

وعن ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ أَعمَى كَانَت لَهُ أُمُّ وَلَدٍ تَشتُمُ النَّبِيَّ ﷺ وَتَقَعُ فِيهِ، فَينهَاهَا فَلَا تَنتَهِي، وَيَزجُرُهَا فَلَا تَنزَجِرُ، قَالَ: فَلَمَّا كَانَت ذَاتَ لَيلَةٍ جَعَلَت تَقَعُ فِي النَّبِيِّ ﷺ، وَتَشتُمُهُ، فَأَخَذَ المِغوَلَ فَوَضَعَهُ فِي بَطنِهَا، وَاتَّكَأَ عَلَيهَا فَقَتَلَهَا، فَوَقَعَ بَينَ رِجلَيهَا طِفلٌ، فَلَطَّخَت مَا هُنَاكَ بِالدَّمِ، فَلَمَّا أَصبَحَ ذُكِرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَجَمَعَ النَّاسَ فَقَالَ: «**أَنشُدُ اللَّهَ رَجُلًا فَعَلَ مَا فَعَلَ لِي عَلَيهِ حَقٌّ إِلَّا قَامَ**»، فَقَامَ الأَعمَى يَتَخَطَّى النَّاسَ وَهُوَ يَتَزَلزَلُ حَتَّى قَعَدَ بَينَ يَدَي النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَا صَاحِبُهَا، كَانَت تَشتُمُكَ، وَتَقَعُ فِيكَ، فَأَنهَاهَا فَلَا تَنتَهِي، وَأَزجُرُهَا فَلَا تَنزَجِرُ، وَلِي مِنهَا ابنَانِ مِثلُ

اللُّؤلُؤَتَينِ، وَكَانَت بِي رَفِيقَةٌ، فَلَمَّا كَانَ البَارِحَةَ جَعَلَت تَشتُمُكَ وَتَقَعُ فِيكَ، فَأَخذتُ المِغوَلَ فَوَضَعتُهُ فِي بَطنِهَا وَاتَّكَأتُ عَلَيهَا حَتَّى قَتَلتُهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَلَا اشهَدُوا أَنَّ دَمَهَا هَدَرٌ**». أخرجه أبو داود (٤٣٦١)، والنسائي (٤٠٧٠)، وصححه الألباني.

* * *

٤١- بابُ ما جاء في شِرك الطاعة

وقول اللَّه -تعالى-: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

وعَن عَدِيّ بنِ حَاتِمٍ رضي الله عنه قَالَ: أَتَيتُ النَّبِيَّ ﷺ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِن ذَهَبٍ؛ فَقَالَ: «**يَا عَدِيُّ اطرَح عَنكَ هَذَا الوَثَنَ**»، وَسَمِعتُهُ يَقرَأُ فِي سُورَةِ بَرَاءَةَ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، قَالَ: «**أَمَا إِنَّهُم لَم يَكُونُوا يَعبُدُونَهُم وَلَكِنَّهُم كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُم شَيئًا استَحَلُّوهُ وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيهِم شَيئًا حَرَّمُوهُ**». أخرجه الترمذي (٣٠٩٥)، وحسنه الألباني.

والحمد للَّه رب العالمين، وصلى اللَّهُ وسلّم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه.

* * *

الشرح

١- بابٌ أقسام التوحيد ثلاثة

توحيد العبادة، وتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات

الحمد لله، وصلى الله وسلّم على رسول الله، وعلى آله، وصحبه.

اعلم -رحمني الله وإياك- أن التوحيد في اللغة: مصدر وحّد يوَّحد: جعلُ الشيء واحدًا أو اعتقادُ الشيء واحدًا.

وفي الشرع بالمعنى العام: إفراد الله بما يختص به.

وخصائصه تعالى ترجع إلى أحد ثلاثة أبواب لا تخرج أفراد خصائصه عنها:

أولها: خصائص متعلَّقُها أفعالُه تعالى: مثل: الخلق من العدم، وتدبير الكون، وشفاء الأسقام، وهداية القلوب، وكشف الكروب، ومغفرة الذنوب.

ثانيها: خصائص متعلَّقها أسماؤه وصفاتُه: مثل: اسمه: الله، واسمه: الرحمن في (باب الأسماء)، ومثل: علم الغيب المطلق، وعلو الذات على جميع الخلق، وسمع البعيد في (باب الصفات).

ثالثها: خصائص متعلَّقها عبادته تعالى: مثل: المحبة التامة المستلزمة لكمال الطاعة والخضوع، والتوكل، والنذر.

فمن ثمة؛ قال علماء الإسلام: للتوحيد ثلاثة أنواع لا يحقق إلا بها مجتمعة، ولا يخرج شيء من أفراد حقوقه عنها:

الأول: توحيد الربوبية: وهو إفراد الله بأفعاله المختصة به.

وإن شئت قلت: هو إفراد اللَّه بالخلق والملك والتدبير.

وهذه الثلاثة هي أصول الربوبية، وقد اجتمعت في قول اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [التوبة: ١١٦]؛ فهو -جلّ وعلا- المتفرد بالخلق من عدم والخلق لكل شيء، وبالملك الاستقلالي الشامل التام، وبالتدبير الاستقلالي الشامل التام.

الثاني: توحيد الأسماء والصفات: وهو إفراد اللَّه عَزَّ وَجَلَّ بما له من الأسماء الحسنى والصفات العلى.

وله ثلاثة أصول:

الأول: إثبات الصفات للَّه بلا تمثيل، ومن أدلته: قول اللَّه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

الثاني: تنزيه اللَّه -تبارك وتعالى- بلا تعطيل، ومن أدلته: قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠].

الثالث: قطع طمعنا عن إدراك كيفية صفات اللَّه، واعتقاد أنها معلومة المعاني لنا، ومن أدلته: قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

الثالث: توحيد الألوهية (توحيد العبادة): وهو إفراد اللَّه بالعبادة.

ويسمى توحيدَ الألوهية باعتبار إضافته إلى اللَّه، وتوحيدَ العبادة باعتبار إضافته إلى الخلق.

وللعبادة اطلاقان:

الأول: باعتبار حقيقتها: هي: الخضوع للَّه بفعل أوامره واجتناب نواهيه محبة وتعظيمًا.

قال في «الكافية الشافية» (٥١٢-٥١٦):

وهو الإله الحق لا معبودَ إلا ... وجهُه الأعلى العظيمُ الشان

بل كلُّ معبود سواه فباطلٌ ... مِن عرشه حتى الحضيض الداني

وعبادةُ الرحمن غايةُ حُبِّه ... مع ذلِّ عابدِه هما قطبانِ

وعليهما فلَكُ العبادةِ دائرٌ ... ما دارَ حتى قامتِ القطبانِ

ومدارُه بالأمرِ أمرِ رسولِه ... لا بالهوى والنّفسِ والشيطانِ

والثاني: باعتبار أفرادها: هي اسم جامع لكل ما يحبه اللَّه ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

فالظاهرة: مثل: التلفظ بالشهادتين، والصلاة، والحج، والذبح، والدعاء، والباطنة: مثل: أصول الإيمان الستة، ومحبة اللَّه، وخشيته، والتوكل عليه.

وإن شئتَ قلتَ في أنواع التوحيد: التوحيد نوعان:

الأول: توحيد المعرفة والإثبات أو التوحيد العلمي، ويدخل فيه: توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، **والثاني:** توحيد القصد والطلب أو التوحيد العملي، وهو توحيد العبادة، وهذا تقسيمٌ باعتبار نوع ما يجب على العبد، والأولُ باعتبار ما يستحقه الرب.

ودليل هذا التقسيم: الاستقراء التام لنصوص الكتاب وصحيح السنة؛ فإنها حاصرة لخصائصه تعالى في هذه الأنواع، والاستقراء التام حجة، ومهما اجتهدتَ في إحداث قسم رابع للتوحيد على أنه صنيعٌ محدَث؛ فستلفِيه راجعًا إلى أحد الأقسام الثلاثة، ومن ذلك: الحاكمية؛ فإن اعتقاد تفرّد اللَّه بالحكم من توحيد الربوبية، وإفراده بالتحكيم من توحيد الألوهية.

ثم اعلم أن من مبادئ فقهك لهذا الباب: أن تُحسن الفرقَ بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية، وأهم الفروق بينهما ترجع إلى سبعة:

الأول: توحيد الألوهية: مشتق من الإله، وتوحيد الربوبية: مشتق من الرب، والإله: على وزن فعال بمعنى مفعول؛ ومعناه: المعبود، والرب: أصله راب؛ اسم فاعل.

ومعناه في اللغة: المالك السيد المصلح للشيء، وهذا الفرق في المعنى بين الرب والإله محلُّه إذا اجتمعا في الذكر كما في سورة النّاس، أما إذا افترقا في الذكر؛ فإن معناهما يتّحد، ومنه: سؤال الملكين للميت في قبره: من ربك؟؛ فإن معناه: من إلهك المتفرد بخلقك، ومنه أيضًا: قول اللَّه تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا﴾ [الأنعام: ١٦٤].

الثاني: توحيد الألوهية: متعلَّقُه أفعال العبد، وتوحيد الربوبية: متعلَّقُه أفعال الرب.

الثالث: توحيد الألوهية: امتنع عن الإقرار به مشركو العرب أشدَّ الامتناع، وتوحيد الربوبية: أقروا به في الجملة، وإنما يقول أهل العلم: «في الجملة»؛ لأنهم كانوا مشركين في بعض الربوبية؛ فكانوا يستقسمون بالأزلام ويؤمنون بالطيرة والتمائم وينكرون البعث، ولو كان إيمانُهم بتوحيد الربوبية تامًّا لأقروا بلازمه أعني توحيد الألوهية، ومع ذلك؛ فإن إقرارهم الجُمليَّ هذا كافٍ في إلزامهم بتوحيد الألوهية.

الرابع: توحيد الألوهية: يحقِّق الإسلامَ والنجاةَ، وتوحيد الربوبية بمجرده: لا يحقِّق الإسلامَ ولا النجاة.

الخامس: توحيد الألوهية: متضمنٌ لتوحيد الربوبية؛ فمن أقر بالألوهية فلا بد أن يكون مقرًا بالربوبية، وتوحيد الربوبية: مستلزمٌ لتوحيد الألوهية؛

فمن أقر بالربوبية لزمه أن يقر بالألوهية.

السادس: توحيد الألوهية: هو الغاية، وتوحيد الربوبية: وسيلة إليه ودليل عليه.

السابع: الألوهية: عملي طلبي، والربوبية: علمي خبري.

وقد اجتمعت هذه الانواع الثلاثة في عدد من آي الكتاب العزيز؛ منها هذه الآيات التي أوردها المصنف -عفا اللَّه عنه- في هذا الباب:

وقول اللَّه -تعالى-: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ١-٥].

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: أل في (الحَمدُ) للاستغراق بمعنى «كل»، واللام في (لِله) للاختصاص أو الاستحقاق؛ فجميع المحامد حق للَّه خاصة به، و(الله): الاسم العَلَم الخاص به تعالى، ومعناه: المعبود الحق، و(الحمد): هو الإخبار عن اللَّه بالكمال في ذاته أو صفاته أو أفعاله مع حبّه وتعظيمه؛ وثبوت الكمال المطلق يستلزم نفي جميع النقائص، وهذا توحيد الأسماء والصفات.

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: الرب هو الخالق المالك المدبّر المربّي لخلقه بالنِّعم، والعالَمون: كل من سوى اللَّه من جميع أصناف الخلق، وهذا توحيد الربوبية.

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: اسمان كريمان من أسماء اللَّه الحسنى يتضمنان ثبوت صفة الرحمة الكاملة التي لا تماثلها رحمة، وهذا من توحيد الأسماء والصفات.

﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾: يوم الدين هو يوم الجزاء؛ وهو يوم القيامة،

واللَّه مالكُه وملِكُه كما في القراءة المتواترة الأخرى، وهذا من أفراد الربوبية أو الصفات؛ فهو راجع إلى أحد نوعي التوحيد العلمي.

﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾: أي: نخصك وحدك بالعبادة والاستعانة؛ لا نعبد إلا أنت ولا نستعين إلا بك؛ لأن تقديم المعمول يفيد الحصر، وهذا توحيد الألوهية.

والاستعانة من أفراد العبادة وعطفت عليها؛ لافتقار العبد في جميع عباداته إلى عون اللَّه، وقد قيل: إن هذه الآية جمعت جميع أسرار القرآن؛ لأن أولهَا اقتضى عبادة اللَّه وحده بالأمر والنهي والمحبة والخوف والرجاء، وآخرهَا اقتضى عبوديته بالتوكل والتفويض والتسليم، وجميع العبوديّات داخلة في ذلك.

واشتملت هذه الآيات على محركات القلوب إلى اللَّه: المحبة والخوف والرجاء؛ المحبة في قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾، والرجاء في قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، والخوف في قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾.

وكما اشتملت أولُ سورة في كتاب اللَّه على أنواع التوحيد؛ فقد اشتملت سورة الناس آخر سورة فيه عليها؛ فتوحيد الربوبية من قوله: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، وتوحيد الأسماء والصفات من قوله: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾، وتوحيد الألوهية من قوله: ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾.

وقوله: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم: ٦٥].

﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾: هذا توحيد الربوبية.

﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ﴾: أي: اعبده وحده، واثبت على عبادته؛ قال

ابن عباس رضي الله عنهما: «كلُّ ما وردَ في القُرآنِ من العبادة؛ فهو بمعنى التَّوحِيد». انتهى. نقله السمعاني في «تفسيره» (١/ ٥٦)؛ ذلك أن الخصومة بين رسل اللَّه عليهم السلام وأقوامهم لم تكن في أصل التعبد للَّه بل في وجوب إفراده بالتعبد؛ فاشتملت هذه الجملة على توحيد العبادة.

﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾: أي: هل تعلم له نظيرًا أو مثيلًا في ذاته أو أسمائه أو صفاته، فيستحق العبادة معه؟!، وهذا استفهام بمعنى النفي، وهذا توحيد الأسماء والصفات.

وقوله: ﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٥].

﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ﴾: اسم من أسماء اللَّه الحسنى يتضمن ثبوت صفة الحياة الكاملة التي لم تسبق بعدم ولا يلحقها فناء، ولا تماثلها حياة، وهذا من أفراد توحيد الأسماء والصفات.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: كلمة التوحيد؛ توحيد الألوهية.

﴿فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ﴾: أي: فأخلصوا له العبادة والدعاء، وهذا توحيد الألوهية.

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾: توحيد الأسماء والصفات.

﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: توحيد الربوبية.

وقوله: ﴿قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [المائدة: ٧٦].

﴿قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: إنكار من اللَّه عليهم عبادةَ غيره؛ فلا حق لسواه تعالى في العبادة، وهذا توحيد الألوهية.

﴿مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرًّا وَلَا نَفۡعًاۚ﴾ : نفي لاستحقاقهم للعبادة بنفي ملكهم للضر والنفع ؛ فدل على أنه النّافع الضار وحده، وذلك من توحيد الربوبية.

﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ : خبر باختصاصه تعالى بهذين الاسمين الكريمين وما يتضمنانه من صفات، وذلك من توحيد الأسماء والصفات.

* * *

٢- بابُ تفسير توحيد العبادة ومعنى لا إله إلا الله

اعلم -رحمك اللَّه- أن سبيلك لفقه حقيقة توحيد العبادة وعقل معنى كلمة التوحيد ومقتضاها أن تستبين حقيقةَ دين المرسلين وحقيقة دين المشركين، وحقيقةَ الخصومة بينهما، وطريق ذلك: تدبّر كتاب اللَّه، وهذا باب يشتمل على جملة من الآيات تبلّغُك مرادَك إن شاء اللَّه.

وقول اللَّه -تعالى-: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٦].

في هذه الآية: يأمر اللَّه تعالى نبيه ﷺ أن يبين حقيقة دعوته التي بها يفارق ما عليه المشركون من قومه بقوله لهم: إنه أُمِرَ ونُهيَ: أُمر بالإسلام لرب العالمين وهو الخضوع له وحده، ونُهي عن عبادة آلهتهم التي يعبدون من دون اللَّه، وذلك تفسير توحيد العبادة.

وقوله: ﴿لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ﴾؛ أي: أنا على يقين وبصيرة؛ لستُ في شكٍّ من أمري، و﴿الْبَيِّنَاتِ﴾: آيات القرآن.

وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزُّخرُف: ٢٨].

في هذه الآية: بيان حقيقة دعوة الخليل إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- التي بها فارق ما عليه المشركون من قومه، وأنها: براءته من كل معبود يعبدونه إلا واحد هو اللَّه المتفرد بالخلق من العدم والمتفرد بالهداية.

وفيها: بيان لركني لا إله إلا اللَّه: النفي والإثبات: نفي استحقاق الألوهية عن غير اللَّه، وإثباته للَّه وحده، وقد عبر عنها الخليل عليه السلام بمعناها الذي أريدت به، فعبر عما نفته بقوله: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾، وعما أثبتته

بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾؛ فقصر العبادة على اللَّه وحده، ونفاها عن كل ما سواه ببراءته من ذلك، وذلك تفسير توحيد العبادة، وفي قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾: استدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية.

وقوله: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾؛ أي: لم يزل في ذريته مَن يقول ذلك مِن بعده؛ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: إلى اللَّه بالتوبة إليه من الشرك والمعاصي، والكلمة هي: لا إله إلا اللَّه.

وقوله عن قوم هود عليه السلام: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأعراف: ٧٠].

في هذه الآية: يخبر تعالى عن جواب عاد لرسولهم هود عليه السلام لمّا دعاهم إلى توحيد اللَّه؛ مفصحين عن وجه استكبارهم عن قبولهم دعوتَه عليه السلام؛ مقرّين بأنه: أمرُه إيَّاهم أن يعبدوا اللَّه وحده ويتركوا ما كان يعبد آباؤهم من الأنداد، وذلك تفسير توحيد العبادة، وبيان لمحل الخصومة بين رسل اللَّه عليهم السلام وأقوامهم.

وقوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦].

﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾: الكفر بالطاغوت هو: البراءة من عبادة غير اللَّه، ومجانبتها، واعتقاد بطلانها، والطاغوت: صيغة مبالغة من الطغيان، وللسلف فيه تفاسير ترجع إلى ما ذُكر في «أعلام الموقعين» (١/ ١٠٣): الطاغوت: كل ما تجاوز به العبدُ حدَّه من معبود أو متبوع أو مطاع. انتهى؛ ويقال في كل من عبد غير اللَّه: إنه عبدَ الطاغوت، وهو عابدٌ للشيطان على كل حال لأنه الداعي إلى ذلك، ولا يقال في حق المعبود من دون اللَّه: إنه طاغوت حتى يكون راضيًا بعبادته من دون اللَّه.

﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾: أي: تمسّك بأوثق ما يتمسّك به مَن طلب الخلاص لنفسه من عذاب اللَّه وعقابه؛ عروة لا يُخشى انكسارُ عراها؛ وهي: لا إله إلا اللَّه.

وفي الآية: الجمع بين النفي والإثبات؛ فلا يكون الإنسان موحدًا ناجيًا يوم القيامة حتى يؤمن بأن اللَّه هو الإله الحق ويكفرَ بالطاغوت، وذلك يتضمن: خلعَ جميع المعبودات مع اللَّه كائنةً ما كانت في جميع العبادات كائنةً ما كانت، وهذا تفسير لتوحيد العبادة، وبيان لركني لا إله إلا اللَّه.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾ [الصافات: ٣٥ - ٣٦].

وفي الآية: يخبر اللَّه تعالى عن المشركين في زمان رسول اللَّه ﷺ أنهم كانوا إذا قيل لهم: قولوا: لا إله إلا اللَّه؛ يستكبرون، ذلك: أنها تقتضي ترك عبادة آلهتهم من دون اللَّه، وإفراد اللَّه بالعبادة، ولم يكفهم -قبّحهم اللَّه- تكذيبُهم لرسولهم ﷺ حتى وصفوا الكذب ورموه بأفرى الفرى، وهم يعلمون أنه لا يعرف الشعر، وأنه أقوم خلق اللَّه عقلًا وأحسنهم رأيًا.

والإله يطلق في مواضع من كتاب اللَّه، ويراد به: المعبود، ومنه: قول اللَّه تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [هود: ١٠١]، وقوله: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢]، وقوله: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١-٨٢].

ويُطلق في مواضع، ويراد به: المستحق للعبادة، ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقوله: ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٩]، وقوله: ﴿أَئِنَّكُمْ

﴿لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقد تعدّ آية الباب من ذلك على زعم المشركين أن آلهتهم تستحق العبادة.

وهذا الثاني هو المراد في كلمة التوحيد لا إله إلا اللَّه.

قال في «رفع الاشتباه عن معنى العبادة والإله» (١/ ٣٩٨):

«والصواب إن شاء اللَّه تعالى إبقاء الآيات على ظواهرها، وأنه قد يجيء [الإله] بمعنى: ما من شأنه أن يُعبد؛ فيُؤخذ من ذلك قيد الاستحقاق؛ فمعناه حينئذ: مستحق للعبادة، وقد يجيء بمعنى: معبود؛ أي: بالفعل، ومعناه حينئذ: معبود بلا قيد؛ فحاصل ما تدل عليه الآيات أن القول بوجود إله غير اللَّه تعالى؛ إن كان بمعنى: مستحق للعبادة؛ فشرك، وإن كان بمعنى: معبود بالفعل غير مستحق؛ فلا، فأما اتخاذ إله غير اللَّه تعالى؛ فشرك مطلقًا، وهذا مما لا خلاف فيه بين المسلمين».

وإذا كان الإله في كلمة التوحيد بمعنى: المستحق العبادة؛ صار معنى هذه الكلمة: لا مستحقَ للعبادة موجودٌ إلا اللَّه.

وقولنا: «لا مستحق للعبادة..» أدق من قول: «لا معبود بحق..»؛ للاتفاق على أن من اعتقد في شيء أنه مستحق للعبادة؛ فقد اعتقد أنه إله؛ وإن لم يعبده هو ولا غيره، وهذا المعنى لا تنفيه عبارة: لا معبود بحق؛ فإنها تخص النفي بما عُبد بالفعل، ولا تتناول بالنفي ما لم يُعبد ممن يُظن فيه استحقاق العبادة، على ما بينه في «رفع الاشتباه» **(١/ ٣٩٦-٣٩٧)**.

وقوله: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].

في هذه الآية: يخبر تعالى عن عجب المشركين في زمان رسول اللَّه ﷺ

أن جاءهم منذرٌ يُفرِد بالعبادةِ إلهًا واحدًا هو اللَّه، وذلك يبيّن محلَّ الخصومة بين رسول اللَّه ﷺ وبين مشركي قومه؛ وأنه في شأن توحيد العبادة.

فالعجب ممن يدّعي الإسلام وهو لا يعرف من معنى هذه الكلمة الطيّبة ما يعرفه جهّالُ المشركين الأولين.

وقـولـه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

﴿ذَٰلِكَ﴾: أي: المذكور في الآية السابقة من إدخال الليل في النهار، وإدخال النهار في الليل، مما يقررُّ تفردَّه بالتصرف والتدبير سبحانه؛ ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾: أي: الإله الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له.

﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾: أي: مِن الأصنام والأنداد والأوثان وكلِّ معبود سوى اللَّه؛ فهو باطل؛ لا حق له في شيء من العبادة، وذلك تفسير توحيد العبادة.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾: هو العلي على جميع خلقه ذاتًا وقدرًا وقهرًا، وهو الكبير الذي لا أكبر منه.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمسٍ: عَلَى أَن يُعبَدَ اللَّهُ وَيُكفَرَ بِمَا دُونَهُ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَحَجِّ البَيتِ، وَصَومِ رَمَضَانَ». أخرجه مسلم (١٦) (٢٠).

في هذا الحديث: بيان أصول دين الإسلام الخمسة، وأساسها:

أولها: شهادة أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول اللَّه، وفي هذه الرواية: تصريحٌ بمقتضى لا إله إلا اللَّه وتفسيرٌ لحقيقة التوحيد الذي به يكون العبد مسلمًا: أن يعبد اللَّه ويكفر بما دونه.

ومما سبق تعلم أن الحق في شهادة التوحيد ينتظم بمعرفة خمسة أمور:

الأول: أن الإله هو المستحق للعبادة؛ وأخطأ خطأ عظيمًا من فسّر الإله بالخالق أو ادّعى أن كلمة التوحيد إنما تنفي الخالقَ؛ إذ لو كان هذا حقًا لبادرَ المشركون إلى إجابة الرسول ﷺ إليها؛ لأنهم كانوا مقرّين بأن اللَّه هو الخالق، ويلزم على هذا التفسير الفاسد لازمان باطلان:

١) أن بعثة النبي ﷺ والرسل عليهم السلام قبله كانت عبثًا؛ إذ كيف يدعون المشركين إلى كلمة النجاة ويجعلون معناها قطب رحى دعوتهم وأصلَ رسالتهم ومبدأها ويقولون: «**قولوا: لا إله إلا اللَّه تفحلوا**» لقوم يقرّون بمعناها.

٢) أن النبي ﷺ كان -وحاشاه- ظالمًا معتديًا في قتالهم واستحلال دمائهم وأموالهم وسبي نسائهم.

وكذا من زعم أن معنى الإله: الحاكم، فهذا باطل أيضًا؛ لأن إفراد اللَّه بالحكم مقتضًى من مقتضيات هذه الكلمة وليس هو معناها؛ يوضّح ذلك: أن تحكيم اللَّه في الشؤون الحياتية مع الإشراك به في عبادته؛ لا يكون مانعًا من الحكم على صاحبه بالشرك، ولو أن دولة كافرة عملت بأحكام اللَّه على الزاني والسارق والقاتل وسائر أحكام الشرع بغيةَ ضبط الأمن؛ فإنها لا تدخل في الإسلام إلا إذا أذعنت للَّه بالتوحيد، ولأن المشركين لو فهموا من هذه الكلمة مجرد التحاكم؛ لبادروا إلى الإذعان؛ فلقد عرضوا ذلك على رسول اللَّه ﷺ حينما قالوا له: «إن كنتَ تريد بما جئتَ به من هذا القول مالًا؛ جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت تريد به شرفًا؛ شرّفناك علينا حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد مُلكًا ملّكناك» كما هو مشهور في «السيرة». رواه ابن إسحاق (٢٦٨)، ولكنهم أيقنوا من معناها

خلعَ الأنداد ونبذَ الأصنام.

الثاني: أن خبر لا النافية للجنس تقديره: موجود، أو: نحوها.

لكن من قدر الخبر بـ: موجود على تقدير أن الإله هو المعبود بلا قيد؛ فيكون المعنى: لا معبود موجود إلا اللَّه؛ فقد أساء، وناقض الحس والشرع؛ فإن الآلهة التي تُعبد من دون اللَّه كثيرةٌ من الصالحين والأصنام والأشجار والأحجار، وقد قال اللَّه تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ ۖ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٤]، ويلزم على هذا الإطلاق لازمان باطلان:

١) أن يكون جميع من يُعبَد هو اللَّه، وهذا هو قول أهل وحدة الوجود، وهو من أشنع الكفر والإلحاد.

٢) ألا يسمّى أحدٌ من المشركين مشركًا؛ لأن كل معبود هو اللَّه -والعياذ باللَّه-، وهذا هو قول دعاة وحدة الأديان، وهو فرع عن الأول.

الثالث: أن لها ركنين لابد من اجتماعهما: النفي والإثبات، إذ النفي المجرد إلحاد، والإثبات المجرد لا يمنع الشريك.

الرابع: أن لها مقتضى هو أن يُعبدَ اللَّه؛ ويُكفرَ بما سواه.

الخامس: أن لها شروطًا لا تنفع قائلَها إلا بتحقيقها جميعها كما سيأتي في الباب الثالث.

* * *

٣- بابُ شروط لا إله إلا اللَّه

وهي: العلم، واليقين، والإخلاص، والصدق، والمحبة، والقبول، والانقياد

لا إله إلا اللَّه مفتاح الإسلام ومفتاح دار السلام لها شروطٌ هي حقوقها اللازمة لها، لا تنفع قائلها إلا بتحقيقها كلِّها، ولذلك عُلّقت النّجاةُ بها على قولها شهادةً لا مجردَ قولٍ، وأكذبَ اللَّهُ المنافقين حينما قالوا: «نَشهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ» بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]؛ لأنهم لم يَصدُقوا في قولها.

وليس الشأن في حفظها وعدّها، إنما الشأن كلّ الشأن في اجتماعها في العبد والتزامه إيّاها؛ فمن أخلّ بها أو بواحد منها؛ لم تنفعه يوم القيامة؛ قيل للحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن ناسًا يقولون: من قال: لا إله إلا اللَّه؛ دخل الجنة؛ قال: «**من قال: لا إله إلا اللَّه؛ فأدى حقها وفرضها؛ دخل الجنة**». رواه أبو القاسم الأصبهاني في «الحجة» (٢/ ١٥٨)، وقيل لوهب بن منبّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أليس مفتاح الجنة لا إله إلا اللَّه؟ قال: «بلى، ولكن ليس مفتاحٌ إلا له أسنان، فإن جئتَ بمفتاح له أسنان فُتح لك، وإلا لم يفتح لك». علّقه البخاري في صدر كتاب الجنائز من «صحيحه» (١/ ٢٣٣)، ووصله في «التاريخ الكبير» (١/ ١/ ٩٥ رقم ٢٦١).

وشروط لا إله إلا اللَّه سبعة: العلم بمعناها، واليقين به، والإخلاص في قولها، والصدق في قولها، وإلا لم تنفعه كحال المنافقين، ومحبة ما دلت عليه، والقبول له بالقلب واللسان، والانقياد له ظاهرًا وباطنًا.

وهي مجموعة في قول الناظم:

علمٌ يقينٌ وإخلاصٌ وصدقُك مع محبةٍ وانقيادٍ والقبولِ لها

وقول الله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩].

في هذه الآية: أمرُ الله لنبيه ﷺ بالعلم بأنه لا إله إلا الله أي: بأنه لا مستحق للعبادة في الوجود إلا الله، ففيها: دليل لشرط العلم من شروط لا إله إلا الله، والشهادة لا تكون شهادة إلا مع العلم بمعنى المشهود به، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦].

وفيها: الأمر بالعمل بالتوحيد بعد العلم به، وبهذا المعنى أيضًا: قول الله لموسى عليه السلام: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [طه: ١٤]، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وهذا أحد مقاصد دراسة التوحيد، ومقاصد دراسته ترجع إلى أربعة: تعلّمه على وجه التفصيل، والعمل به، والاجتماع عليه والبراءة من أعدائه، والدعوة إليه مع الصبر على الأذى فيه.

وفيها: الأمر بالجمع بين التوحيد والاستغفار؛ وهما قوام الدين: التوحيد يمحو الشرك، والتوبة والاستغفار يمحوان الذنوب التي دون الشرك، وقد قرن الله بينهما في غير موضع من كتابه.

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾ [البقرة: ١٦٥].

في هذه الآية: ذمٌّ للمشركين لاتخاذهم أمثالًا ونظراء يسوّونهم مع الله في المحبة، وثناءٌ على المؤمنين لإفرادهم ربهم سبحانه بالمحبة التعبدية،

ولكمال محبتهم له تعالى، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾: أي: من محبة المشركين لأندادهم؛ وهي آلهتهم التي كانوا يعبدون من دون اللَّه.

وفيها: دليل لشرط المحبة من شروط لا إله إلا اللَّه، ووجه الدلالة: ثناء اللَّه على الذين آمنوا حينما أفردوا اللَّه بالمحبة وكمّلوها؛ قاصدين مخالفة المشركين، وذلك فرعٌ عن محبتهم للتوحيد وبغضهم للشرك، وهذا شرط المحبة من شروط لا إله إلا اللَّه.

ومن محبة لا إله إلا اللَّه: محبةُ أهلها المحققين لها، ومحبة الدعوةِ إليها والدعاةِ إليها، ومحبة دروسِ التوحيد، وبغضُ ما يضاد ذلك.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: ٣٥- ٤٠].

في هذه الآيات: وعيد من اللَّه تعالى لمن استكبر عن قول لا إله إلا اللَّه وأبى ترك عبادة سواه بالعذاب الموجع يوم القيامة، ثم استثنى من عذابه: عبادَه الموحدين، وفي ذلك: أنه لا نجاة لأحد يوم القيامة حتى يقول في دار العمل: (لا إله إلا اللَّه) راضيًا بها قابلًا لمقتضاها، وذلك هو شرط القبول من شروط لا إله إلا اللَّه.

خرج بذلك: من أيقن بقلبه بمعناها وصحة دين الإسلام ثم أبى أن يقولها كبرًا أو هيبةً لقومه أو حبًّا للرئاسة أو غير ذلك؛ فلا ينفعه ذلك؛ كحال أبي طالب.

والناس في قول لا إله إلا اللَّه على أقسام:

الأول: مَن قالها بلسانه معترفًا بها ملتزمًا العمل بمقتضاها عمرَه، وآمن بها بقلبه وفعله؛ فهذا المؤمن، **الثاني**: من قالها بلسانه، ولم يؤمن بها بقلبه؛ فهذا منافق النفاق الأكبر، وإن كان في الظاهر مسلمًا، الثالث: من آمن بها بقلبه، وأبى النطق بها؛ فهذا كافر إجماعًا.

وفي الآيات: أن المشركين الأولين كانوا عالِمين بأن كلمة التوحيد عهدٌ والتزامٌ؛ من نطق بها لزمه العمل بها ظاهرًا وباطنًا، وإلا كان كاذبًا في قولها ولذلك أبوا النطق بها، كما كانوا عالِمين بأن مقتضاها ترك كل مألوه سوى اللَّه، ولقد جهل كثيرٌ من المتأخرين ما علِمه المشركون الأولون، واللَّه المستعان.

وقوله: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان: ٢٢].

أَي: ومن ينقد للَّه؛ وهو موحِّد له ومحسنٌ بمتابعة نبيه ﷺ؛ فقد استمسك بالعروة الوثقى؛ أي: تمسك بأوثق ما يتمسك به مَن طلب الخلاص لنفسه من عذاب اللَّه وعقابه، وهي: لا إله إلا اللَّه.

وذلك شرط الانقياد من شروط لا إله إلا اللَّه؛ خرج به: من عبد مع اللَّه غيره، ولم ينقد لشريعته التي أوحاها على لسان رسوله ﷺ؛ فلا يكون موحدًا؛ ولو قال: لا إله إلا اللَّه قابلًا راضيًا؛ فإن شرط استمرار حكمها ألا يُحدِثَ صاحبُها ما يُخلّ بموجَبها.

وهذا القسم الرابع من أقسام الناس في قول لا إله إلا اللَّه؛ من قالها بلسانه ونقضها بفعله؛ فهذا كافر أيضًا.

فليس الإسلام المعرفة فقط، ولا المعرفة والإقرار فقط، بل المعرفة والإقرار والانقياد والتزام توحيد اللَّه وطاعته وفق ما أوحى إلى رسوله ﷺ.

وفي الآية: الجمع بين شرطي قبول العمل الصالح: الإخلاص والمتابعة.

وعن عثمان رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «مَن مَاتَ وَهُوَ يَعلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الجَنَّةَ». أخرجه مسلم (٢٦).

في هذا الحديث: تقييد الوعد بدخول الجنة بالعلم بأنه لا إله إلا اللَّه، وذلك شرط العلم من شروط لا إله إلا اللَّه، وقد سبق بيان معنى لا إله إلا اللَّه.

وعَن أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي مَسِيرٍ، قَالَ: فَنَفِدَت أَزوَادُ القَومِ، قَالَ: حَتَّى هَمَّ بِنَحرِ بَعضِ حَمَائِلِهِم، قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَو جَمَعتَ مَا بَقِيَ مِن أَزوَادِ القَومِ، فَدَعَوتَ اللَّهَ عَلَيهَا، قَالَ: فَفَعَلَ، قَالَ: فَجَاءَ ذُو البُرِّ بِبُرِّهِ، وَذُو التَّمرِ بِتَمرِهِ، -وَقَالَ مُجَاهِدٌ: وَذُو النَّوَاةِ بِنَوَاهُ، قُلتُ: وَمَا كَانُوا يَصنَعُونَ بِالنَّوَى؟ قَالَ: كَانُوا يَمُصُّونَهُ وَيَشرَبُونَ عَلَيهِ المَاءَ-، قَالَ: فَدَعَا عَلَيهَا قَالَ حَتَّى مَلَأَ القَومُ أَزوِدَتَهُم، قَالَ: فَقَالَ عِندَ ذَلِكَ: «أَشهَدُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، لَا يَلقَى اللَّهَ بِهِمَا عَبدٌ غَيرَ شَاكٍّ فِيهِمَا؛ إِلَّا دَخَلَ الجَنَّةَ». أخرجه مسلم (٢٧) (٤٤).

في هذا الحديث: تقييد الوعد بدخول الجنة بالشهادة بأن لا إله إلا اللَّه وبأن محمدًا رسول اللَّه مع اليقين بهما، وذلك شرط اليقين من شروط لا إله إلا اللَّه، فهو أعني الوعد بدخول الجنة مقيدٌ بقيدين: الشهادة بذلك، واليقين.

ومعنى: «أَشهَدُ»: أَنطقُ بما أَعلمُه وأتيقَّنُه؛ فلا بد في الشهادة من علم

واعتقاد ونطق وإخبار؛ فليست الشهادة بأن لا إله إلا اللَّه مجردَ نطق اللسان بها كما يتوهم كثير من عامة المسلمين بل هي: النطق بـ: «لا إله إلا اللَّه» على جهة الاعتراف بها والالتزام بمدلولها، مع العلم بمعناها، واعتقاد هذا المعنى، ثم العمل بمقتضاها ظاهرًا وباطنًا، وكما أن ذكر النُّور لا يضيء، وذكر الماء لا يَروي؛ فكذلك مجرد ذكر كلمة التوحيد لا يحصل به التوحيد.

والشهادة بأن محمدًا رسول اللَّه هي: اعتقاد الإنسان بقلبه ونطقه بلسانه بأن محمدًا عبد اللَّه ورسوله إلى الثقلين الإنس والجن، وأنه خاتم النبيِّين، وعمله بمقتضى ذلك من تحقيق الطاعة والاتباع.

وفيه: آية من آيات نبوة محمد ﷺ، وقد أيّد اللَّه خليله محمدًا ﷺ بآيات كثيرة دالة على نبوته ﷺ تزيد على ألف آية، وهي أنواع عدة؛ منها: الآيات الحسيّة كانشقاق القمر، وتكثير الطعام والشرابِ وماء الوضوء، ونبع الماء من بين أصابعه في القدح، وتسبيح الطعام بين يديه، وحنين الجذع إليه، وتسليم حجرٍ بمكةَ عليه.

وعن عتبان بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لَن يُوَافِيَ عَبدٌ يَومَ القِيَامَةِ يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَبتَغِي بِهِ وَجهَ اللَّهِ إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيهِ النَّارَ». أخرجه البخاري (٦٤٢٢).

في هذا الحديث: تقييد الوعد بتحريم النار على العبد بقول لا إله إلا اللَّه مع الإخلاص، وذلك شرط الإخلاص من شروط لا إله إلا اللَّه، والإخلاص في قولها: يتضمن العمل بما دلت عليه؛ فإن من أخلص في أمرٍ اجتهدَ في طلبه، والمراد بقول لا إله إلا اللَّه: القولُ التام المستوفي لحقوقها؛ قولُ القلب واللسان والجوارح.

وفيه: إثبات الوجه للَّه على ما يليق بجلاله وعظمته.

وعن أَنَس بن مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَمُعاذٌ رَدِيفُهُ عَلَى الرَّحلِ قَالَ: «مَا مِن أَحَدٍ يَشهَدُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ صِدقًا مِن قَلبِهِ إِلَّا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّار»، قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَفَلَا أُخبِرُ بِهِ النَّاسَ فَيَستَبشِرُوا؟ قَالَ: «إِذًا يَتَّكِلُوا»، وَأَخبَرَ بِهَا مُعَاذٌ عِندَ مَوتِهِ تَأَثُّمًا. أخرجه البخاري (١٢٨).

في هذا الحديث: تقييد الوعد بتحريم النار على العبد بالشهادة بأن لا إله إلا اللَّه وبأن محمدًا رسول اللَّه صدقًا من قلبه، وذلك شرط الصدق من شروط لا إله إلا اللَّه؛ فهو أعني الوعد بتحريم النار مقيد بقيدين: الشهادة بذلك، والصدق.

* * *

٤- بابٌ توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات من براهين توحيد العبادة

عرفتَ فيما سبق أنواعَ التوحيد الثلاثة، ومعانيها، والعلاقة بينها، وفي هذا الباب مزيدُ بيان للعلاقة بين توحيد العبادة، وبين نوعي التوحيد العلمي: توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، ذلك أن اللَّه -تبارك وتعالى- يحتج على المشركين بتفرّده بالخلق والملك والتدبير وكمال الصفات على وجوب إفراده بالعبادة؛ فيستدل عليهم بما أقروا على ما أنكروا، **وفي هذا**: أن توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات يستلزمان توحيد العبادة.

وقول اللَّه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١- ٢٢].

﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾: أي: وحدوا ربكم في العبادة، وهذا أمر بتوحيد العبادة، وهو أول أمر في المصحف.

﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ﴾: هذا البرهان، وهو توحيد الربوبية.

﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا﴾: أي: في العبادة، وهذا أول نهي في المصحف.

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ : أنه المتفرد بالربوبية .

وقد أعمل رسل اللَّه عليهم السلام هذا البرهان ؛ فاحتجوا على أقوامهم بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية ، قال تعالى : ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١]، وقال عيسى عليه السلام : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران: ٥١] .

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ : توحيد الربوبية ، المستدلُّ به .

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ : توحيد العبادة ، المستدل له .

﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ : توحيد الربوبية ، المستدَل به .

﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ : أي : وحدوه في العبادة ، وهذا المستدل له .

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ : أي : واللَّه على كل ما خلقَ رقيبٌ وحفيظ ؛ يقوم بأرزاق جميعهم وأقواتهم وتدبيرهم ، وهذا المستدل به ؛ وهو توحيد الربوبية .

وقوله: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦].

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ﴾ : توحيد الربوبية ، المستدل به .

﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ : أي : في العبادة، وهذا المستدل له.

﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّاۚ﴾ : بيان لعدم استحقاقهم للعبادة بفقدهم لصفة الربوبية؛ ذلك أنهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا أو ضرًّا؛ فكيف يملكونه لغيرهم.

﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْۚ﴾ : هذا استفهام إنكار بمعنى النفي؛ أي : أم أن أولياءهم الذين جعلوهم شركاء مع اللَّه يخلقون مثل خلقه؛ فتشابه خلق الشركاء بخلق اللَّه؛ فاعتقدوا استحقاقهم للعبادة؟! لا؛ فإنهم مقرون أن آلهتهم لم يخلقوا كخلق اللَّه، وإنما يجعلونهم شفعاء، وهذا بيان لعدم استحقاق آلهتهم للعبادة بفقدهم لصفة الربوبية.

﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ : أي : قل ذلك جوابًا ولن يخالفك فيه مخالفٌ، وهذا توحيد الربوبية، المستدل به.

﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ : هذا توحيد الأسماء والصفات، يستدل اللَّه به أيضًا على وجوب إفراد اللَّه بالعبادة.

قال في «الكافية الشافية» (٩٥٣-٩٥٥):

والقهرُ والتوحيدُ يشهدُ منهما ... كلٌّ لصاحبه هما عِدلانِ

ولذلك اقترنا جميعًا في صفا ... ت اللَّهِ فانظر ذاك في القرآنِ

فالواحدُ القهارُ حقًّا ليس في الـ ... إمكان أن تحظى به ذاتانِ

وفي هذه الآية : أن كل معبود سوى اللَّه؛ فهو فاقد لصفات الإله المستحق للعبادة، والعادم لصفات الكمال ناقصٌ عن أن يكون معبودًا.

وقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا

خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

هذه آية الكرسي أعظم آية في كتاب اللَّه، وقد اشتملت على عشر جمل؛ كلها ثناء على اللَّه وتعظيم له وبيان لكماله، كل جملة منها تلي كلمة التوحيد: استدلالٌ بتوحيد الأسماء والصفات على توحيد العبادة، ولما ظهرت بها الحجة واستبانت المحجة؛ قال اللَّه عقبها: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾؛ فلا حاجة معها للإكراه على التوحيد؛ فأهل الرشد هم أهلُه، وأهل الغيّ هم أعداؤه.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: هذا توحيد العبادة، وهو المستدَلُّ له إلى آخر الآية.

﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾: الحَيُّ: الذي له كمال الحياة، حياته لم تسبق بعدم ولا يلحقها فناء، القَيُّومُ: القائم بنفسه، القائم على غيره؛ فهو الغني عن جميع خلقه، وكلهم مفتقرون إليه غاية الافتقار، استدلالٌ بكمال حياته وقيوميته وغناه -تبارك وتعالى- على توحيد العبادة.

﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾: لكمال حياته وقيوميته، والسِنة: النعاس.

﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: استدلالٌ بكمال ملكه تعالى وعمومه، وبتفرده بذلك الملك على توحيد العبادة؛ إذ تقديم الجار والمجرور يفيد الاختصاص.

﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾: استفهام معناه النفي، استدلالٌ بكمال سلطانه على توحيد العبادة.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: أي: يعلم مستقبل العباد وماضيهم، استدلالٌ بكمال علمه تعالى وإحاطة علمه على توحيد العبادة.

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾: استدلالٌ بنقص علم المخلوقين على عدم استحقاقهم للعبادة، وتفرّده بذلك تعالى.

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾: الكرسي: مخلوق عظيم جدًا، وهو موضع قدمي الرب -تبارك وتعالى- كما صح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدر قدره أحد». رواه ابن أبي شيبة في «العرش» (٦١)، وعبد الله بن أحمد في «السنة» (١٠٢٠) وغيرهما؛ وقد أحاط بالسماوات والأرض على سعتهما وعظمهما؛ وهذا استدلالٌ بعظمة كرسيه على كمال عظمة الله وسعة سلطانه، وهما دليلان على توحيد العبادة.

﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾: أي: لا يُثقِله؛ استدلالٌ بكمال قدرته وقوته تعالى على توحيد العبادة.

﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾: استدلال بكمال علوه في الذات والقدر والقهر، وكمال عظمته في الذات والملك والسلطان وبكل اعتبار على توحيد العبادة.

وبنحو دلالة هذه الآية: قول الله تعالى في خواتيم سورة الحشر: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤].

وقد أعملَ رسلُ الله عليهم السلام هذا البرهان في الاحتجاج على أقوامهم المشركين في العبادة؛ ومنه: قول إبراهيم عليه السلام لأبيه فيما حكى الله عنه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢].

وقــولــه: ﴿قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سبأ: ٢٧].

﴿قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾: أي: في العبادة أين هم وماذا خلقوا، استنكارٌ لوجود شركاء للّٰه ونفي لأحقية آلهة المشركين للعبادة، وهذا المستدَلُّ له.

﴿كَلَّا﴾؛ أي: كذبوا ليس الأمر كما وصفوا؛ فليس للّٰه نظير ولا عديل ولا شريك، بل هو المعبود الحق الذي لا شريك له، وقد بيّن اللّٰه في كتابه بطلان تلك المعبودات من دونه من وجوه كثيرة؛ منها: نفي الحجة والسلطان عنها، وأنها مجرد أسماء من تلقاء المشركين، ومنه قوله تعالى في اللات والعزى ومناة: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣]، وقول الكريم يوسف -عليه الصلاة والسلام-: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ﴾ [يوسف: ٤٠].

﴿بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾: ذو العزة التي قهر بها كلَّ شيء، الحكيم في شرعه وقدره، وفي أقواله وأفعاله، هذا توحيد الأسماء والصفات، وهو المستدَل به، وهو تفرده تعالى بهذين الاسمين الكريمين: العزيز والحكيم، وتفرده بما يتضمنانه من اختصاصه تعالى بكمال العزة وكمال الحكمة.

* * *

٥- بابٌ التوحيد فرض على جميع الثقلين

هذا الباب معقودٌ لبيان حكم التوحيد على الأعيان من الإنس والجان، وأنه فرض، ويقرّرُ ذلك وجوهٌ كثيرة؛ منها ما دلّت عليه نصوص الباب، وهي:

١) أنه الحكمة من خلقهم.

٢) أنه مقصود بعثة الرسل -عليهم الصلاة والسلام- إليهم، وبه بُعث خاتمهم وإمامهم ﷺ.

٣) أنه مقصود تنزيل القرآن.

٤) أن اللَّه به وصى وأمر.

٥) أنه حق اللَّه.

وقول اللَّه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

في هذه الآية: بيان الحكمة من خلق الجن والإنس، وأنها عبادة اللَّه، وحيثما وردت العبادة في القرآن؛ فالمراد بها التوحيد كما تقدم، وقوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾: اللام لام الحكمة؛ قال بعض السلف: أي: إلا ليوحدون. وهذا صريح في المقصود، وقال بعضهم: أي: إلا لآمرهم أن يعبدوني وأدعوهم إلى عبادتي، وقال آخرون: إلا لآمرهم وأنهاهم.

وأعظم ما أمر اللَّه به: التوحيد، وأغلظ ما نهى اللَّه عنه: الشرك؛ ففعل اللَّهُ الأولَ وهو خلقُهم؛ ليفعلوا هم الثاني وهو عبادتُه وتوحيدُه؛ فكان منهم من هدى اللَّه، ومنهم من حقت عليه الضلالة.

خلقهم لعبادته وهو الغني عنهم؛ وهم إليه مفتقرون، ولذلك قال اللَّه

عقب هذه الآية: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٧-٥٨].

ووجه الدلالة من الآية على فرضية التوحيد: أن ما خُلقوا لأجله؛ فهم مأمورون به، والأمر للوجوب.

وفي هذه الآية: أن الخالق هو الذي يستحق العبادة دون غيره ممن لا يخلق.

وفيها: إثبات الحكمة في أفعال الله تعالى.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

في هذه الآية: بيان الحكمة من بعثة الرسل عليهم السلام، وأنها: عبادة الله - وهي توحيده- واجتناب الطاغوت، **وفي هذا**: الجمعُ بين النفي والإثبات، وأن حقيقة العبادة لا تحصل إلا بالكفر بالطاغوت.

والأمر بالاجتناب يقتضي مع الترك: المباعدة؛ فهو أبلغ.

ووجه الدلالة من الآية على فرضية التوحيد: أن رسل الله -عليهم الصلاة والسلام- إنما بُعثوا ليُطاعوا؛ قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]، فإذا كان المقصود من بعثتهم هو دعوة الناس إلى التوحيد؛ فحقُ التوحيد أن يكون واجبًا على جميع الأمم.

وفي قوله: ﴿فِى كُلِّ أُمَّةٍ﴾: أن دعوة التوحيد بلغت جميع الأمم.

وفي معنى هذه الآية: قوله سبحانه: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقوله: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ

أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢١]، وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وفي هذه الآيات: أن دين الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- واحدٌ هو الاستسلام للَّه بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله، وإن اختلفت شرائعهم، وهو الإسلام بالمعنى العام، أما الإسلام بالمعنى الخاص فهو ما بعث اللَّه به نبيَّه محمدًا ﷺ وأنزله عليه من الكتاب والسنة؛ فلا يكون إنسانٌ أدرك بعثته أو ما بعدها إلى يوم القيامة مسلمًا ناجيًا في الآخرة حتى يُسلِمَ للَّه بالتوحيد ويؤمنَ بأصول الإيمان الستة ويقرَّ بأن محمدًا رسولُ اللَّه الخاتمُ الواجبُ الطاعة إلى قيام الساعة، ويتعبدَ للَّه وفق الشريعة الموحاة منه تعالى إليه ﷺ دون ما سواها من شرائع الرسل قبله، ولو سلمت من التحريف، وليست بسالمة؛ قال اللَّه تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال في شأن القرآن: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**فُضِّلتُ عَلَى الأَنبِيَاءِ بِسِتٍّ: أُعطِيتُ جَوَامِعَ الكَلِمِ، وَنُصِرتُ بِالرُّعبِ، وَأُحِلَّت لِيَ الغَنَائِمُ، وَجُعِلَت لِيَ الأَرضُ طَهُورًا وَمَسجِدًا، وَأُرسِلتُ إِلَى الخَلقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ**». أخرجه مسلم (٥٢٣) (٥)، وعنه رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**وَالَّذِي نَفسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسمَعُ بِي أَحَدٌ مِن هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ، وَلَا نَصرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَم يُؤمِن بِالَّذِي أُرسِلتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِن أَصحَابِ النَّارِ**». أخرجه مسلم (١٥٣) (٢٤٠).

وفي هذه الآيات أيضًا: أن وظيفة رسل اللَّه -عليهم الصلاة والسلام- هي الدعوة إلى التوحيد؛ بها بُعثوا، وفيها قضوا ثمرة أعمارهم؛

لا يزحزحهم عن هذا السبيل ما عليه أقوامهم من فساد أخلاقي واجتماعي واقتصادي وسياسي.

وقوله: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾ [هود: ١- ٢].

في هاتين الآيتين: بيان الحكمة من إنزال اللَّه للقرآن، وأنها: ألا يُعبدَ إلا اللَّهُ.

وقوله: ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾: أي: أُتقنت آياته نظمًا ومعنى؛ فلا باطل فيها ولا تناقض ولا خلل، ثم مُيِّزت بعضها من بعض بالبيان عما فيها من حلال وحرام، وأمر ونهي، وثواب وعقاب.

ووجه الدلالة منها على فرضية التوحيد: إذا كان التوحيد هو المقصود من إنزال القرآن الذي أُمرنا بالاهتداء به وتحكيمه والاستمساك به؛ كان التوحيد واجبًا علينا.

وقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣].

أي: وصّى وأمر؛ فالقضاء هنا هو الشرعي لا القدري الكوني الوارد في نحو قوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ [فصلت: ١٢]، وتضمنت هذه الآية: معنى كلمة التوحيد لا إله إلا اللَّه وركنيها؛ فقوله: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ﴾: هو معنى لا إله، وهو النفي، وقوله: ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾: هو معنى إلا اللَّه، وهو الإثبات.

ووجه الدلالة من الآية على فرضية التوحيد: أن مما وصّى اللَّه به خلقه: التوحيد؛ فهم مأمورون به، والأمر للوجوب، وأصرح من هذه الآية في الوصية بالتوحيد واجتناب الشرك: قول اللَّه: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ

نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

وفي الآية: أن العبادة حق اللَّه وحده، ولهذا؛ فإن اللَّه تعالى إذا ذكر في كتابه ما له وما لنبيه ﷺ؛ أفرد نفسه -جل وعلا- بالعبادة؛ قال سبحانه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ [النور: ٥٢]، وقال: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩]؛ فجعل تعالى الطاعة والإيتاء له ولرسوله ﷺ، وجعل الخشية والتقوى والرغبة والحسب له وحده.

وقوله: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [النساء: ٣٦].

هذه آية الحقوق العشرة، وقد بدأها اللَّه بالأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك، فالتوحيد أعظم الحقوق وآكدها، وفيها: الجمع بين النفي والإثبات، وفيها: أن التوحيد لا يتم إلا بمجانبة الشرك.

وقوله: ﴿وَلَا تُشۡرِكُواْ﴾: فعل مضارع دخل عليه النهي؛ فأفاد عموم المصدر؛ أي: لا إشراكَ به أيَّ إشراك، وقوله: ﴿شَيۡـٔٗا﴾ نكرة في سياق النهي؛ فتعم؛ أي: لا تشركوا به أيَّ مشرَك؛ فتضمنت الآيةُ النهيَ عن الشرك بجميع المعبودات في جميع العبادات، وحرمةَ الشرك قليلِه وكثيرِه كبيرِه وصغيرِه.

ووجه الدلالة من الآية على فرضية التوحيد: الأمر بالتوحيد والنهي عن ضده، والأمر للوجوب، والبداءة به في سياق ذكر الحقوق؛ فهو أعظم الحقوق؛ والحق في اللغة: الواجب.

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قالَ: كُنتُ رِدفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ عُفَيرٌ؛ فَقَالَ: «يَا مُعَاذُ هَل تَدرِي حَقَّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَمَا حَقُّ العِبَادِ عَلَى

اللَّهِ؟»، قُلتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى العِبَادِ أَن يَعبُدُوهُ وَلَا يُشرِكُوا بِهِ شَيئًا، وَحَقَّ العِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَن لَا يُعَذِّبَ مَن لَا يُشرِكُ بِهِ شَيئًا»، فَقُلتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ؟، قَالَ: «لَا تُبَشِّرهُم فَيَتَّكِلُوا». أخرجه البخاري (٢٨٥٦)، ومسلم (٣٠) (٤٩).

في هذا الحديث: أن حق اللَّه على عباده هو التوحيد، والحقوق تعظم بعظمة متعلَقها، ولا أعظم ولا أجلّ ولا أكبر ولا أعلى من اللَّه -تبارك وتعالى-.

وفيه: أن اللَّه أحقَ على نفسه -تفضلًا منه وتكرمًا- أن لا يعذِّب من لا يشرك به شيئًا لا أنهم استحقوه على جهة المقابلة والمعاوضة، قال في «الكافية الشافية» (٣٣١٥-٣٣١٧):

ما للعباد عليه حقٌّ واجبٌ ... هو أوجبَ الأجرَ العظيمَ الشانِ
كلا ولا عمل لديه ضائعٌ ... إن كان بالإخلاصِ والإحسانِ
إن عُذِّبوا فبعدلهِ أو نُعِّموا ... فبفضلهِ سبحان ذي السلطانِ

ووجه الدلالة من الحديث على فرضية التوحيد: أن حق اللَّه على عباده هو التوحيد، والحق في اللغة هو الواجب.

وفيه: تفسير التوحيد؛ وأنه عبادة اللَّه وحده وترك الشرك.

وفيه: فضل التوحيد، وكرامةُ مَن تمسّك به.

وهذا الحديث وأشباهه من نصوص فضل التوحيد يوجبُ لمن فقه حقيقة التوحيد امتثالَ الواجب واجتناب المحرم، ولا يحمله على الاتكال والغرور.

وعن عمرو بن عَبَسَةَ السُّلميّ ﷺ قال: كُنتُ وأنا فِي الجَاهِلِيَّةِ أَظُنُّ أنَّ النَّاسَ عَلَى ضَلالَةٍ، وأَنَّهُم ليسُوا عَلَى شيءٍ وهُم يَعبُدُون الأوثان، فَسَمِعتُ بِرَجُلٍ بمَكَّةَ يُخبِرُ أخبَارًا، فَقَعَدتُ عَلَى رَاحِلَتِي، فقَدِمتُ عَلَيهِ، فإذا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُستَخفِيًا جُرَءاءُ عَلَيهِ قومُهُ، فتَلَطَّفتُ حَتَّى دَخلتُ عَلَيهِ بِمَكَّةَ، فقُلتُ لَهُ: مَا أنتَ؟ قَالَ: «أنَا نَبِيٌّ»، فَقُلتُ: ومَا نَبِيٌّ؟ قَالَ: «أرسَلَنِي اللَّهُ»، فقُلتُ: وبِأيِّ شَيءٍ أرسَلَكَ، قَالَ: «أرسَلَنِي بِصِلَةِ الأرحَامِ، وَكَسرِ الأوثَانِ، وأَن يُوَحَّدَ اللَّهُ لَا يُشرَكُ بِهِ شَيءٌ». أخرجه مسلم (٨٣٢).

في هذا الحديث: بيان المقصود من بعثة خاتم النبيين وإمامهم رسولِ اللَّه ﷺ الذي أمرنا ربُّنا بطاعته واتباعه والاستجابة له والإيمان به وتحكيمه، وذلك في قوله: «**أَرسَلَنِي بِصِلَةِ الأَرحَامِ، وَكَسرِ الأَوثَانِ، وَأَن يُوَحَّدَ اللَّهُ لَا يُشرَكُ بِهِ شَيءٌ**».

وفيه: شدة ما لاقى رسول اللَّه -صلوات ربي وسلامه عليه- في سبيل الدعوة إلى التوحيد.

وفيه: اسم «التوحيد» اسم شرعي ثابت في السنة في مواضع كثيرة؛ منها هذا الحديث، واستعمله الصحابة والتابعون.

ووجه الدلالة من الحديث على فرضية التوحيد: إذا كان المقصود من بعثته ﷺ هو دعوة الناس إلى التوحيد؛ فحق التوحيد أن يكون واجبًا على أمته والخلقِ إلى قيام الساعة.

وإنّ الواجب علينا نحو التوحيد لعظيمٌ، وأصول ذلك ستة: تعلُّمُه، ومحبته ومحبةُ أهله، والعملُ به وتحقيقُه، والثباتُ عليه، والحذرُ من نواقضِه ومنقصاتِه، ونشرهُ والدعوةُ إليه.

٦- بابُ فضل التوحيد

للتوحيد فضائلُ وبركاتٌ وثمراتٌ لا منتهى لأفرادها، ولفضائله أصولٌ ترجع إليها، منها: ما جاء في نصوص هذا الباب، وهي:

١) الأمن والاهتداء في الدنيا والآخرة.

٢) الاستخلاف والتمكين في الأرض.

٣) دخول الجنة.

٤) تحريم أهله على النار.

٥) الفلاح في الدنيا والآخرة.

٦) مغفرة الذنوب.

٧) أنه أفضل شعب الإيمان، وأعظم الحسنات.

٨) عصمة دماء أهله وأموالهم.

وقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

في هذه الآية: بيان فضيلتين عظيمتين من فضائل التوحيد؛ وهي: الأمن والاهتداء في الدنيا والآخرة.

والأمن التام يتضمن: أمن الدين، وأمن النفس وطمأنينتها، وأمن الرزق، وأمن العِرض، والأمن من المعيشة الضنك، وأمن البلاد، وأمن العباد في أنفسهم وفي معاشهم، والأمن من التنازع والفشل وذهاب الريح وتسلط الأعداء، والأمن من الفزع الأكبر ومن عذاب القبر وعذاب يوم القيامة؛ فهو الحياة الطيبة في الدنيا والبرزخ والآخرة، والاهتداء التام:

يتضمن الهداية التفصيلية في الصراط المستقيم، وتسديد اللَّه في النيّات والإرادات والحركات والسَّكنات، والحفظ من كل ما يُسخط اللَّهَ من البدع والمعاصي، ومن فتنة الشبهات والشهوات، والهداية في الآخرة إلى الجنات، كتب اللَّه لنا منها أوفر الحظ والنصيب.

وقد قال اللَّه في بيان حرمان المشركين من الأمن: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٥١].

وأصل الظلم: وضع الشيء في غير موضعه، وهو ثلاثة أجناس: الشرك، وظلمُ العبادِ في نفسٍ أو مال أو عرض، وظلمُ العبدِ نفسَه بما دون الشرك.

ولما نزلت هذه الآية؛ شقّت على الصحابة ﵃؛ فعَن عَبدِ اللَّهِ بن مسعودٍ ﵁ قَالَ: لَمَّا نَزَلَت ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَالُوا: أَيُّنَا لَا يَظلِمُ نَفسَهُ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَيسَ هُوَ كَمَا تَظُنُّونَ إِنَّمَا هُوَ كَمَا قَالَ لُقمَانُ لِابنِهِ**: ﴿يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾». أخرجه البخاري (**٣٤٢٩**)، ومسلم (**١٢٤**) (**١٩٧**)، واللفظ له.

فلما توهّم الصحابة -رضوان اللَّه عليهم- انتفاء أصل الأمن والاهتداء عن الظالم لنفسه بالمعاصي؛ بيّنَ لهم ﷺ أن ذلك إنما هو في حق المشرك.

أما الموحد فنصيبه من الأمن والاهتداء بحسب نصيبه من التوحيد وحقوقه، ويفوته منهما بحسب ما نقص من إيمانه بظلمه لنفسه أو لغيره:

فمَن حقق التوحيد وسلِم من أجناس الظلم الثلاثة؛ كان له الأمن التام والاهتداء التام في الدنيا والبرزخ والآخرة.

ومن ظلم نفسه أو غيره وهو من أهل التوحيد؛ كان معرَّضًا للخوف في الدنيا والبرزخ والآخرة ويفوته من الأمن والاهتداء إذا شاء اللَّه بحسب ظلمه ثم يصير إلى الجنة.

ومن تلّبس بالظلم الأكبر وهو الشرك باللَّه حُرم أصلَ الأمن وأصلَ الاهتداء في الدنيا والبرزخ والآخرة؛ فهي أحوال ثلاثة.

وقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

في هذه الآية: بيان ثلاث فضائل من فضائل التوحيد تقدم أولها، وهي: الأمن، **وثانيها**: الاستخلاف في الأرض بأن يورثهم اللَّه أرض المشركين ويجعلهم خلفاء فيها، **وثالثها**: أن يجعل دينهم الإسلامَ الذي ارتضاه لهم عزيزًا مكينًا يقيمون شرائعه الظاهرة والباطنة في أنفسهم وفي غيرهم أعزاء ظاهرين، وأعداؤهم في ذِلة وصَغار.

ولقد تحقق هذا الموعود الكريم من رب العالمين لسلف هذه الأمة لمّا حققوا شرطه من الإيمان والعمل الصالح وتحقيق التوحيد؛ فمكّنهم اللَّه في الأرض التمكين التام، وأمّنهم الأمن التام، وفتح لهم البلاد وقلوب العباد في مشارق الأرض ومغاربها.

وهو وعدٌ قائمٌ؛ متى ما قام المسلمون بشرطه؛ أكرمهم اللَّه؛ ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾ [الروم: ٦].

وسيرة رسول اللَّه ﷺ وسيرة أصحابه شاهدة بنصرة اللَّه لهم وظفَرهم

بعدوهم وردّ كيده عنهم ببركة توحيدهم وكمال توكلهم عليه وتسليمهم لأمره وتصديقهم بوعده، وحسبنا من الشواهد: واقعتان قصهما اللَّه في كتابه:

أولاهما: ما كان من شأنهم في غزوة حمراء الأسد؛ فبعد الذي أصابهم في غزوة أُحد من القَرح والجِراح؛ بلَغهم أن المشركين قد جمعوا للكرة عليهم واستئصالِ شأفتهم وخوّفهم أولياء الشيطان؛ فما اكترثوا وتوكلوا على اللَّه وخرجوا لقتالهم، قال سبحانه: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٤]، عَن ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: حَسبُنَا اللَّهُ وَنِعمَ الوَكِيلُ، قَالَهَا إِبرَاهِيمُ عليه السلام حِينَ أُلقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾. رواه البخاري (٤٥٦٣).

والأخرى: ما كان من شأنهم في غزوة الأحزاب حين تحزّب المشركون على رسول اللَّه ﷺ وأصحابه، وحاصروا المدينة قريبًا من شهر، ونقضت بنو قريظة العهدَ مع رسول اللَّه ﷺ وبلغ الحال من المؤمنين ما قال اللَّه: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠-١١]؛ فلما صدّقوا بوعد اللَّه وتوكلوا عليه وفوّضوا إليه ثقة به تعالى، وقالوا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]؛ أرسل اللَّه على المشركين ريحًا شديدة الهبوب قوية وجنودًا من الملائكة؛ وألقى في قلوبهم الرعب حتى ارتحلوا خائبين خاسرين، وما ظفروا بعدها ألبتة ولا كانوا هم البادئين حتى فتح اللَّه على رسوله ﷺ مكة وأمكنه منهم.

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن النَّبِيِّ ﷺ قالَ: «مَن شَهِدَ أن لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلقَاهَا إِلَى مَريَمَ وَرُوحٌ مِنهُ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ؛ أَدخَلَهُ اللَّهُ الجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ». أخرجه البخاري (٣٤٣٥)، ومسلم (٢٨) (٤٦)، واللفظ للبخاري، ولهما زيادة: «مِن أَبوَابِ الجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ أَيَّهَا شَاءَ».

في هذا الحديث: بيان فضيلة من فضائل التوحيد؛ وهي: دخول الجنة إما الدخول الكامل (الدخول المطلق) الذي لا يسبقه عذاب، أو الدخول الناقص (مطلق الدخول) بعد عذاب مقدَّر في النار؛ فالجنة مآل جميع الموحدين بفضل اللَّه ورحمته، وآحاد الموحدين ثلاثة أقسام:

الأول: من رجحت حسناتهم على سيئاتهم؛ فيدخلون الجنة دون سابقة عذاب، ولا تمسهم النار أبدًا.

الثاني: من تساوت حسناتهم وسيئاتهم؛ فهؤلاء هم أهل الأعراف؛ يقفون بين الجنة والنار ما شاء اللَّه أن يقفوا ثم يؤذن لهم في دخول الجنة، ولا تمسهم النار.

الثالث: من رجحت سيئاتهم على حسناتهم؛ فمنهم: من يدخل النار ويُعذَّب فيها بقدر ذنوبه ثم يخرج منها إلى الجنة، ومنهم: من يدخل النار ويُعذَّب فيها ثم يخرج منها إلى الجنة بالشفاعة قبل أن يستكمل ما يستحقه من العذاب، ومنهم: من يغفر اللَّه له ابتداء؛ فلا تمسه النار.

وقوله: «**عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ**»: أي: أن اللَّه يُدخله الجنة ولو كان له سيئات؛ إما ابتداء أو انتهاء.

وهذا الفضل العظيم وهو دخول الجنة يُكرِمُ اللَّهُ به من شهد بخمسة أصول:

الأصل الأول: الشهادة للَّه بالوحدانية، وأكّد ركنيها بقوله: «**وحده**»؛ وهو تأكيد للإثبات، وبقوله: «**لا شريك له**»؛ وهو تأكيد للنفي، وقوله: «**شريك**»: نكرة في سياق النفي فتعم؛ فلا شريك له أي شريك.

الأصل الثاني: الشهادة لنبيه محمد ﷺ بالعبودية والرسالة، والجمع بين هاتين الصفتين في حقه ﷺ تحقيق للوسطية في ذاته، وردٌ على أهل الغلو وأهل الجفاء؛ فإن العبد لا يُعبَد والرسول يُطاع ولا يُكذَّب، وقد حقّق اللَّه لنبيه نعت العبودية الخاصة المضافة إليه في أرفع مقاماته ﷺ؛ فقال في مقام تنزيل الكتاب: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾ [الكهف: ١]، وقال في مقام الإسراء: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١]، وقال في مقام الإيحاء: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠]، وقال في مقام الحفظ والكفاية: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ﴾ [الزمر: ٣٦].

الأصل الثالث: الشهادة لنبيه عيسى عليه السلام بأنه عبداللَّه ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه بأن يتبرأ من مقالة اليهود الجفاة ومقالة النصارى الغلاة، وقوله: «**كلمته**»: أي: كان بكلمته «كن» أرسل اللَّه بها جبريل عليه السلام إلى مريم؛ فنفخ فيها بإذن اللَّه، «**وروح منه**»؛ أي: روح من الأرواح التي خلقها؛ من باب إضافة المخلوق إلى خالقه؛ فالمعنى: كائن منه، و«**من**» لابتداء الغاية كقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ﴾ [الجاثية: ١٣]؛ فهو تعالى مكوّن ذلك وموجدُه بقدرته وحكمته.

الأصل الرابع والخامس: الشهادة بأن الجنة حق والنار حق أعدّهما اللَّه لأهلهما؛ فجمع هذا الحديث أصولَ العقيدة وما ينفي عقائدَ ملل الكفر على تباينها.

والشهادة: نطق وإخبار عن علم واعتقاد؛ فهي تقتضي العلم بالمشهود به، وتقتضي الصدق، وتقتضي العمل بذلك؛ فبالعلم ينجو من سبيل النصارى، وبالعمل ينجو من سبيل اليهود، وبالصدق ينجو من سبيل المنافقين.

وعنه ﵁ قال: سَمِعتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَن شَهِدَ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيهِ النَّارَ» أخرجه مسلم (٢٩).

في هذا الحديث: بيان فضيلة من فضائل التوحيد، وهي تحريم الموحد على النار.

وأهل التوحيد في تحريمهم على النار على إحدى حالتين، هما: تحريم دخولها؛ وهو التحريم المطلق، وتحريم الخلود فيها؛ وهو مطلق التحريم.

فالوعد المطلق الذي هو دخول الجنة مع أول داخليها وتحريم دخول النار إنما هو لمن أتى بأصل التوحيد وبكماله الواجب، وأدّى حق لا إله إلا اللَّه علمًا وعملًا، واجتنب الكبائر؛ فعن أبي أيوبَ الأَنصَارِيِّ ﵁ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**مَن جَاءَ يَعبُدُ اللَّهَ، وَلَا يُشرِكُ بِهِ شَيئًا، وَيُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَيُؤتِي الزَّكَاةَ، وَيَجتَنِبُ الكَبَائِرَ؛ كَانَ لَهُ الجَنَّةُ**»؛ فَسَأَلُوهُ عَنِ الكَبَائِرِ، فَقَالَ: «**الإِشرَاكُ بِاللَّهِ، وَقَتلُ النَّفسِ المُسلِمَةِ، وَالفِرَارُ يَومَ الزَّحفِ**» أخرجه النسائي (٤٠٠٩)، وأحمد (٢٣٥٠٢، ٢٣٥٠٦)، وصححه الألباني.

ومطلق الوعد الذي هو المصير إلى الجنة وتحريم الخلود في النار في حق من أتى بأصل التوحيد وانتقص من كماله الواجب بإصراره على المعاصي.

فالنار إنما يدخلها بعضُ أهل التوحيد -كما تواترت بذلك الأحاديث- مع قولهم لـ: «لا إله إلا اللَّه» إما: لأنهم لم يقولوها باليقين التامّ الذي

يحملهم على اجتناب السيئات، أو قالوها به ثم اكتسبوا سيئات أضعفت صدقَهم ويقينهم بها؛ فرجحت بذلك سيئاتُهم على حسناتهم؛ قال في «جامع العلوم والحكم» (١/ ٣٦٦): إذا تحقَّق القلبُ بالتَّوحيد التَّامِّ؛ لم يبق فيه محبةٌ لغير ما يُحبُّه اللَّه، ولا كراهة لغير ما يكرهه اللَّه، ومن كان كذلك؛ لم تنبعث جوارحُهُ إلاّ بطاعة اللَّه، وإنَّما تنشأ الذُّنوب من محبَّة ما يكرهه اللَّه، أو كراهة ما يُحبه اللَّه، وذلك ينشأ من تقديم هوى النَّفس على محبَّة اللَّه وخشيته، وذلك يقدحُ في كمال التَّوحيد الواجبِ؛ فيقعُ العبدُ بسببِ ذلك في التَّفريط في بعض الواجبات، أو ارتكابِ بعضِ المحظوراتِ؛ فأمَّا من تحقَّق قلبُه بتوحيدِ اللَّه؛ فلا يبقى له همٌّ إلا في اللَّه وفيما يُرضيه به. انتهى.

وعن طارق بن عبداللَّه المحاربي رضي الله عنه قال: رَأيتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي سُوقِ ذِي المَجَازِ وَعَلَيهِ حُلَّةٌ حَمرَاءُ وَهُوَ يَقُولُ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تُفلِحُوا»، وَرَجُلٌ يَتبَعُهُ يَرمِيهِ بِالحِجَارَةِ، وَقَد أَدمَى عُرقُوبَيهِ وَكَعبَيهِ، وَهُوَ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لَا تُطِيعُوهُ، فَإِنَّهُ كَذَّابٌ، فَقُلتُ: مَن هَذَا؟ قِيلَ: هَذَا غُلَامُ بَنِي عَبدِ المُطَّلِبِ، قُلتُ: فَمَن هَذَا الَّذِي يَتبَعُهُ يَرمِيهِ بِالحِجَارَةِ؟ قَالَ: هَذَا عَبدُ العُزَّى أَبُو لَهَبٍ. أخرجه ابن خزيمة (١٥٩) وابن حبان (٦٥٦٢- الإحسان)، وصححه الألباني.

في هذا الحديث: بيان فضيلة من فضائل التوحيد، وهي: الفلاح، والفلاح أجمع كلمة قالتها العرب في حيازة خيري الدنيا والآخرة.

والقول المراد هنا هو القولُ التام المستوفي لشروط لا إله إلا اللَّه، قولُ القلب واللسان والجوارح.

وفي الحديث: شدة ما لاقى ﷺ في سبيل الدعوة إلى التوحيد من

الأقربين والأبعدين؛ فصبر أعظمَ الصبر وجاهدَ في اللّه حقَّ الجهاد حتى دخل الناسُ في دين اللّه وتوحيده أفواجًا إلى أن وصلنا هذا الخير -بفضل من اللّه ومنّة- آمنين مطمئنين دون أيِّ بذلٍ منّا أو عناء؛ فجزاه اللّه عنا خير ما جزى نبيًّا عن أمته، والحمدللّه أولًا وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا لا نحصي ثناء عليه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «الإِيمَانُ بِضعٌ وَسَبعُونَ أَو بِضعٌ وَسِتُّونَ شُعبَةً، فأفضلُها: قَولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللّهُ، وَأَدنَاهَا: إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالحَيَاءُ شُعبَةٌ مِنَ الإيمان». أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥) (٥٨)، واللفظ له.

في هذا الحديث: بيان فضيلة من فضائل التوحيد، وهي: أنه أفضل شعب الإيمان، وإذا كان كذلك؛ فهو أعظم الحسنات، وفي لفظ عند الإمام أحمد (٨٩٢٦): «**أرفعها وأعلاها: قول: لا إله إلا اللّه**»، والقول المراد هنا هو القول التام المستوفي لشروط لا إله إلا اللّه، قولُ القلبِ واللسانِ والجوارحِ، والبضع من الثلاث إلى التسع.

ومن تلك البابة: حديث البطاقة المشهور حديث عبد اللّه بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**إن اللّهَ سيُخلِّصُ رجلًا من أُمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة؛ فيَنشر عليه تسعةً وتسعين سجلًا؛ كلُّ سجل مثلُ مدِّ البصر، ثم يقول: أَتنكرُ من هذا شيئًا؟ أظلمكَ كتبتي الحافظون؟؛ فيقول: لا يا رب؛ فيقول: أَفلكَ عذرٌ؟؛ فيقول: لا يارب؛ فيقول: بلى إنّ لك عندنا حسنة؛ فإنه لا ظلم عليك اليوم؛ فتخرجُ بطاقةٌ فيها: أشهد أن لا إله إلا اللّه، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله؛ فيقول: احضُر وزنَك؛ فيقول: يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات فقال: إنك لا تُظلَم؛ قال: فتُوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة؛ فطاشت السجلاتُ، وثقُلت البطاقةُ؛ فلا يَثقُل مع**

اسم اللَّه شيءٌ». أخرجه الترمذي (٢٦٣٩)، واللفظ له، وابن ماجه (٤٣٠٠)، وأحمد (٦٩٩٤)، وصححه الألباني.

وعن أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: مَن جَاءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ عَشرُ أَمثَالِهَا وَأَزِيدُ، وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَجَزَاؤُهُ سَيِّئَةٌ مِثلُهَا أَو أَغفِرُ، وَمَن تَقَرَّبَ مِنِّي شِبرًا؛ تَقَرَّبتُ مِنهُ ذِرَاعًا، وَمَن تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا؛ تَقَرَّبتُ مِنهُ بَاعًا، وَمَن أَتَانِي يَمشِي؛ أَتَيتُهُ هَروَلَةً، وَمَن لَقِيَنِي بِقُرَابِ الأَرضِ خَطِيئَةً لَا يُشرِكُ بِي شَيئًا لَقِيتُهُ بِمِثلِهَا مَغفِرَةً». أخرجه مسلم (٢٦٨٧).

في هذا الحديث: بيان فضيلة من فضائل التوحيد، وهي مغفرة الخطايا، والمغفرة: ستر الذنب والتجاوز عنه، وفيه: عدة شواهد على عظيم كرم اللَّه ورحمته.

وإنما ينال هذه الفضائلَ: من قال لا إله إلا اللَّه بشروطها السبعة المتقدمة، واجتنب نواقضها وما يخلّ بها لا كلُّ من يقولها.

وقوله: «**قُراب الأرض**»؛ أي: ملؤها، وقوله: «**لَا يُشرِكُ بِي شَيئًا**»: شرط ثقيل لتكفير السيئات يتضمن السلامة من الشرك قليله وكثيره، ولا يسلم من ذلك إلا من أتى اللَّه بقلب سليم.

قال في «مدارج السالكين» (١/ ٣٢٦):

«هذا النفي العام للشرك أن لا يشرك باللَّه شيئًا ألبتة: لا يصدر من مصرٍّ على معصية أبدًا، ولا يمكن مدمنُ الكبيرة والمصرُّ على الصغيرة أن يصفو له التوحيد حتى لا يشرك باللَّه شيئًا، هذا من أعظم المحال.....، واعلم أن الإصرار على المعصية يوجب من خوف القلب من غير اللَّه ورجائه لغير اللَّه وحبه لغير اللَّه وذلّه لغير اللَّه وتوكله على غير اللَّه: ما يصير به منغمسًا في بحار

الشرك، والحاكم في هذا ما يعلمه الإنسان من نفسه إن كان له عقل؛ فإن ذل المعصية لا بد أن يقوم بالقلب فيورثه خوفًا من غير اللَّه تعالى وذلك شرك، ويورثه محبة لغير اللَّه واستعانة بغيره في الأسباب التي توصله إلى غرضه؛ فيكون عمله لا باللَّه ولا للَّه، وهذا حقيقة الشرك». انتهى.

وقوله: **«وَمَن تَقَرَّبَ مِنِّي شِبرًا؛ تَقَرَّبتُ مِنهُ ذِرَاعًا، وَمَن تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا؛ تَقَرَّبتُ مِنهُ بَاعًا، وَمَن أَتَانِي يَمشِي؛ أَتَيتُهُ هَروَلَةً»**: فيه سعة فضل اللَّه وكرمه على عباده، وأنه أسرع إليهم بالخير والكرم والجود منهم في مسارعتهم في الصالحات، والواجب في مثل هذا أن يُتلقى بالقبول والتسليم، وأن تُنزَّه هذه الصفات عن مماثلة المخلوقين؛ فليس تقرّبه تعالى من عبده مثل تقرّب المخلوق من غيره، وليس مشيه تعالى كمشي المخلوق، ولا هرولته تعالى كهرولة المخلوق؛ ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وفيه: الرد على الخوارج الذين يكفّرون مرتكب الكبيرة دون الشرك.

وعن طارق الأشجعي رضي الله عنه قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَن وَحَّدَ اللَّهَ وَكَفَرَ بِمَا يُعبَدُ مَن دُونِ اللَّهِ؛ حَرُمَ مَالُهُ، وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ». أخرجه مسلم (٢٣) (٣٨). وفي رواية: «مَن قالَ لَا إِلَهَ إِلّا اللَّهُ وَكَفَرَ بِمَا يُعبَدُ مَن دُونِ اللَّهِ...».

في هذا الحديث: بيان فضيلة من فضائل التوحيد، وهي عصمة دم الموحد وماله.

وفي قوله: **«وحسابه على اللَّه»**: وجوب الكف عمن أتى بالتوحيد والتزم شرائعه ظاهرًا، وأنه يُعامل في الدنيا بحسب الظاهر حتى يتبين منه ما يخالف ذلك.

وفي الجمع بين روايتي الحديث: تفسير لـ«قول لا إله إلا اللَّه» بـ«تحقيق التوحيد».

وفي الحديث: اشتراط الكفر بالطاغوت لعصمة الدم والمال؛ فلا بد لقائل لا إله إلا اللَّه حتى تَعصِم دمَه ومالَه وينال موعودَ اللَّه عليها يوم القيامة من أن يضمَّ إلى التلفظ بها ثلاثةَ أمور: العمل بها، والبراءة مما ينافيها واعتقاد بطلانه، واجتناب نواقضها، فالكفر بالطاغوت قولًا وعملًا = ركنٌ في لا إله إلا اللَّه، ولها شروط سبعة تقدمت، ومن أخلّ بركنها أو شرط من شروطها؛ لم تنفعه، والعياذ باللَّه.

فاشتمل هذا الحديث على الجمع بين النفي والإثبات في قوله ﷺ: «**مَن وَحَّدَ اللَّهَ**»، ثم أكد النفي بقوله: «**وَكَفَرَ بِمَا يُعبَدُ مِن دُونِ اللَّهِ**».

* * *

٧- بابُ صفة تحقيق التوحيد وفضله

تحقيق التوحيد: تكميله، وتخليصه وتصفيته مما يَنقُضه أو يُنقِصه، وهو على مرتبتين: تحقيق واجب؛ وهو تكميله بفعل الواجبات وتخليصه عن الشرك، والبدع، والكبائر، والإصرار على الصغائر، وما ينافي التوكل، وتحقيقٌ مستحب؛ هو تحقيق المقربين؛ وهو امتلاء القلب بمحبة اللَّه وكمال الإقبال عليه وشغل الجوارح بالأعمال الصالحات والمسابقة في الخيرات مع اجتناب المكروهات والمشتبهات وفضول المباحات، والاستغناء عن الخلق؛ فلا يكون في القلب شيء لغير اللَّه ولا تعلق بسواه، -نسأل اللَّه أن يجعلنا منهم-.

وهذا الباب معقودٌ لبيان صفة تحقيق التوحيد، وما جاء في تحقيقه من فضل خاص بعد بيان فضائل التوحيد العامة؛ فهذا الباب أخص في بيان الفضل من سابقه، وأهله أخص من أهل سابقه.

وقول اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠].

في هذه الآية: ثناء اللَّه على خليله ابراهيم ﷺ بأربع صفات: **الأولى**: أنه أُمّة؛ أي: إمام جامع لخصال الخير يَأتمُّ به أهلُ الهدى، **الثانية**: قانت؛ أي: مداومٌ على طاعة ربه في خشوع، **الثالثة**: حنيف؛ أي: مقبل على التوحيد قصدًا معرضٌ عن الشرك، **الرابعة**: ليس من المشركين ولا مخالطًا لهم؛ قد فارقهم بالقلب واللسان والبدن، وهذا إعلام من اللَّه تعالى لأهل الشرك به من قريش أن إبراهيم عليه السلام منهم بريء، وأنهم منه برآء.

ووجه الدلالة من الآية على مقصود الترجمة: أن فيها بيان صفة تحقيق

التوحيد ببيان أوصاف خليل الرحمن ابراهيم عليه السلام الذي أُمرنا بالتأسي به.

وعَن عَوفِ بنِ مَالِكِ الأَشجَعِيِّ رضي الله عنه قالَ: كُنَّا عِندَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، تِسعَةً أَو ثَمَانِيَةً أَو سَبعَةً، فَقَالَ: «أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ؟»، وَكُنَّا حَدِيثَ عَهدٍ بِبَيعَةٍ، فَقُلنَا: قَد بَايَعنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ؟» فَقُلنَا: قَد بَايَعنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ؟» قَالَ: فَبَسَطنَا أَيدِيَنَا وَقُلنَا: قَد بَايَعنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَعَلَامَ نُبَايِعُكَ؟ قَالَ: «عَلَى أَن تَعبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشرِكُوا بِهِ شَيئًا، وَالصَّلَوَاتِ الخَمسِ، وَتُطِيعُوا -وَأَسَرَّ كَلِمَةً خَفِيَّةً-: وَلَا تَسأَلُوا النَّاسَ شَيئًا»؛ فَلَقَد رَأَيتُ بَعضَ أُولَئِكَ النَّفَرِ يَسقُطُ سَوطُ أَحَدِهِم، فَمَا يَسأَلُ أَحَدًا يُنَاوِلُهُ إِيَّاه. أخرجه مسلم (١٠٤٣).

في هذا الحديث: أخذه ﷺ البيعةَ من أصحابه على توحيد اللَّه بأن يعبدوا اللَّه ولا يشركوا به شيئًا، وأخذه البيعةَ منهم أو من بعضهم على كمال التوحيد المستحب بألا يسألوا الناس شيئًا حتى فيما يقدر عليه الناس؛ ففيه: بيان شيء من صفة تحقيق التوحيد المستحب.

وهذه هي المرتبة المندوبة من إفراد اللَّه بالسؤال؛ فإن إفراد اللَّه بالسؤال والاستعانة على مرتبتين: إفراد واجب بهما في كل مطلوب لا يقدر عليه إلا اللَّه؛ فواته قدح في كمال التوحيد الواجب بل ذهاب لأصل التوحيد، وإفراد مندوب بهما حتى فيما يقدر عليه المخلوق، فواته نقص في كمال التوحيد المستحب لا الواجب، وأهل التوحيد متفاوتون في هذه المرتبة، وقد أوصى رسولُ اللَّه ﷺ بهاتين المرتبتين في حديث ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: كُنتُ خَلفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَومًا، فَقَالَ: **«يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احفَظِ اللَّهَ يَحفَظكَ، احفَظِ اللَّهَ تَجِدهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلتَ؛ فَاسأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا استَعَنتَ؛ فَاستَعِن بِاللَّهِ، وَاعلَم أَنَّ الأُمَّةَ لَو اجتَمَعَت عَلَى أَن يَنفَعُوكَ بِشَيءٍ؛**

لَم يَنفعُوكَ إلَّا بِشَيءٍ قَد كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَو اجتَمَعُوا عَلَى أَن يَضُرُّوكَ بِشَيءٍ؛ لَم يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيءٍ قَد كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيكَ، رُفِعَتِ الأَقلَامُ وَجَفَّت الصُّحُفُ». أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد (٢٦٦٩)، وصححه الألباني.

وفيه: بلوغ أصحاب النبي ﷺ لتلك الرتبة حتى كان منهم مَن يسقط سوطه؛ فلا يسأل أحدًا يناوله إياه، وعَن ثَوبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَولَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَن يَكفُلُ لِي أَن لَا يَسأَلَ النَّاسَ شَيئًا، وَأَتَكَفَّلُ لَهُ بِالجَنَّةِ؟**»، فَقَالَ ثَوبَانُ: أَنَا، فَكَانَ لَا يَسأَلُ أَحَدًا شَيئًا». أخرجه أبوداود (١٦٤٣)، والنسائي (٢٥٩٠)، وابن ماجه (١٨٣٧)، وصححه الألباني، وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الأَنصَارِ كَانَت بِهِ حَاجَةٌ؛ فَقَالَ لَهُ أَهلُهُ: ائتِ النَّبِيَّ ﷺ؛ فَاسأَلهُ؛ فَأَتَاهُ وَهُوَ يَخطُبُ؛ وَهُوَ يَقُولُ: «**مَن استَعَفَّ أَعَفَّهُ اللَّهُ، وَمَن استَغنَى أَغنَاهُ اللَّهُ، وَمَن سَأَلَنَا فَوَجَدنَا لَهُ أَعطَينَاهُ**» قَالَ: فَذَهَبَ وَلَم يَسأَل. أخرجه أحمد (١٠٩٨٩) بإسناد صحيح، وأصله في الصحيحين، وفي روايات أخرى: أن الأنصاري المذكور هو أبو سعيد نفسه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فلا جرم أن يكونوا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم أئمةَ محققي التوحيد في هذه الأمة، وأسوةً حسنة للموحدين إلى يوم الدين.

وعَن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَدخُلُ الجَنَّةَ مِن أُمَّتِي سَبعُونَ أَلفًا بِغَيرِ حِسَابٍ هُم الَّذِينَ لَا يَستَرقُونَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ وَعَلَى رَبِّهِم يَتَوَكَّلُونَ». أخرجه البخاري (٦٤٧٢)، ومسلم (٢٢٠)، واللفظ للبخاري، وفي لفظ: «ولا يكتوونَ».

في هذا الحديث: بيان فضل تحقيق التوحيد التحقيق المستحب وأنه دخول الجنة بغير حساب، ونفي الحساب دال على انتفاء العذاب، وذلك

لمن حقق أربع صفات: **الأولى**: مجانبة الاسترقاء؛ وهو طلب الرقية للنفس لا للغير؛ لما فيه من التفات القلب للراقي والتذلل له، **والثانية**: مجانبة الاكتواء؛ وهو إحراق الإنسان لجزء من جلده بحديدة محماة بقصد العلاج؛ لما فيه من تعذيبٍ بالنار وإيلام، **والثالثة**: مجانبة التطير؛ وهو التشاؤم بالطير ونحوه، **والرابعة**: تحقيق التوكل على اللَّه وحده؛ وهو المعنى الجامع للثلاثة السابقة.

فأما الاسترقاء والاكتواء؛ فجائزان، وتركهما أفضل وأكمل، وهو من تحقيق التوحيد المستحب، وأما قوله ﷺ: «**مَن اكتَوى أو استَرقى؛ فقد بَرِئَ مِن التوكّل**». أخرجه الترمذي (٢٠٥٥)، وابن ماجه (٣٤٨٩)، وصححه الألباني؛ فالمراد به: برئ من كمال التوكل لا من أصله.

وأما التطير؛ فهو شرك أصغر كما سيأتي تفصيله في بابه، وتركُه من تحقيق التوحيد الواجب، ومن أتى بالتحقيق المستحب؛ فقد أتى بالواجب وزيادة.

ففي هذا الحديث: بيان شيء من صفة التحقيق المستحب للتوحيد وبيان فضله؛ فهو مطابق للترجمة.

وفي الحديث: أن عدة أهل هذا الفضل العظيم من أمة نبينا محمد ﷺ سبعون ألفًا، وفي حديث أبي أمامة الباهلي قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**وَعَدَنِي رَبِّي سُبحَانَهُ أَن يُدخِلَ الجَنَّةَ مِن أُمَّتِي سَبعِينَ أَلفًا لَا حِسَابَ عَلَيهِم وَلَا عَذَابَ، مَعَ كُلِّ أَلفٍ سَبعُونَ أَلفًا، وَثَلَاثُ حَثَيَاتٍ مِن حَثَيَاتِ رَبِّي ﷻ**». أخرجه الترمذي (٢٤٣٧)، وابن ماجه (٤٢٨٦)، وأحمد (٢٢١٥٦)، وصححه الألباني، **وفي هذا**: فضيلة هذه الأمة وتشريف اللَّه لها يوم القيامة.

وهذا الحديث أعني حديث الباب وقع عند الإمام مسلم بلفظ: «**هُمُ الَّذِينَ لَا يَرقُونَ، وَلَا يَستَرقُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِم يَتَوَكَّلُونَ**» بزيادة: «لَا يَرقُونَ»، وهي زيادة شاذة مخالفة لما ثبت عنه ﷺ من رقيته لنفسه ورقيته لغيره.

قال في «حادي الأرواح» (١/ ٢٦٧-٢٦٩):

وليس عند البخاري «لا يرقون»؛ قال شيخنا: وهو الصواب، وهذه اللفظة وقعت مقحمة في الحديث، وهي غلط من بعض الرواة؛ فإن النبي جعل الوصف الذي يستحق به هؤلاء دخول الجنة بغير حساب هو تحقيق التوحيد وتجريده؛ فلا يسألون غيرَهم أن يرقيهم ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون، والطيرة نوعٌ من الشرك ويتوكلون على اللَّه وحده لا على غيره، وتركهم الاسترقاء والتطير هو من تمام التوكل على اللَّه... وأما رقية العين فهي إحسان من الراقي، قد رقى رسولَ اللَّه جبريلُ وأَذِن في الرقى، وقال: «**لا بأس بها ما لم يكن فيها شرك**»، واستأذنوه فيها فقال: «**من استطاع منكم أن ينفع أخاه فلينفعه**»، وهذا يدل على أنها نفع وإحسان، وذلك مستحب مطلوب للَّه ورسوله؛ فالراقي محسنٌ، والمسترقي سائلٌ راجٍ نفع الغير، والتوكل ينافي ذلك؛ فإن قيل: فعائشة قد رقيت رسولَ اللَّه وجبريلُ قد رقاه؛ قيل: أجل، ولكن هو لم يسترق، وهو ﷺ لم يقل: ولا يرقيهم راق، وإنما قال: لا يطلبون من أحد أن يرقيهم. انتهى.

والناس في دخول الجنة من حيث الحساب والعذاب على ثلاثة أقسام:

الأول: من يدخلها بلا حساب ولا عذاب وهم المذكورون في الحديث -جعلنا اللَّه منهم-.

والثاني: من يدخلها بعد الحساب بلا عذاب وهم من ثقلت موازينهم

وليسوا من السبعين ألفًا .

والثالث: من يصير إليها بعد الحساب وبعد العذاب ما شاء اللَّه أن يعذبوا، وهم من شاء اللَّه عذابه من عصاة الموحدين .

* * *

٨- بابٌ فضل الدعوة إلى التوحيد والبداءة به

لما ذكر المصنفُ وجوبَ التوحيد وفضلَه وتحقيقَه ؛ نبَّه بهذا الباب على فضل الدعوة إلى التوحيد ووجوبها ، ووجوب البداءة به فيها ؛ إذ إنه لا ينبغي لعبدٍ عرفَ التوحيد وفضلَه وحققَّه أن يضِنَّ به على غيره دعوةً له وموعظة بالتي هي أحسن ؛ فإن من تحقيق التوحيد السعيَ في الدعوة إليه ، وذلك من شكر نعمة المولى -جل وعلا- ، ومن الغيرة على حرماته .

والدعوة إلى التوحيد المحققة لثمارها هي الدعوة المفصِّلة للتوحيد وحقيقتِه وأنواعه وتطبيقاتِه ، وللشرك وحقيقتِه وأنواعه وصوره ووسائله ، لا الدعوة الإجمالية المقتصرة على بيان فضل التوحيد وخطر الشرك ؛ فإن عامة المتقحّمين لأبواب الشرك قد استحوذ عليهم الشيطان فأراهم الشركَ توحيدًا ، والتوحيدَ ضلالًا بعيدًا ، وإذا ذُكِرَ الشركُ في حضرة الواحد منهم لم يتخايل له إلا حالُ أبي جهل وأبي لهب ما لم يُبيَّن بيانًا شافيًا يميّزه عن التوحيد ؛ ففي تلك الساعة تُروى الغُلّة وتُشفى العِلّة ، وينكشف الداعيةُ الخوّار من الذي لا يخشى في اللَّه لومة لائم ، نسأل اللَّه من فضله .

وقول اللَّه -تعالى-: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف : ١٠٨].

في هذه الآية : بيان طريقة النبي ﷺ وطريقة أتباعه بحق ، وأنها جامعة لأربعة أصول :

الأول : الدعوة إلى اللَّه ؛ أي : إلى توحيده ، قال الإمام الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ (١٣/ ٣٧٨) : أدعو إلى اللَّه وحده لا شريك له .

ولهذا لما أمر اللَّهُ نبيه ﷺ بالتذكير في قوله : ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ

﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ قال عقبه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٥-٥٦].

الثاني: أن دعوتهم إليه يلازمها الإخلاص؛ فهي دعوة إلى اللّه وحده لا لحزبية ولا لتكثير أتباعٍ أو نيلِ ثناءٍ أو تحصيل حظ زائل.

الثالث: أن دعوتهم إليه يلازمها العلم بالشرع والبصيرة التي بها يميِّز بين الهدى والضلال وبين التوحيد والشرك وبين السنة والبدعة، وبها يميِّز بين أحوال المدعوين وما يناسب كلًّا منهم.

الرابع: أن دعوتهم إليه يلازمها: تنزيه اللّه عن الشرك، والبراءة منه ومن أهله دون ضعف أو مداهنة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [القصص: ٨٧]، وقال: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ [الرعد: ٣٦].

ووجه الدلالة من الآية على الترجمة: أن من شريف منزلة الدعوة إلى التوحيد كونَها طريقةَ رسول اللّه ﷺ وسبيله ومسلكه؛ فغاية شرف العبد وآية توفيقه أن يكون دأبُه وهِجِّيراه وأكبرُ همّه الدعوةَ إلى التوحيد على بصيرة ابتغاء وجه اللّه تعالى حتى يُعرَف بها؛ يملأ قلبَه الرحمةُ للخلق، وتحفّه الحكمة والرفق.

فوا عجبًا من دعاة يدّعون حبَّ النبي ﷺ واتّباعه؛ وهم عن الدعوة إلى أصل رسالته وأساسها لناكبون، وإن ذكروا التوحيدَ؛ فإنما يذكرونه للتزهيد فيه، ولمز دعاته وعيبهم.

وقد أبان اللّهُ لرسوله ﷺ عن منهاج دعوته أيضًا في مطلع سورة المدثر؛ فقال سبحانه: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾؛ أي: قم من مضجعك وأنذر المشركين عذابَ اللّه، ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾؛ أي: خُصّ ربّك بالتعظيم، وعظّم توحيدَه وعظّمه في قلوب الخلق، ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾؛ أي: طهّر نفسك من المعاصي وأعظمها

الشرك، ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾؛ أي: اهجر الأصنام وأعمالَ الشرك كلَّها؛ باعتزالها وأهلِها، ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾؛ أي: لا تعطِ عطاءً لتُعطى أكثر منه، وهذا يستلزم الإخلاص للَّه في الدعوة، ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾؛ أي: اصبر لوجه اللَّه على طاعته وما تلقى من الأذى في دعوتك.

فما من داع يقوم مقام رسول اللَّه ﷺ في الدعوة إلى التوحيد إلا وينالهُ من الأذى كما ناله ﷺ، ولا عون له على ذلك مثلُ الصبر، قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام: ٣٤]، وقال: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، قال أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما أغبط أحدًا لم يُصبه في هذا الأمر بلاءٌ». رواه أبو العرب التميمي في «كتاب المحن» (ص **٢٣٧**).

وقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

في هذه الآية: يأمر اللَّه نبيه محمدًا ﷺ أن يدعوَ أهلَ الكتاب من اليهود والنصارى إلى كلمة عدلٍ يستوي فيها الداعي والمدعو: أن نوحد اللَّه؛ فلا نعبد غيرَه، ونبرأ من كل معبود سواه، ولا يطيع بعضُنا بعضًا في معصية اللَّه؛ فإن أجابوا كانوا موحدين مثلَكم، وإن أعرضوا فأَشهِدوهم على الثبات على الإسلام والتوحيدِ والخضوعِ للَّه وحده.

وفيها: أن الدعوة إلى التوحيد دعوة عامة إلى جميع الخلق، وهذه الآية التي كان رسول اللَّه ﷺ يبعث بها في رسائله إلى ملوك أهل الكتاب.

وفيها: أمر اللَّه عباده الموحدين بالثبات على التوحيد وإعلانهم ذلك للكافرين ظاهرين عليه؛ لا يضرهم من خالفهم أو خذلهم، غير آبهين

بسخطهم؛ فلن يرضوا حتى يتّبع الموحدون ملّتهم، وذلك الخسران المبين.

وفيها: كمال الثقة بهذه المحجة والاعتزاز بها حالَ الدعوة إليها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٦٧].

ووجه الدلالة من الآية على الترجمة: أمرُ اللَّه لنبيه ﷺ بدعوة أهل الكتاب إلى التوحيد.

وعن سَهل بن سَعدٍ رضي الله عنه أنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ يَومَ خَيبَرَ: «لَأُعطِيَنَّ هَذِهِ الرَّايَةَ رَجُلًا يَفتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيهِ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ». قَالَ: فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيلَتَهُم أَيُّهُم يُعطَاهَا فَلَمَّا أَصبَحَ النَّاسُ غَدَوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كُلُّهُم يَرجُونَ أَن يُعطَاهَا فَقَالَ: «أَينَ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ»؛ فَقَالُوا: هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَشتَكِي عَينَيهِ، قَالَ: فَأَرسَلُوا إِلَيهِ فَأُتِيَ بِهِ فَبَصَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي عَينَيهِ وَدَعَا لَهُ فَبَرَأَ حَتَّى كَأَن لَم يَكُن بِهِ وَجَعٌ فَأَعطَاهُ الرَّايَةَ؛ فَقَالَ عَلِي رضي الله عنه: يَا رَسُولَ اللَّهِ أُقَاتِلُهُم حَتَّى يَكُونُوا مِثلَنَا؟؛ فَقَالَ: «انفُذ عَلَى رِسلِكَ حَتَّى تَنزِلَ بِسَاحَتِهِم ثُمَّ ادعُهُم إِلَى الإِسلَامِ، وَأَخبِرهُم بِمَا يَجِبُ عَلَيهِم مِن حَقِّ اللَّهِ فِيهِ، فَوَاللَّهِ لَأَن يَهدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيرٌ لَكَ مِن أَن يَكُونَ لَكَ حُمرُ النَّعَمِ». أخرجه البخاري (٣٧٠١)، ومسلم (٢٤٠٦).

في هذا الحديث: أمر النبي ﷺ بالدعوة إلى التوحيد من وجهين: قوله: **«ثم ادعُهم إلى الإسلام»**، وأصل الإسلام هو: التوحيد، ثم قوله: **«وَأَخبِرهُم بما يَجِبُ عليهم من حقّ اللّهِ فيه»** وأعظم حق اللَّه: التوحيد؛ بل هو حق اللَّه عند الإطلاق كما تقدم في حديث معاذ في الباب الخامس.

وفي الحديث: بيان فضل الدعوة إلى التوحيد والترغيب بها، وعظيم ثواب اللَّه لدعاة التوحيد في قوله: **«فَوَاللَّهِ لأَن يَهدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا**

خَيرٌ لَكَ مِن أَن يَكُونَ لَكَ حُمرُ النَّعَمِ»، وحمر: بسكون الميم؛ أي: الإبل الحمراء وهي أنفس الأموال عند العرب إذ ذاك، وكانوا يضربون بها المثل، والمراد: خير من الدنيا وما عليها، وحلِفُ النبي ﷺ على ذلك تأكيدٌ لعظيم فضلها.

وفيه: هداية التوفيق بيد اللَّه وحده، ويهيئُ اللَّه من عباده من يجعله سببًا فيها.

وفيه: إثبات أن اللَّه يحب أولياءه محبة تليق بجلاله.

وفيه: آيتان من آيات نبوته ﷺ، وذلك ببشارته بالفتح قبل وقوعه وبُرء ألم العينين بريقه.

وفيه: بركته ﷺ بركة يتعدى أثرها، وهذا من خصائصه كما سيأتي في باب التبرك.

وفيه: منقبة عظيمة لعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفيه: وجوب الدعوة إلى الإسلام سيّما قبل قتال الكفار.

وفيه: سمو همة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم للمقامات الأخروية العلية، وفي رواية لمسلم (٢٤٠٥): قَالَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَا أَحبَبتُ الإِمَارَةَ إِلَّا يَومَئِذٍ، قَالَ: فَتَسَاوَرتُ لَهَا رَجَاءَ أَن أُدعَى لَهَا»؛ أي: تطاولت وأظهرت وجهي ليتذكرني، وقوله: «**يَدُوكُون**»؛ أي: يخوضون، وقوله: «**انفُذ على رِسلِكَ حتى تنزلَ بساحَتهم**» أي: امض برفق وتؤدة دون عجلة وطيش.

وجه الدلالة من الحديث على الترجمة: أمرُ النبي ﷺ أصحابه بالدعوة إلى التوحيد، والأمر للوجوب، وبيانُه فضلَها.

وعن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: لمَّا بعَثَ النَّبيُّ ﷺ مُعاذَ بن جَبَلٍ إلَى نَحوِ أهلِ اليَمَنِ قال لهُ: «إنَّك تَقدمُ على قومٍ مِن أهلِ الكِتابِ فليَكُن أوَّلَ مَا تدعُوهُم إلَى أن يُوَحِّدُوا اللَّهَ -تعالى-، فإذا عرفُوا ذلِكَ فأخبرهُم أنَّ اللَّهَ قد فرَضَ عليهِم خمسَ صلَواتٍ فِي يومِهِم ولَيلتِهِم، فإذَا صلَّوا فأخبِرهُم أنَّ اللَّهَ افترَضَ عليهِم زكاةً فِي أموالِهِم تُؤخَذُ مِن غنيِّهِم فترَدُّ علَى فقِيرِهِم، فإذَا أقرُّوا بذلِكَ فخُذ مِنهُم وتوَقَّ كرَائِمَ أموَالِ النَّاسِ». أخرجه البخاري (٧٣٧٢)، ومسلم (١٩) (٣١)، واللفظ للبخاري، وفي رواية: «فليكن أولَ ما تدعوهم إليه عبادةُ اللَّه عز وجل»، وفي رواية: «فَادعُهُم إلَى شَهَادَةِ أنَّ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَأنِّي رَسُولُ اللَّهِ».

في هذا الحديث: أمرُ النبي ﷺ الدعاةَ بالبداءة بالدعوة إلى التوحيد؛ فهو أول ما يجب الدعوة إليه وأولى ما اشتغل به الدعاة في كل زمان ومكان.

وفي جمع روايات الحديث: تفسير لـ: «شهادة أن لا إله إلا اللَّه» و«عبادة اللَّه» بـ: «تحقيق التوحيد».

وفيه: البدء بالأهم فالمهم.

وفيه: مشروعية إرسال الدعاة إلى التوحيد.

وفيه: حجية خبر الواحد الثقة في العقيدة، **وفيه**: التحذير من شبهات أهل الشبهات، وأهمية إعداد الدعاة المؤهلين لدعوتهم ومجادلتهم، و«**كَرائم أَموَالِ النَّاسِ**»: نفائسها.

ووجه الدلالة من الحديث على الترجمة: أمره ﷺ أصحابه بالدعوة إلى التوحيد وبالبداءة بها، والأمر للوجوب.

وعن الحَارِثِ الأَشعَرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ يَحيَى بنَ زَكَرِيَّا بِخَمسِ كَلِمَاتٍ أَن يَعمَلَ بِهَا وَيَأمُرَ بَنِي إِسرَائِيلَ أَن يَعمَلُوا بِهَا... فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِخَمسِ كَلِمَاتٍ أَن أَعمَلَ بِهِنَّ وَآمُرَكُم أَن تَعمَلُوا بِهِنَّ؛ أَوَّلُهُنَّ: أَن تَعبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشرِكُوا بِهِ شَيئًا، وَإِنَّ مَثَلَ مَن أَشرَكَ بِاللَّهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اشتَرَى عَبدًا مِن خَالِصِ مَالِهِ بِذَهَبٍ أَو وَرِقٍ؛ فَقَالَ: هَذِهِ دَارِي وَهَذَا عَمَلِي؛ فَاعمَل وَأَدِّ إِلَيَّ؛ فَكَانَ يَعمَلُ وَيُؤَدِّي إِلَى غَيرِ سَيِّدِهِ؛ فَأَيُّكُم يَرضَى أَن يَكُونَ عَبدُهُ كَذَلِكَ..». أخرجه الترمذي (٢٨٦٣)، وصححه الألباني.

في هذا الحديث: أمر اللَّهُ ليحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ بأن يعمل بالتوحيد وأن يأمر بني إسرائيل أولَ ما يأمرهم: بالعمل بالتوحيد، وظاهره أنهم المؤمنون من بني إسرائيل، **وفي هذا**: أن الدعوة إلى التوحيد والتحذير من الشرك منهاج حياة للداعية في المجتمعات الإسلامية وغير الإسلامية، وأنه يخاطَب بها الموحدون كما يخاطَب بها المشركون؛ بل إن اللَّه خاطب بها رسله -عليهم الصلاة والسلام- كما في هذا الحديث.

وفيه: العبادة حق اللَّه تعالى وحده.

وفيه: ضرب مثل بليغ لمن أشرك باللَّه وصرفَ محض حق اللَّه لغيره.

وفيه: عظيم ظلم الشرك وكفره بنعمة ربه وسوء ظنه بمولاه.

وفيه: منافاة الشرك للفطرة القويمة والعقول المستقيمة.

ووجه الدلالة من الحديث على الترجمة: الأمر بالبداءة بالتوحيد في دعوة الموحدين فكيف بمن تلبس بالشرك.

* * *

٩- بابُ الخوف من الشرك

حقيقة الخوف من الشرك: صدق الالتجاء إلى اللَّه والاعتماد عليه والتضرع إليه بالإنجاء من الشرك، والبحث والتفتيش عن الشرك وصوره ووسائله اتقاءً لها، وذلك الخوف يستلزم بذل الوُسع في تعلّم التوحيد تفصيلًا وتعلّم الشرك تفصيلًا، قال أحد السلف: كيف تتقي وأنت لا تدري ما تتقي؟.

والشرك بالمعنى العام: تسويةُ غير اللَّه باللَّه في شيء من خصائص اللَّه.

وإن شئت قلت: عدلُ غير اللَّه باللَّه في شيء من خصائص اللَّه.

قال اللَّه تعالى: ﴿قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٦-٩٨]، وقال: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

والشرك قسمان: أكبر وأصغر.

وبينهما فرق في الحكم والحد، فأما الأكبر فهو: تسوية غير اللَّه باللَّه في شيء من خصائصه تسويةً تخرج من الملة، **وحكمه**: أنه يخرج من الملة، ولا يغفر لصاحبه أبدًا إلا بالتوبة، ويُحبط جميع الأعمال، ويبيح الدم والمال، وصاحبه خالد مخلد في النار، ويوجب العداوة الخالصة له من المؤمنين.

وأما الأصغر؛ فهو: ما سُمّي شركًا في النصوص ولم يصل إلى حد الشرك الأكبر، **وحكمه**: أنه لا يخرج من الملة، وصاحبه تحت المشيئة، ولا يُحبط جميع الأعمال، وإنما يُحبط العملَ الذي خالطه الرياء أو إرادة الدنيا، ولا يبيح الدم والمال، ولا يوجب الخلود في النار، ويعادى صاحبُه

بقدر معاصيه، ويوالى بقدر إيمانه؛ فأحكامه كأحكام الكبائر؛ وإن كان أشد منها جنسًا؛ فقول القائل: لولا اللَّه وفلان؛ مرة واحدة أعظم إثمًا عند اللَّه من الزنا مرة واحدة أو السرقة مرة واحدة، نعوذ باللَّه من جميع أبواب سخطه.

والشرك الأكبر ثلاثة أنواع:

١- **شرك الربوبية**، كاعتقاد أن أحدًا غير اللَّه يخلق من العدم، أو ينفع ويضر استقلالًا، أو يصل أثره إلى المسبَّب من غير اتصال أو مباشرة.

٢- **شرك الأسماء والصفات**، كاعتقاد أن أحدًا غير اللَّه يسمع نداء البعيد الغائب.

٣- **شرك الألوهية**، كالاستغاثة بالأموات.

وكل من الشرك الأكبر والأصغر في الألوهية ينقسم إلى: شرك ظاهر وشرك خفي.

فأما الأكبر الظاهر؛ فمنه: الذبح لغير اللَّه، ومن الأكبر الخفي: شرك التوكل، وشرك المحبة.

وأما الأصغر الظاهر؛ فمنه: تعليق التمائم، ومن الأصغر الخفي: الرياء.

وهذا الباب معقود لبيان ما يوجب الخوف من الشرك، وهي وجوه ترجع إلى خمسة:

١) أن اللَّه لا يغفر لصاحبه إلا أن يتوب منه.

٢) الجنة محرّمة على المشرك ومأواه النار خالدًا مخلدًا فيها.

٣) أنه محبط لجميع الأعمال.

٤) أن خليل اللَّه ابراهيم ﷺ وهو الذي كسّر الأصنام بيده؛ خاف الشرك وعبادة الأصنام على نفسه وبنيه؛ فكيف يأمنه على نفسه أحدٌ بعده.

٥) أنه أعظم الذنوب.

وشؤم الشرك على البلاد والعباد لا يقف عند حد -طمس اللَّهُ أعلامَه-.

قال في «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٢٥):

«ومن تدبر أحوال العالَم؛ وجدَ كلَّ صلاح في الأرض؛ فسببُه توحيد اللَّه وعبادته وطاعة رسوله ﷺ، وكل شرٍّ في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدو وغير ذلك؛ فسببه مخالفة الرسول ﷺ والدعوة إلى غير اللَّه، ومَن تدبّرَ هذا حقَّ التدبر؛ وجدَ هذا الأمر كذلك في خاصة نفسه، وفي غيره عمومًا وخصوصًا».

وقول اللَّه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦].

في هذه الآية: أن اللَّه لا يغفر لعبد لقيه وهو مشرك به الشرك الأكبر؛ فهو الذنب الذي لا يُغفر إلا بالتوبة منه، وأما ما دونه من الذنوب؛ فهو داخلٌ تحت المشيئة؛ إن شاء اللَّه غفر لمن لقيه به وإن شاء عذّبه؛ فتبين أن الشرك أعظمُ الذنوب وأخطرها وأسوأها عاقبة؛ فوجب الخوف منه، وهذا وجه الدلالة من الآية على الترجمة.

وكيف لا يكون ذلك وهو سوء ظن باللَّه، وافتراء عليه -تبارك وتعالى-، قال سبحانه: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦]، وقال: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

وقوله: ﴿أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾: أن وما بعدها في تأويل مصدرٍ تقديره: إشراكًا به؛ نكرة في سياق النفي؛ فتفيد العموم، وبه استدلّ من قال بأن الشرك الأصغر كالأكبر لا يغفره اللَّهُ إلا بالتوبة، فلا بد أن يدخل في الموازنة بين الحسنات والسيئات؛ فيكون في كفة السيئات.

والأظهر أنه عمومٌ يُراد به خصوص الشرك الأكبر؛ كعموم الآيات الواردة في حبوط سائر عمل المشرك وخلوده في النار الخلود الأبدي؛ ولا خلاف في أنها مختصة بالشرك الأكبر، ومهما يكن من شيء؛ فإن الكيّس إذا آنسَ من طائفة من أهل العلم قولًا بدخول الشرك الأصغر في هذه الآية؛ استعظمه واشتد خوفه وتخويفه منه.

وفيها: فضل الإسلام والتوحيد، وعظيم المنة بالهداية إليه.

وفيها: كمال شقاء المشرك؛ والعياذ باللَّه.

وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

في هذه الآية: أن الجنة محرّمة تحريمًا أبديًّا على من لقي اللَّه وهو مشرك به الشرك الأكبر، ومأواه النار خالدًا مخلدًا فيها يدخلها مع أول داخليها ولا يخرج منها أبدًا، ولا ينقذه من عذاب اللَّه أحدٌ؛ فوجب الخوف منه، وهذا وجه الدلالة من الآية.

وبنحو هذه الآية: قول اللَّه عن المشركين وأهل الكتاب: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٦].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

في هذه الآية: أن مما أوحى الله لجميع أنبيائه: أن الشرك الأكبر محبط لجميع الأعمال، وقوله: ﴿عَمَلُكَ﴾: مفرد مضاف؛ فيعمّ كلَّ عمل؛ فوجب الخوف منه، وهذا وجه الدلالة من الآية.

وفي معنى هذه الآية: قول الله تعالى عن أنبيائه ورسله -عليهم الصلاة والسلام-: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

والأنبياء معصومون من الشرك، ولكنّ المقصودَ بيانُ أن الشرك لو صدر من أفضل الخلق لأحبط عمله؛ فكيف بغيره، وخوطب بذلك أفضل الخلق لبيان عظم هذا الذنب لا للغض من قدر المخاطب ﷺ.

وبنحو هذه الآية: قوله في حق المشركين: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وقال الخليل ابراهيم ﷺ: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٥ - ٣٦].

قال إبرَاهِيمُ التَّيمِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مَن يَأمَنُ مِنَ البَلَاءِ بَعدَ خَلِيلِ اللَّهِ إبرَاهِيمَ حِينَ يَقُولُ: رَبِّ ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾؟. **رواه الطبري في «تفسيره» (٦٨٧/١٣).**

في هذه الآية: أن إمام الحنفاء الذي جعله الله أمّة وحده؛ خاف على نفسه وذريته الشرك، وخاف أن يكون شركه في عبادة الأصنام؛ فسأل ربَّه أن يجعله في جانب وهي في جانب؛ وهو الذي كسّرها بيده وابتلي من جرّاء ذلك وأُلقي في النار، وقد أمر اللّهُ نبيَّه ﷺ وأمته باتباعه والتأسي به، وقرنَ الخليلُ

إبراهيم عليه السلام خشيته من الشرك بدعاء ربه بالتجنيب، وإنما يُدعى بالتجنيب لما يُخاف منه، وذكرَ السبب الموجب لهذا الخوف بقوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾، وفي دعائه بالمباعدة عن الشرك دعاءٌ بالثبات على التوحيد؛ وفي هذا الدعاء عظم افتقار الصالحين إلى حفظ اللَّه والتثبيت على الحق والهدى وأنه لا غنى للعبد عن ربه طرفة عين؛ فكيف يغترُّ مؤمنٌ نصحَ لنفسه بتوحيده ولا يخاف من الوقوع فيما ضلّ بسببه الكثيرُ من الناس ولا يلتجئ إلى مولاه بأن يعيذه من الشرك صغيره وكبيره؛ ففيه: الرد على الجهّال الذين يقولون: لا يقع الشرك في هذه الامة؛ فأَمِنوا منه؛ فوقع كثيرٌ منهم فيه، والصنم: ما له صورة، أما الوثن؛ فما ليس له صورة.

ووجه الدلالة من الآية على الترجمة: أنه إذا كان الخليل ابراهيم ﷺ وهو أكمل الناس توحيدًا بعد نبينا محمد ﷺ؛ لم يأمن على نفسه وبنيه الشرك؛ فكيف يأمنه ولا يخاف منه من هو دونه بمراتب كما بيّن الإمام ابراهيم التيمي رحمه الله.

وعَن عَبدِ اللَّهِ بن مسعود رضي الله عنه قَالَ: سَأَلتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: أَيُّ الذَّنبِ أَعظَمُ عِندَ اللَّهِ؟ قَالَ: «أَن تَجعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ» قَالَ: قُلتُ لَهُ: إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ، قَالَ: قُلتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «ثُمَّ أَن تَقتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أَن يَطعَمَ مَعَكَ» قَالَ: قُلتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «ثُمَّ أَن تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ». أخرجه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).

في هذا الحديث: أن الشرك هو أعظم الذنوب عند اللَّه، وما كان أعظمَ الذنوب؛ فعقوبته أشدّ العقوبات؛ فوجب الخوف منه، وهذا وجه الدلالة من الآية.

وعن جَابِر بن عَبدِ اللَّهِ ﵄ قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَن لَقِيَ اللَّهَ لَا يُشرِكُ بِهِ شَيئًا دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَن لَقِيَهُ يُشرِكُ بِهِ دَخَلَ النَّارِ». أخرجه مسلم (٩٣) (١٥٢).

في هذا الحديث: أن الشرك موجبٌ لدخول النار، وما أوجبَ دخولَها؛ وجبَ الخوف منه، وهذا وجه الدلالة من الحديث على الترجمة.

وفيه: أن مدار الجزاء يوم القيامة على موقع العباد من التوحيد، ومن الأدلة الظاهرة الدلالة على هذا المعنى: حديث البراء بن عازب ﵁ قال: أتى النبيَّ رجلٌ مُقَنَّعٌ بالحديد؛ فقال: يا رسول اللَّه؟ أُقاتل وأُسلِم؟، قال: «**أَسلِم ثم قاتل**»؛ فأَسلمَ ثم قاتل؛ فقُتِل؛ فقال رسول اللَّه ﷺ: «**عمِل قليلًا وأُجر كثيرًا**». أخرجه البخاري (٢٨٠٨)، ومسلم (١٩٠٠)، واللفظ للبخاري؛ فهذا الصحابي ﵁ لعله لم يسجد للَّه سجدة، ونال هذه الكرامة بشهادة رسول اللَّه ﷺ على عملٍ يسيرٍ صاحبَه التوحيدُ الخالص لقي اللَّه عليه.

وفيه: فضيلة من سلِم من الشرك؛ وأنه داخلٌ الجنةَ لا محالة إما الدخول الإبتدائي؛ إن ثقلت موازينه أو خفت موازينه وشاء اللَّه أن يغفر له، أو الدخول المآلي؛ إن خفت موازينه ولم يشأ اللَّه أن يغفر له.

وفيه: قرب الجنة أو النار من العباد، وأنه ليس بينهم وبينها إلا الموت.

وهذا التحذيرُ المستفيض الشديد من الشرك منه ﷺ وتنفيره عنه أشدَّ التنفير وتغليظُه في شأنه في مواطن كثيرة؛ لهو من شفقته على أمته ورأفته ورحمته بهم؛ فصلوات ربي وسلامه عليه.

وعَن عَائِشَةَ رضي الله عنها قُلتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ابنُ جُدعَانَ كَانَ فِي الجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ، وَيُطعِمُ المِسكِينَ؛ فَهَل ذَاكَ نَافِعُهُ؟ قَالَ: «لَا يَنفَعُهُ، إِنَّهُ لَم يَقُل يَومًا: رَبِّ اغفِر لِي خَطِيئَتِي يَومَ الدِّينِ». أخرجه مسلم (٢١٤).

في هذا الحديث: إحباط الشرك الأكبر ما قارنه من عمل، وإن وُصِف صاحبه في الدنيا بالإحسان وكثرة أعمال البر، وفيه: أن تلك الأعمال لا تنفع صاحبَها في الآخرة بشيء لا في مغفرة ولا في تخفيف عذاب ولا في غيرهما، ومن أولئك: عبد اللَّه بن جدعان؛ فقد كان مشركًا منكرًا للبعث، واختُص أبو طالب من بين الكفار بتخفيف العذاب عنه بشفاعة رسول اللَّه ﷺ.

ولا مِريةَ أن هذه النصوص وتلك الوجوه المبينة لخطر الشرك وسوء عاقبة أهله تورث العبدَ الموحدَ: شهودَ نعمة الهداية للتوحيد على الدوام، والفرحَ بفضل اللَّه ورحمته، وتلزمه دوامَ الشكر، ومن شكر هذه النعمة التي لا تعدلها نعمة: رعايتُها وتكميلُها وصيانتُها عما يقدح بها.

قال في «الكافية الشافية» (٢٥٤-٢٥٥):

واجعل لوجهِكَ مُقلتينِ كلاهما ... من خشيةِ الرَّحمنِ باكيتانِ
لو شاءَ ربُّك كنتَ أيضًا مثلَهم ... فالقلبُ بين أصابعِ الرَّحمنِ

* * *

١٠- بابُ وجوب البراءة من الشرك والمشركين، وموالاة أهل التوحيد والإيمان

اعلم -وفقك اللَّه- أن لتحقيق توحيد العبادة حقوقًا لا يتمُّ إلا بتحقيقها؛ من آكدها: البراءةُ من الشرك، والبراءة من المشركين والكافرين، وموالاة الموحدين.

وقول اللَّه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٩].

في هذه الآية: يأمر اللَّه نبيه محمدًا ﷺ أن يقول للمشركين من قومه: إنما هو تعالى معبودٌ واحد لا حقَّ لغيره في العبادة، وإنني بريء من كل معبود تعبدونه من دون اللَّه، **وفي هذا:** وجوب البراءة من كل معبود سوى اللَّه.

وفيها: البراءة من الشرك صنو التوحيد.

وقوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤].

في هذه الآية: يثني اللَّه على خليله إبراهيم عليه السلام والذين معه من المؤمنين -آمرًا هذه الأمة بالتأسي بهم- بقولهم لقومهم المشركين: إنا برآء منكم ومن الذين تعبدون من دون اللَّه من الأنداد، كفرنا بكم وأنكرنا ما أنتم عليه من الكفر، وظهر بيننا وبينكم العداوةُ والبغضاء أبدًا حتى تؤمنوا باللَّه وحده؛ فتفردوه بالعبادة.

وفي هذا: الأمرُ بالكفر بالمشركين وبالشرك الواقع منهم وبالمعبودات التي أشركوا بها مع اللَّه، والأمرُ بإعلان العداوة الظاهرة والبغضاء الباطنة

لهم ما داموا على شركهم؛ فإذا وحّدوا اللَّه زالت العداوة والبغضاء، وانقلبت مودةً وولاية.

وما براءةُ الموحدين من المشركين إلا فرعٌ عن براءة مولاهم -تبارك وتعالى- منهم، قال سبحانه: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ﴾ [التوبة: ٣]؛ أي: ورسوله بريء كذلك منهم، وقال: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤].

وهذا البغض والعداء للكافرين لا يجوز أن يَحمِل المؤمنَ على الظلم أو العدوان أو ترك الإحسان في حق من لم يقاتل المسلمين منهم ولم يخرجهم من ديارهم، قال تعالى: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]، وعن عبداللَّه بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**مَن قتل معاهَدًا لم يَرِح رائحة الجنّة، وإنّ ريحها توجد من مسيرة أربعين عامًا**». أخرجه البخاري (٣١٦٦)، وأخرجه النسائي (٤٧٥٠) بلفظ: «**مَن قتلَ قتيلًا من أهل الذمة لم يجد ريحَ الجنة، وإنّ ريحها ليوجدُ....**».

ودعوتُهم إلى اللَّه وتوحيده بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن؛ من فروض الكفايات، وقد تتعين على آحاد من المؤمنين.

وهذا البغض الديني لذوات الكافرين ودينهم لا ينافي ثبوتَ المحبة الطبيعية للوالدين الكافرين والزوجة الكتابية؛ فإن الإنسان مجبولٌ على محبة والديه وزوجه؛ كما أن محبةَ المسلم لأخيه المسلم الذي ظلمه المحبةَ الدينية للَّه لا تنافي ثبوتَ البغض الطبيعي له لظلمه له.

وحكم موالاة الكافرين وموادّتهم ومحبتهم ومطلق إعانتهم؛ كلّ ذلك لأجل الدنيا لا رغبةً فيهم: أنها من كبائر الذنوب، والدليل: حديث

علي رضي الله عنه قال: بعثني رسولُ اللَّه ﷺ أنا والزبير والمقداد؛ فقال: «**انطلقوا حتى تأتوا روضةَ خاخ؛ فإن بها ظعينةً معها كتاب؛ فخذوا منها**»، قال: فانطلقنا تعادى بنا خيلُنا حتى أتينا الرّوضة؛ فإذا نحن بالظّعينة؛ قلنا: أخرجي الكتابَ، قالت: ما معي كتاب؛ فقلنا: لتُخرِجنَّ الكتابَ أو لنُلقِيَنَّ الثياب، قال: فأخرجته من عِقاصها، فأتينا به رسول اللَّه ﷺ؛ فقال رسول اللَّه ﷺ: «**ياحاطبُ، ما هذا؟**»، قال: يا رسول اللَّه لا تعجل عليّ، إني كنتُ امرأً ملصقًا في قريش، -يقول: كنت حليفًا-، ولم أكن من أنفسِها، وكان من معك من المهاجرين مَن لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالَهم؛ فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يدًا يحمون قرابتي، ولم أفعله ارتدادًا عن ديني، ولا رضًا بالكفر بعد الإسلام؛ فقال رسول اللَّه ﷺ: «**أما إنه قد صدَقَكم**»، فقال عمر: يا رسول اللَّه، دعني أضرب عنق هذا المنافق؛ فقال: «**إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل اللَّه اطلع على من شهد بدرًا؛ قال: اعملوا ما شئتم قد غفرتُ لكم**»؛ فأنزل اللَّه السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾، إلى قوله: ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾. أخرجه البخاري (٤٢٧٤)، ومسلم (٢٤٩٤)؛ فحصل من حاطب رضي الله عنه موادّةٌ للمشركين ونوعُ إعانة لهم على المسلمين بإفشائه سرَّ رسولِ اللَّه ﷺ في مسيره إلى مكة، ولم يحكم رسولُ اللَّه ﷺ عليه بالكفر بذلك؛ لأنه لم يقصد به ظهور الكفر على الإسلام، ولو كانت الموالاة ومطلق الإعانة كفرًا أكبر بإطلاق؛ لما خاطب اللَّهُ فاعليها باسم الإيمان في الآية، ولما بقيت لحاطب رضي الله عنه حسنةُ شهوده بدرًا، ولما أعملَ رسولُ اللَّه ﷺ فيها الاستفصالَ.

أما محبتُهم لأجل دينهم ونصرتُهم لأجله والرضا به؛ فحكمُه أنه كفرٌ أكبر مخرج من الملة؛ من نواقض التوحيد، وهو التَّولي الذي قال اللَّه فيه:

﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١].

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

أي: وما كان سؤالُ إبراهيم المغفرة لأبيه إلا بسبب وعده إيَّاه في قوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧]؛ فلما تبين له أن أباه عدو لله يموت على الشرك؛ تبرأ من أبيه الذي هو أبوه وامتنع عن الاستغفار له؛ إن إبراهيم كثير التضرع والدعاء لله، كثير الصفح عمن ظلَمه وسفِه عليه من قومه.

وفي هذا: الأمر بالبراءة من المشرك ولو كان أقرب قريب، وأن وشيجة التوحيد أقوى من وشيجة النسب، ولذلك قال الله لرسوله نوح عليه السلام في حق ابنه: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [هود: ٤٦].

وفي الآية: حرمة الاستغفار للمشركين والكافرين أو الترحم عليهم.

وقوله: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

أي: لا تجد أيها النبيُّ قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر يحبُّون ويوالون من عادى الله ورسوله وخالف أمرهما، ولو كان هؤلاء الأعداء لله ولرسوله أقرب الناس إليهم نسبًا، أولئك الذين لا يوالون من عادى الله ولو كانوا أقرباء؛ يعدهم الله بالتثبيت على الإيمان، وبنور منه وبرهان يؤيّدهم به،

وبالجنة خالدين فيها أبدًا وبرضاه عنهم؛ فلا يسخط عليهم أبدًا، ورضاهم عنه، وبأن جعلهم حزبه وجنده، وبالفلاح في الدنيا والآخرة.

وفي هذا: الثناء على محققي البراء من أعداء اللَّه؛ المقدِّمين لمراده تعالى على مودة الأقربين المعادين للَّه ولرسوله ﷺ.

وفيه: عظيم ثواب اللَّه لهم في الدنيا والآخرة.

وفي الآية: رابطة الإيمان والتوحيد أوثق الروابط عند أهل الإيمان والتوحيد، وقد امتن اللَّه على عباده بملة التوحيد الجامعة لهم؛ فقال: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، وحذّرهم تعالى من نصب العلاقات على غير قاعدة الموالاة في التوحيد والمعاداة فيه؛ فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٌ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣].

وقوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ۝٥٥ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٥-٥٦].

أي: ليس لكم أيها المؤمنون ناصرٌ إلا اللَّه ورسوله والمؤمنون الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم خاضعون لربهم لا اليهود ولا النصارى؛ فليسوا لكم أولياء ولا نصراء بل بعضهم أولياء بعض، ومن وثِق باللَّه وتولّى اللَّه ورسوله والمؤمنين بالنصرة؛ فهو من حزب اللَّه، وحزب اللَّه هم الغالبون؛ لأن اللَّه ناصرهم.

وفي هذا: الأمر بتولي المؤمنين ونصرتهم.

وقوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾ [التوبة: ٧١].

أي: والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أنصارُ بعض وأعوانُهم.

وفي هذا: الأمر بموالاة المؤمنين، ومن موالاتهم: محبتهم على قدر إيمانهم، ومحبة الخير لهم، ونصرتهم، والنصح لهم، وتعليمهم أمور دينهم، والإحسان إليهم، ومواساتهم، واجتناب خيانتهم.

ويُعطى الفاسق من أهل الملّة من الموالاة بقدر إيمانه، ويعطى من المعاداة بقدر فسقه.

وفي الآية: أهل الإيمان والتوحيد أمةٌ واحدة يجمعها التناصر والتعاون والموالاة، غايتُها تحقيق مراد اللَّه في الأرض.

وعَنِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خَالِفُوا المُشرِكِينَ...». أخرجه البخاري (٥٨٩٢)، ومسلم (٢٥٩) (٥٤).

في هذا الحديث: الأمر بمخالفة المشركين في عباداتهم وشعائرهم وأعيادهم، وهو من البراء الذي أمرنا اللَّه به، والحسُّ شاهدٌ بأن المشابهة في الظاهر تورثُ نوعَ مودةٍ ومحبة وموالاة في الباطن.

* * *

١١- باب بيان الشرك الذي كان عليه مخالفو الرسل -عليهم الصلاة والسلام-

قدّمتُ لك أولَ الكتاب أن المشركين الأولين كانوا مقرّين بتوحيد الربوبية في الجملة، فإذا فقهت ذلك، وعلمت أنهم كانوا مقرّين بأن اللَّه هو أجلُّ معبوداتهم، ولم يدخلوا بذلك في الإسلام؛ فسماهم اللَّه مشركين وأمر رسولَه ﷺ بقتالهم؛ فقال: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ [التوبة: ٥]؛ تبينَ لك أن الإقرار بمجرد توحيد الربوبية لا يكفي في التوحيد ولا ينجي من النار.

ومنه تعلم: عظيم الخطأ الذي يقع فيه من يفسّر لا إله إلا اللَّه ب: لا خالق إلا اللَّه، وتعلم أيضًا: أن من اعتقد في غير اللَّه أنه يخلق من العدم أو يدبّر الكون أو يفرّج الكروب أو يشفي الأسقام؛ أغلظ شركًا من مشركي العرب في زمان رسول اللَّه ﷺ.

وإذا تحققت أنهم كانوا يعبدون اللَّه، ويحجون له، ويعتمرون، ويتصدقون، ويعتقون، وينذرون له، ويطعمون الحجيج، ويصلون الأرحام، ويفردون اللَّه بالدعاء في حال الشدة دون حال الرخاء، ولم يدخلوا بذلك في الإسلام؛ أيقنتَ أن العبادة لا تسمّى عبادة إلا مع التوحيد كما أن الصلاة لا تسمّى صلاة إلا مع الطهارة، ولذلك قال تعالى آمرًا نبيه ﷺ أن يقول للمشركين: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ [الكافرون: ٣]؛ فعبادةٌ يتقرب فيها إلى اللَّه مع شركٍ في سائر العبادات؛ لا يقبلها اللَّه، ذلك أن اللَّه تعالى لم يأمرهم بمجرد العبادة بل أمرهم بإفراده بها، قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦]، وقال: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

فإن سألتَ: بأي وجه إذن استحقّ أعداءُ الرسل -عليهم الصلاة والسلام- اسم المشركين واستوجبوا الخلود في العذاب المهين؟؛ قيل لك: تدبّر أدلة هذا الباب، وبه لن ترتابَ في أن شرك مخالفي الرسل -عليهم الصلاة والسلام- هو صرف العبادة إلى غير اللَّه بقصد أن تشفع لهم معبوداتُهم التي أشركوا بها عند اللَّه وأن تقربهم إلى اللَّه؛ وأن مَن احتج من المتأخرين في تسويغ شركه بأنه لطلب القربى والشفاعة؛ فحجته داحضةٌ؛ إذ شركُه هو عينُ شركِ الأولين، وحجتُه حجتُهم؛ فلا عذر له عند اللَّه.

وبه تعلم أنه لا يُشترَط لتحقيق حقيقة الشرك أن يعتقد عابدُ غير اللَّه في معبوده الألوهيةَ فضلًا عن أن يُشترَط له أن يعتقد في معبوده الربوبية أو أنه ينفع ويضر استقلالًا.

وقول اللَّه -تعالى-: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩].

في هذه الآيات: يخبر تعالى عن إقرار المشركين بأن الأرض ومن عليها للَّه وحده، وأنه رب السماوات السبع ورب العرش العظيم، وأنه الذي بيده ملكُ كل شيء وخزائنُ كل شيء، وهو يغيث من شاء من عباده، وإذا أرادَ أحدًا بعذابه فلا مغيث له؛ وكلُّها معان راجعةٌ إلى توحيد الربوبية؛ فعلم أن المشركين الذين نزل القرآن في الإنكار عليهم كانوا مقرّين بتوحيد الربوبية في الجملة، وقوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾: توبيخ لهم لعدم إفرادهم للَّه بالعبادة مع إقرارهم بأنه المالك لجميع ذلك.

وبنحوها: قول اللَّه تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١].

وقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزُّخرُف: ٩].

في هذه الآية: يخبر تعالى عن إقرار المشركين في زمانه ﷺ بأن اللَّه خالق السماوات والأرض.

وبمعناها: جملة من الآيات.

وفيها: إقرار المشركين الأولين باسمي اللَّه: العزيز والعليم.

وقوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]، **قال ابن عباس** رضي الله عنهما: **مِن إيمَانِهِم: إذَا قِيلَ لَهُم: مَن خَلَقَ السَّمَاءَ، وَمَن خَلَقَ الأرَضَ، وَمَن خَلَقَ الجِبَالَ؟، قَالُوا: اللَّهُ، وَهُم مُشرِكُونَ. رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/٣٧٢).**

أي: وما يقرُّ أكثرُ هؤلاء المشركين بأن اللَّه هو خالقُهم ورازقُهم وخالقُ كلِّ شيء إلا وهم مشركون في عبادتهم غيرَه من الأوثان والأصنام، وهذا معنى الإيمان المضاف إليهم كما أجمع عليه أئمة التفسير من السَّلف، منهم: حبر الأمة وترجمان القرآن عبداللَّه بن عباس رضي الله عنهما.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزُّمَر: ٣].

في هذه الآية: يخبر تعالى عن المشركين الأولين يقولون: إنما حملَهم على عبادتهم لآلهتهم من دون اللّه رجاءُ أن تقرّبهم عند اللّه منزلةً؛ ذلك ما اعتذروا به، وتلك شبهتُهم؛ فلم تغنِ عنهم شيئًا؛ فقد أكذبهم اللّهُ وردَّ عليهم حاكمًا عليهم بالكفر متوعدًا لهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾؛ فسماهم كذبةً في قولهم: إنها تقربهم إلى اللّه؛ كفرةً بعبادتهم غيرَه.

وقوله: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

في هذه الآية: ينكر اللّه على المشركين الذين عبدوا معه غيره، مخبرًا عن قولهم: إنهم كانوا يعبدونها رجاءَ أن تشفع لهم عند اللّه؛ ذلك ما اعتذروا به، وتلك شبهتم؛ فأكذبهم اللّهُ وردّ عليهم آمرًا نبيه ﷺ أن يقول لهم: أتخبرون اللّه بما لا يكون في السماوات ولا في الأرض؛ ثم نزه نفسه عما يفعله هؤلاء المشركون؛ وسمى صنيعهم شركًا.

وعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: كَانَ المُشرِكُونَ يَقُولُونَ: لَبَّيكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، قَالَ: فَيَقُولُ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: «وَيلَكُم قَد قَد»؛ فَيَقُولُونَ: إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ تَملِكُهُ وَمَا مَلَكَ، يَقُولُونَ هَذَا وَهُم يَطُوفُونَ بِالبَيتِ. أخرجه مسلم (١١٨٥).

في هذا الحديث: بيان صفة تلبية المشركين، وفيها: أنهم كانوا مقرّين بأن اللّه هو أجلُّ معبوداتهم؛ وهو المالك لآلهتهم وما تملك، وقوله ﷺ: «**قَد قَد**»؛ أي: كفاكم هذا الكلام فاقتصروا عليه.

فكانوا يعبدون اللّهَ ويعبدون غيرَ اللّه، ويعتقدون بأن اللّه هو الأجلّ،

ولهذا المعنى استثنى خليلُ اللَّه إبراهيم ربَّه تعالى من معبودي المشركين لما أعلن العداوة لهم بقوله: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ [الشعراء: ٧٥-٨١].

وعَن عِيَاضِ المُجَاشِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ ذَاتَ يَومٍ فِي خُطبَتِهِ: «أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَن أُعَلِّمَكُم مَا جَهِلتُم مِمَّا عَلَّمَنِي يَومِي هَذَا، كُلُّ مَالٍ نَحَلتُهُ عَبدًا حَلَالٌ، وَإِنِّي خَلَقتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُم، وَإِنَّهُم أَتَتهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجتَالَتهُم عَن دِينِهِم وَحَرَّمَت عَلَيهِم مَا أَحلَلتُ لَهُم وَأَمَرَتهُم أَن يُشرِكُوا بِي مَا لَم أُنزِل بِهِ سُلطَانًا، وَإِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهلِ الأَرضِ، فَمَقَتَهُم عَرَبَهُم وَعَجَمَهُم، إِلَّا بَقَايَا مِن أَهلِ الكِتَابِ..». أخرجه مسلم (٢٨٦٥).

في هذا الحديث: أن الأصل في البشر التوحيد والحنيفية، وأن الشرك في العبادة طارئ عليهم، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ [يونس: ١٩]، وقال: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وفيه: الشركُ ومنازعة اللَّه في التحليل والتحريم من اجتيال الشياطين لبني آدم عن دين التوحيد.

وفيه: غلَبةُ الشرك على أهل الأرض سببٌ لحلول مقت اللَّه عليهم.

* * *

١٢- بابٌ كل مَن عَبدَ غير اللَّه فهو مشركٌ أيًّا كان معبوده

للشرك حقيقةٌ هي صرف العبادة إلى غير اللَّه؛ كل مَن تلبّس بها فهو مشرك، لا فرق بين أن يكون معبوده صالحًا أم غير صالح، أم جمادًا؛ إذ العبادة حق اللَّه، وقد ظهر رسولُ اللَّه ﷺ على أقوام مختلفين في معبوداتهم؛ فمنهم من يعبد الملائكةَ والأنبياء والصالحين، ومنهم من يعبد الجنَّ، ومنهم من يعبد الحجر والشجر، ومنهم من يعبد الشمسَ والقمر والكواكب، ولم يُفرِّق بينهم ﷺ، وفي هذا ردٌ على من فرّق بين عبادة الأصنام وعبادة الصالحين؛ فكيف إذا علمتَ أن الأصنام والتماثيل إنما عبدها مَن عبدها تعظيمًا للممثَّلين من الملائكة والصالحين واعتقادًا منهم أن أرواحهم تَحُلّ في تلك الأصنام، ولذلك يرجون منها القربى والشفاعة.

وهذا الباب معقودٌ لبيان استواء المشركين في الشرك وجزائه أيًا كان معبودهم من دون اللَّه.

وقول اللَّه -تعالى-: ﴿وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٠].

أي: وما ينبغي لنبيٍّ أن يأمرَكم بعبادة أحدٍ غير اللَّه لا نبيٍ مرسل ولا ملَكٍ مقرَّب، والرب والإله إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا كما تقدم؛ فالرب في هذه الآية هو الإله المتفرد بالخلق.

وفي هذا: أن الملائكة والنبيين عُبِدوا من دون اللَّه؛ وهو وجه الشاهد من الآية.

وفيه: أن الأنبياء إنما يأمرون بالتوحيد.

وفي الآية: أن عبادة سوى اللَّه كفرٌ ولو كان المعبود نبيًا أو ملَكًا،

وتخصيص الملائكة والنبيين بالذكر تنبيهٌ على من دونهم؛ فإنه أن لا يأمر باتخاذ الصالحين أربابًا بطريق الأولى.

وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٦-١١٧].

في هاتين الآيتين: يخبر تعالى عما يخاطب به عبدَه ورسوله عيسى ﷺ يوم القيامة بحضرة عابديه من النصارى موبخًا لهم ومقرّعًا: هل قلتَ لهم صيرّوني وأمي معبودَين من دون اللَّه؛ فيجيب منزهًا ربه: ما ينبغي لي أن أدّعي ما ليس لي بحق، وإن قُدِّر أني قلت ذلك؛ فقد علمتَه لأنه لا يخفي عليك شيء، تعلم ما أُضمره في نفسي، ولا أعلم ما في نفسك، إنك أنت علام الغيوب، ما دعوتُهم إلا إلى الذي أرسلتني به وأمرتني بإبلاغه: أن اعبدوا اللَّه ربي وربكم، وفي هذه الجملة الأخيرة: الاستدلال بتفرد اللَّه بالربوبية على وجوب إفراده بالألوهية، وفيها: استواء عيسى ﷺ وعابديه في كونهم مربوبين للَّه؛ فكيف يتوجهون إليه بالعبادة من دون اللَّه؟.

وفي الآيتين: أن الألوهية حق اللَّه وحده ليست لعيسى ﷺ بحقٍ ولا لغيرِه.

وفيهما: حسن تعظيم رسل اللَّه لربهم، وغيرتهم على جناب التوحيد، وكمال براءتهم من الشرك وأهله.

وفيهما: حسن التوحيد؛ لأنه تنزيه للَّه، وقبح الشرك.

وفيهما: عظيم خزي المشرك يوم القيامة.

ووجه الشاهد من الآيتين: أن عيسى -عليه الصلاة والسلام- وأمَّه عُبدا من دون اللَّه في الدنيا.

وقوله: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾ [الإسراء: ٥٧].

في هذه الآية: أن الذين يدعوهم أهلُ الشرك من الملائكة والصالحين يطلبون القرب إلى اللَّه وحده بطاعته، ويرجون رحمته ويخافون عذابه؛ والذي يحتمله ظاهر التنزيل من أقوال المفسرين كما ذكر الطبري (١٤/ ٦٣٢): أن المراد بهم: نفر من مسلمي الجن أو الملائكة؛ قال عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه: كان ناسٌ من الإنس يعبدون ناسًا من الجن؛ فأسلم الجنُّ، وتمسّك هؤلاء بدينهم. رواه البخاري (٤٧١٤)، ومسلم (٣٠٣٠)، واللفظ للبخاري، وقوله: ﴿يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ أي: يبتغون إلى اللَّه ولا يبتغون إلى سواه، إذ تقديم الجار والمجرور يفيد الاختصاص؛ والوسيلة هي التقرب إلى اللَّه بطاعته وبطاعة رسوله ﷺ.

وفيها: ثناء اللَّه عليهم بالجمع بين مقامي الرجاء والخوف، وبتطلّب كمال القرب منه تعالى.

وفيها: ولايةُ الصالحين لا تستلزم عبادتهم بحال.

ووجه الشاهد من الآية: أن الصالحين من الجنّ عبدوا من دون اللَّه.

وقوله: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ۝٤٠ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠-٤١].

في هاتين الآيتين: يخبر تعالى عما يخاطب به الملائكةَ يوم القيامة مقرّعًا

المشركين الزاعمين أنهم يعبدون الأنداد التي على صور الملائكة: أأنتم أمرتم هؤلاء في الدنيا بعبادتكم؛ فتقول الملائكة: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾؛ أي: تنزهت وتقدست عن أن يكون معك إله، نحن عبيدك أنت وليُّنا، ولا موالاة بيننا وبينهم، نبرأ إليك منهم، بل كانوا يعبدون الشياطين، أكثرهم بهم مؤمنون.

وفي هذا: أن الشياطين عُبدوا من دون اللَّه؛ وهو وجه الشاهد من الآية.

قال في «مجموع الفتاوى» (١/ ١٥٧- قاعدة جليلة):

«والمشركون الذين وصفهم اللَّه ورسوله بالشرك أصلُهم صنفان: قوم نوح، وقوم إبراهيم؛ فقومُ نوح كان أصل إشراكهم: العكوفَ على قبور الصالحين ثم صوروا تماثيلهم ثم عبدوهم، وقوم إبراهيم كان أصل شركهم: عبادةَ الكواكب والشمس والقمر، وكل من هؤلاء يعبدون الجن؛ فإن الشياطين تخاطبهم وتعينهم على أشياء، وقد يعتقدون أنهم يعبدون الملائكة، وإن كانوا في الحقيقة إنما يعبدون الجن؛ فإنَّ الجنَّ هم الذين يعينونهم ويرضون بشركهم».

وفيهما: حسن تعظيم ملائكة اللَّه لربهم، وغيرتهم على جناب التوحيد، وكمال براءتهم من الشرك وأهله.

وفيهما: عظيم خزي المشرك يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فُصِّلَت: ٣٧].

في هذه الآية: أن القمر والشمس عبدتا من دون اللَّه؛ وهو وجه الشاهد من الآية هنا.

وفيها: الليل والنهار والشمس والقمر من آيات اللَّه الدالة على عظمته وتوحيده.

وفيها: عدم استحقاق هذه الآيات للعبادة من دون خالقها ومدبِّرها والمتصرف فيها تعالى.

وفيها: الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية.

وقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٩-٢٠].

في هذه الآية: يخاطب اللَّه المشركين مقرّعًا لهم في عبادتهم الأصنام والأوثان: أفرأيتم أيها المشركون هذه الأوثان التي تعبدونها من دون اللَّه: اللات والعزى ومناة؛ هل نفعت أو ضرت، وهذا استفهام على سبيل التحقير والتصغير لها.

واللات بالتخفيف: صخرة بيضاء منقوشة عليها بيت بالطائف، وبالتشديد: رجل كان في الجاهلية يلتّ سويق الحاج كما رواه البخاري (٤٨٥٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ فلما مات عكفوا على قبره وعبدوه، وهو وثن ثقيف، والعزّى: شجرة كانت تعظّمها قريش؛ بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد رضي الله عنه بعد فتح مكة فقطعها وهدم البيت الذي كان عليها، وقتل شيطانة في صورة امرأة كانت عندها. رواه النسائي في «الكبرى» (١١٤٨٣) بإسناد حسن، ومناة: صنم بين مكة والمدينة؛ كان الأوس والخزرج وغسّان يعظمونه ويُهلّون إليه، وهذه أكبر طواغيت الجاهلية في الحجاز؛ فكانت الفتنة فيها أشد، وإلا ففي الحجاز أوثان غيرها.

ووجه الشاهد من الآيتين: أن الأحجار والأشجار عبدت من دون اللَّه في زمانه ﷺ

قال في «مجموع الفتاوى» (١/ ٣٦١-قاعدة جليلة):

«ولم يكن أحدٌ من عبّاد الأصنام يعتقد أنها خَلقت السماوات والأرض، بل إنما كانوا يتخذونها شفعاء ووسائط لأسباب؛ منهم: من صوّرها على صورة الأنبياء والصالحين، ومنهم: من جعلها تماثيل وطلاسم للكواكب والشمس والقمر، ومنهم: من جعلها لأجل الجن، ومنهم: من جعلها لأجل الملائكة؛ فالمعبود لهم في قصدهم إنما هو الملائكة والأنبياء والصالحون أو الشمس أو القمر، وهم في نفس الأمر يعبدون الشياطين».

ذلك أن الشيطان هو الداعي إلى الشرك الراضي به، شاهد ذلك من كتاب اللَّه قول اللَّه عن إبراهيم الخليل -عليه الصلاة والسلام-: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ [الأنعام: ٧٤] مع قول إبراهيم لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [مريم: ٤٤].

* * *

١٣- بابُ إبطال التعلق بالأنبياء والصالحين

هذا باب عظيمٌ مقصودُه إبطالُ شبهة المشركين في تعلّقهم بالأنبياء والصالحين ببيان كمال افتقارهم إلى اللَّه وبيان ضعفهم، وأنهم لا يقدرون إلا ما أقدرهم ربهم -تبارك وتعالى-.

وفيه: تحقيق للنفي العام لاستحقاق أحد للعبادة سوى اللَّه؛ فيقال: لا تجوز العبادة إلا للَّه تعالى لا لملَك مقرّب ولا لنبي مرسَل؛ تنبيهًا بنفيها عن الأعلى على انتفائها عمن هو دونهم بطريق الأولى.

وقول اللّه -تعالى-: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [إبراهيم: ١١].

في هذه الآية: يخبر تعالى عن قول رسل اللَّه -عليهم الصلاة والسلام- لما سألهم أقوامُهم أن يأتوا ببرهان وآياتٍ عيّنوها تعنتًا منهم وعنادًا: صدقتم في قولكم فما نحن إلا بشرٌ مثلكم، ولكنّ اللَّه امتنّ علينا وخصنا بالنبوة والرسالة، ولا نقدر على ما سألتم إلا بإقدار اللَّه لنا وإذنه.

وفي هذا: بيان لصفة رسل اللَّه وأنبيائه وأنهم بشر من عباد اللَّه أكرمهم اللَّه بالنبوة والوحي، والعبد لا يُعبَد، والرسول لا يُكذَّب.

وفيه: أن أمر الآيات إلى اللَّه، لا يقدر رسلُ اللَّه على شيء منها إلا ما أقدرهم اللَّه عليه.

وقوله: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ

ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥].

في هذه الآية: يبين تعالى استواء عيسى وجميع رسل اللَّه المتقدمين عليه في الرسالة؛ فلا يختص عنهم بشيء؛ هو عبدٌ من عباد اللَّه ورسولٌ من رسله الكرام كما قال تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الزخرف: ٥٩]، ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ﴾: أي: مؤمنةٌ به مصدقة له، كانا يأكلان الطعام؛ فهما محتاجان للطعام وما ينشأ عن أكل الطعام كجميع الناس؛ فكيف يستحقان العبادة، انظر كيف نوضح لهم الآيات الدالة على بطلان عبادتهم لعيسى وأمه ثم انظر كيف يُصرفون عن الحق.

ونسب اللَّهُ المسيحَ إلى أمّه في هذه الآية وغيرها؛ لينفي نسبته إلى غيرها؛ فلا ينسب إلى اللَّه تعالى أنه ابنه كما زعمت النصارى الغالية فيه، ولا إلى أب من البشر كما زعمت اليهود الكافرة به.

وقوله: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

في هذه الآية: أمرٌ من اللَّه لنبيه ﷺ أن يخبر عن نفسه أنه لا يملك اجتلاب نفع لنفسه، ولا دفع ضر يحلّ بها عنها إلا ما شاء اللَّه، وأنه لا يعلم الغيب، ولا اطلاع له على شيء من ذلك إلا ما أَطلَعه اللَّهُ عليه، وأنه لو كان يعلم الغيب لاستكثر مما يجلب له المصالح والمنافع واتقى ما يكون من الضر والشر قبل أن يقع، ليس إلا رسولًا من عند اللَّه يُنذر عقابَه من عصاه، ويبشر بثوابه من آمن به.

فإذا كان ﷺ لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا إلا ما أقدره اللَّه عليه، ويمسّه السوءُ؛ أي: الضر إذا شاء اللَّه؛ فكيف يُتعلق به من دون اللَّه.

وقـــولـــه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣٠-٣١].

في هاتين الآيتين: يقول اللَّه لنبيه ﷺ: إنك ميت وإنهم ميتون لا محالة، ثم إنكم جميعًا أيها الناس يوم القيامة عند ربكم تختصمون فيما تتنازعون فيه من التوحيد والشرك؛ فيفصل بينكم.

وفي هذا: أن رسول اللَّه ﷺ يناله الموتُ كسائر البشر؛ فكيف يتعلق به من دون الحي الذي لا يموت؛ وقد قبضه اللَّه إليه فهو الآن ميت، أما حياته ﷺ في قبره؛ فهي حياة برزخية خاصة ليست من جنس حياة الحي منّا اليوم، وإلا لكان دفنه ﷺ منافيًا لإكرامه الواجب على أمته، وما دام كذلك؛ فلا يجوز دعاؤه اليوم ولا سؤاله شيئًا من مطالب الدنيا أو الآخرة، وقد سمى اللَّه دعاء الأموات شركًا بإطلاق كما سيأتي في باب الدعاء.

وقـــولـــه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

في هذه الآية: يقول اللَّه لنبيه ﷺ: إنك لا تهدي هدايةَ التوفيق من أحببتَ هدايتَه أو من أحببتَه المحبةَ الطبيعية لقرابته منك، ولكنّ اللَّه وحده هو الذي يهدي قلبَ من شاء، وهو أعلم بمن سبقَ له في علمه أنه من المهتدين.

فرسولُ اللَّه ﷺ لا يملك هداية القلوب أو هداية التوفيق مع شدة حرصه على اهتداء المدعو، ولا هو عالم بمن يهتدي ممن لا يهتدي من مدعوييه حتى يُعلمَه اللَّه؛ فكيف يتعلق به من دون اللَّه في هذه المطالب، وإذا لم يقدر ﷺ عليها وهو حي؛ فكيف يملكها لأحد وقد توفاه اللَّه.

وفي معنى هذه الآية: قول اللَّه: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن

يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧]، أما الهداية التي أثبتها اللَّه لنبيه ﷺ في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ [الشورى: ٥٢]؛ فهي هداية الدلالة والبيان.

وقد نزلت هذه الآية في أبي طالب كما يبينه حديث المسيب بن حزن رضي الله عنه.

وعن المسيّب بن حَزن رضي الله عنه قال: لَمَّا حَضرَت أبَا طَالِبِ الوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فوَجَدَ عِندَهُ أبَا جَهلٍ وَعَبدَ اللَّهِ بنَ أبي أُمَيَّةَ بنِ المُغِيرَةِ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا عَمِّ قُل: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً أَشهَدُ لَكَ بِهَا عِندَ اللَّهِ»؛ فَقَالَ أبُو جَهلٍ وَعَبدُ اللَّهِ بنُ أبِي أُمَيَّةَ: يَا أبَا طَالِبٍ أَترغَبُ عَن مِلَّةِ عَبدِ المُطَّلِبِ؟ فَلَم يَزَل رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعرِضُهَا عَلَيهِ وَيُعِيدُ لَهُ تِلكَ المَقَالَةَ حَتَّى قَالَ أبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُم: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبدِ المُطَّلِبِ، وَأَبَى أن يَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَا وَاللَّهِ لَأَستَغفِرَنَّ لَكَ مَا لَم أُنهَ عَنكَ»؛ فَأَنزَلَ اللَّهُ عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]، **وَأنزَلَ اللَّهُ -تعالى- فِي أبِي طَالِبٍ فَقَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ:** ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]. **أخرجه البخاري (١٣٦٠)، ومسلم (١٤١).**

في هذا الحديث: برهان عظيم من براهين التوحيد؛ فقد اجتهدَ رسولُ اللَّه ﷺ كلَّ الاجتهاد أن يهتدي عمه الذي كفله صغيرًا وحماه كبيرًا، وذبَّ عنه بماله وحاله وولده، وكان يحوطه وينصره ويقوم في صفّه؛ ولم يشأ اللَّه هدايته؛ فمات على ما عاشَ عليه من الكفر؛ ونهى اللَّهُ نبيه ﷺ عن الاستغفار له، وللَّه الأمرُ من قبل ومن بعد، وهو المتفرد بملك هداية القلوب؛ فلا تُرجى إلا منه، وقوله: «لَمَّا حَضَرَت أَبَا طَالِبِ الوَفَاةُ»؛ أي: علاماتها ولم يصل حد الغرغرة.

وفي قوله: «**قُل: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً أَشهَدُ لَكَ بِهَا عِندَ اللَّهِ**»: بيان أن رسول اللّه ليس حجة بنفسه في دخول أحدٍ الجنةَ، بل الحجة في تحقيق شهادة أن: لا إله إلا اللّه؛ فهي مفتاح الجنة.

وفيه: مَن دعي إلى الإسلام وقدِر على النطق بالشهادة ولم ينطق بها؛ فإنه لا يكون مسلمًا ولو آمن بقلبه.

وفي قوله: «فَلَم يَزَل رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعرِضُهَا عَلَيهِ وَيُعِيدُ لَهُ تِلكَ المَقَالَةَ»: تكرار الدعوة إلى التوحيد، ولو وجد الداعي من المدعو صدودًا.

وفيه: جَلَد أهل الباطل في الدعوة إلى باطلهم، والموفق مِن أهل الحق مَن استمسك بوحي اللّه وثبت على صراط اللّه، جادًا في الدعوة إليه، مجاهدًا في الذود عنه، لا يُوهِنه كيد، ولا يخلص إليه يأس، ولا يصدّه تشنيعُ مفترٍ.

وفي الحديث: الرد على من زعم إسلام عبد المطلب وأبي طالب.

وفيه: تحريم الدعاء للكافر إلا بالهداية في حياته، وهذا الحكم أعني حرمة الدعاء للكافر الذي مات على الكفر بالمغفرة أو الرحمة ثابتٌ بالكتاب والسنة والإجماع، أما قوله ﷺ يوم أحد: «**رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**». أخرجه البخاري (٣٤٧٧)، ومسلم (١٠٥) (١٧٩٢)؛ فمعناه: اهدهم إلى الإسلام الذي تصح معه المغفرة؛ لأن ذنب الكفر لا يغفر، أو يكون المعنى: اغفر لهم إن أسلموا.

وفيه: النجاة في الإيمان والعمل الصالح وتجريد التوحيد للّه رب العالمين؛ فمن تنكبها لم يغن عنه شرف نسبه ولا جاهه.

وفيه: عظيم منّة اللّه علينا بهدايته لنا دون بذل منا.

وفيه: أبو جهل وأصحابه على الشرك أعلم بمعنى لا إله إلا اللَّه ومقتضاها من كثير من أهل زماننا؛ فإنه كان يعقل أنّ لا إله إلا اللَّه تبطل الأنداد وتنافي ملة عبد المطلب.

ولقد قُتل أبو جهل المخزومي مشركًا، وأسلم صاحباه المخزوميان عبد اللَّه بن أبي أمية والمسيب بن حزن؛ فسبحان المتفضل بالهداية على من شاء من عباده.

وفيه: خطر تقليد الآباء وتعظيم العادات والموروثات بعد تبيُّن حكم الشرع في خلافها، وأن أقبحها ما كان في خلاف التوحيد.

وعَن أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كُسِرَت رَبَاعِيَتُهُ يَومَ أُحُدٍ وَشُجَّ فِي رَأسِهِ فَجَعَلَ يَسلُتُ الدَّمَ عَنهُ وَيَقُولُ: «كَيفَ يُفلِحُ قَومٌ شَجُّوا نَبِيَّهُم وَكَسَرُوا رَبَاعِيَتَهُ وَهُوَ يَدعُوهُم إِلَى اللَّهِ». فَأَنزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]. **أخرجه البخاري (٤٠٦٨)، ومسلم (١٧٩١).**

في هذا الحديث: بيان ما أصاب رسولَ اللَّه ﷺ من الضر في غزوة أحد، وأنه لم يستطع دفعه عن نفسه؛ فكيف يُتعلّق به، و«الشج»: الجرح في الرأس والوجه خاصة، و«الربَاعية» هي السن بين الثنية والناب.

وفيه: إثبات وقوع الابتلاء الشديد بالأنبياء لينالوا جزيل الثواب، ويكونوا أسوة لأتباعهم، وليتيقنوا بأنهم مخلوقون مربوبون؛ فلا يُغلى فيهم أو يُتعلق بهم من دون اللَّه.

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨]؛ أي: ليس لك من الحكم في العبيد شيء، بل الأمر كلّه للَّه؛ فلعل بعض هؤلاء الذين آذوك أن يسلموا فيتوب اللَّه عليهم؛ ومن لم

يتب منهم؛ يعذبه اللَّه في الدنيا والآخرة فإنه مستحق لذلك بظلمه، وليس ذلك بهوانٍ به ﷺ؛ فإنه أكرم خلق اللَّه على اللَّه، ولكن ليُعلَم نزولُ قدره ﷺ عن مقام الربوبية والإلهية.

وإذا كان رسولُ اللَّه ﷺ ليس له من الأمر شيء؛ فكيف بمن دونه من البشر فضلًا عن الأحجار والأشجار ونحوها.

وعَن ابن عمر رضي الله عنهما أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِن الرُّكُوعِ مِن الرَّكعَةِ الآخِرَةِ مِن الفَجرِ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ العَن فُلَانًا وَفُلَانًا وَفُلَانًا» بَعدَ مَا يَقُولُ: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَن حَمِدَهُ رَبَّنَا وَلَكَ الحَمدُ»، فَأَنزَلَ اللَّهُ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ **إِلَى قَولِهِ:** ﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨]. **أخرجه البخاري (٤٠٦٩).**

في هذا الحديث كسابقه: بيان أن الحكم في جميع العبيد إلى اللَّه؛ فهؤلاء قومٌ آذوا رسولَ اللَّه ﷺ وأصحابَه في غزوة أحد -ولم تثبت الأخبار في تعيينهم-؛ فقنت يدعو عليهم في الصلاة بالطرد من رحمة اللَّه؛ فأنزل اللَّه عليه هذه الآية تنهاه عن الدعاء عليهم، وتُعلِمُه بأن إليه الحكم فيهم؛ إن شاء أن يموتوا على الكفر ويعذبهم؛ عذبهم، وإن شاء أن يُسلموا؛ أسلموا وتاب عليهم؛ فتأمل هذا البرهان، ثم انظر كيف أن النبي ﷺ توجه إلى اللَّه في هذه الملمة وأنزل حاجته بمولاه وحده -تبارك وتعالى-؛ وهذا مما يملأ القلوب تعلقًا باللَّه وحده.

ولا مانع من أن تكون هذه الآية قد نزلت بسبب الأمرين المذكورين في هذا الحديث والذي قبله؛ فإنهما كانا في قصة واحدة.

وعن أبي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ أنزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] **قَالَ: «يَا مَعشَرَ قُرَيشٍ -أو كَلِمَةً نَحوَهَا- اشتَرُوا أَنفُسَكُم لَا أُغنِي عَنكُم مِن اللَّهِ شَيئًا، يَا بَنِي عَبدِ مَنَافٍ لَا أُغنِي عَنكُم مِن اللَّهِ شَيئًا، يَا عَبَّاسُ بنَ عَبدِ المُطَّلِبِ لَا أُغنِي عَنكَ مِن اللَّهِ شَيئًا، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ لَا أُغنِي عَنكِ مِن اللَّهِ شَيئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئتِ مِن مَالِي لَا أُغنِي عَنكِ مِن اللَّهِ شَيئًا». أخرجه البخاري (٢٧٥٣).**

في هذا الحديث: أن رسول اللَّه ﷺ لا يملك لأقرب الناس إليه نسبًا جنة ولا نجاةً من نار؛ فكيف بغيرهم حتى ابنته فاطمة التي هي بَضعةٌ منه ما كان يملكُ لها إلا مالَه الذي في حيّز ملكه، وقوله: «**اشتَرُوا أَنفُسَكُم**» أي: خلّصوها بتوحيد اللَّه والإيمان به وبرسوله؛ فأنذرَ ﷺ الأقربين نذارة خاصة، وبلّغهم وأعذرَ إليهم، وأخبرهم بأن مجرد قربهم منه في النَّسب غيرُ منجٍ لهم من عذاب اللَّه مالم ينقادوا لما جاء به من التوحيد.

وفي هذا: أن أولى الناس برسول اللَّه ﷺ يوم القيامة أهلُ التوحيد والاتباع له ﷺ، وفيه: عنايته ﷺ بتعليق أهله باللَّه وحده لا بذاته في المحافل العامة والخاصة.

وقوله: «**لَا أُغنِي عَنكُم مِن اللَّهِ شَيئًا**»، نكرةٌ في سياق النفي؛ فتعم، وبنحوه: حديث أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَومٍ فَذَكَرَ الغُلُولَ؛ فَعَظَّمَهُ وَعَظَّمَ أَمرَهُ، ثُمَّ قَالَ: «**لَا أُلفِيَنَّ أَحَدَكُم يَجِيءُ يَومَ القِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغِثنِي؛ فَأَقُولُ: لَا أَملِكُ لَكَ شَيئًا قَد أَبلَغتُكَ، لَا أُلفِيَنَّ أَحَدَكُم يَجِيءُ يَومَ القِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهُ حَمحَمَةٌ؛ فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغِثنِي؛ فَأَقُولُ: لَا أَملِكُ لَكَ شَيئًا قَد**

أَبلَغتُكَ، لَا أُلفِيَنَّ أَحَدَكُم يَجِيءُ يومَ القِيَامَةِ عَلَى رَقَبتِهِ شَاةٌ لَهَا ثُغَاءٌ يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغِثني؛ فَأَقُولُ: لَا أَملِكُ لَكَ شَيئًا قَد أَبلَغتُكَ، لَا أُلفِيَنَّ أَحَدَكُم يَجِيءُ يومَ القِيَامَةِ عَلَى رَقَبتِهِ نَفسٌ لَهَا صِيَاحٌ؛ فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغِثني؛ فَأَقُولُ: لَا أَملِكُ لَكَ شَيئًا قَد أَبلَغتُكَ، لَا أُلفِيَنَّ أَحَدَكُم يَجِيءُ يومَ القِيَامَةِ عَلَى رَقَبتِهِ رِقَاعٌ تَخفِقُ؛ فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغِثني؛ فَأَقُولُ: لَا أَملِكُ لَكَ شَيئًا قَد أَبلَغتُكَ، لَا أُلفِيَنَّ أَحَدَكُم يَجِيءُ يَومَ القِيَامَةِ عَلَى رَقَبتِهِ صَامِتٌ؛ فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغِثني؛ فَأَقُولُ: لَا أَملِكُ لَكَ شَيئًا قَد أَبلَغتُكَ». أخرجه البخاري (٣٠٧٣)، ومسلم (١٨٣١)، واللفظ لمسلم.

ومثل ذلك: قولُ إبراهيم عليه السلام: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤].

وقول يعقوب عليه السلام: ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧].

وقال اللَّه عن نوح ولوط عليهما السلام: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠].

ولهذا أمر اللَّهُ نبيَّه ﷺ أن يقول: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن: ٢١-٢٢].

قال في «الاستغاثة» (ص١٨٤):

والطالبُ من النبيِّ ﷺ قد يَظنُّ أنه يَقدر على قضاء حاجته ولا يكون كذلك؛ كما كان سأله الناسُ؛ إما نساؤه وإما غيرهنّ ما ليس عنده، وكما كان الناس يأتونه في غزوة تبوك ليحملَهم فلا يجد ما يحملهم عليه، قال تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢]، وكما سأله أبو موسى الأشعري وأصحابه الأشعريون أن يحملهم فقال: «**والله ما أحملكم وما عندي ما أحملكم عليه**»، وكان هؤلاء الأشعريون من خيار الصحابة ظنّوه قادرًا على حاجتهم ولم يكن كذلك، وفي الصحيحين: أن فاطمة ابنته جاءت تسأله خادمًا فأتاها بعد أن نامت هي وعليٌ رضي الله عنهما؛ فعلّمها أن تسبّح وتحمد وتكبّر، وقال: «**ذلك خير لكِ من خادم**»، ولم يعطها... إلى آخر ما قال رحمه الله.

فإذا كان -صلوات ربي وسلامه عليه- سئل في حياته أشياء يُتصور قدرتُه عليها مِن أحبِّ الناس إليه في حياته واعتذر إليهم بعدم قدرته عليها؛ فكيف يَسأله أناسٌ مطالبَ لم يكن قادرًا عليها حالَ حياته، يسألونه إيَّاها بعد وفاته كهداية القلوب وتفريج الكروب ومغفرة الذنوب.

وعن عَبدِ اللَّهِ بنِ مَسعُودٍ رضي الله عنه قال: دَخَلتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يُوعَكُ وَعكًا شَدِيدًا فَمَسِستُهُ بِيَدِي فَقُلتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعكًا شَدِيدًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَجَل إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنكُم» فَقُلتُ: ذَلِكَ أَنَّ لَكَ أَجرَينِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَجَل». أخرجه البخاري (٥٦٦٠)، ومسلم (٢٥٧١).

في هذا الحديث: أن رسول اللَّه ﷺ لا يدفع عن نفسه المرض فكيف يُتعلّق به.

وفيه: إثبات وقوع الابتلاء والأسقام بالأنبياء لينالوا جزيل الثواب ويكونوا أسوة لأتباعهم، وليتيقنوا بأنهم مخلوقون مربوبون؛ فلا يُغلى فيهم أو يُتعلق بهم من دون اللَّه.

* * *

١٤- بابُ إبطال التعلق بالملائكة

هذا باب عظيمٌ مقصودُه إبطال شبهة المشركين في تعلّقهم بالملائكة ببيان كمال افتقارهم إلى اللَّه وبيان ضعفهم وكمال هيبتهم لربهم -تبارك وتعالى-.

وقول اللَّه -تعالى-: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٩].

في هذه الآيات: ينزّه اللَّه نفسه عن فرية المشركين بأن له سبحانه ولدًا من الملائكة وأنهم بناته؛ بل هم عبادٌ له أكرمهم، وهم عنده في منازل عالية، وهم في حسن طاعتهم لربهم؛ لا يتقدمون بين يديه بقول، ولا يخالفون له أمرًا، أحاط بسابق أعمالهم ولاحقها، ولا يتقدمون بالشفاعة إلا لمن رضي اللَّه عنه، وهم من خشيته حذِرون أن يعصوه، ومن يدّع منهم -على سبيل الفرض- أنه إله مع اللَّه؛ فجزاؤه جهنم، وذلك جزاء كل ظالم مشرك؛ فذكرَ هذا الوعيد في الملائكة وخصهم بالذكر تنبيهًا على أن دعوى الإلهية لا تجوز لأحد من المخلوقين لا ملَك ولا غيره، وأنه لو قُدّر وقوع ذلك من ملَك من الملائكة لكان جزاؤه جهنم؛ فكيف من دونهم.

وفي هذا: كمال افتقار ملائكة اللَّه إلى اللَّه، وكمال هيبتهم وخشيتهم للَّه؛ فكيف يتعلق بهم دونه -تبارك وتعالى-، أو يعتقد أن لهم حقًا في شيء من الربوبية أو العبادة.

وقوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣].

وعَن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ يَبلُغُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا قَضَى اللَّهُ الأَمرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَت المَلَائِكَةُ بِأَجنِحَتِهَا خُضعَانًا لِقَولِهِ كَأَنَّهُ سِلسِلَةٌ عَلَى صَفوَانٍ- قَالَ عَلِيٌّ: وَقَالَ غَيرُهُ-أي: غير ابن عيينة-: صَفوَانٍ يَنفُذُهُم ذَلِكَ-، فَإِذَا ﴿فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]». **أخرجه البخاري (٧٤٨١).**

في الآية والحديث: أن ملائكة اللَّه العظامَ الخلقِ والقوّةِ الذين قال رسول اللَّه ﷺ في واحد منهم: «**أُذن لي أن أحدّث عن ملَك من ملائكة اللَّه من حملة العرش؛ إنّ ما بين شحمة أُذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام**». أخرجه أبوداود (٤٧٢٧)، وصححه الألباني، وقال في واحد منهم لما سألته عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنها عن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٣]: «**إنما هو جبريل؛ لَم أره على صورتِه التي خُلق عليها غير هاتين المرتين، رأيتُه منهبطًا من السماء سادًّا عِظَمُ خلقِه ما بين السماء إلى الأرض**». أخرجه مسلم (١٧٧) (٢٨٧)؛ إذا كانوا يصعقون إذا تكلّم اللَّه بالوحي؛ فإذا كانت هذه هيبتهم وخوفهم من اللَّه عند سماعهم لكلامه؛ فكيف يُدعَون من دونه تعالى، وإذا كان هذا حال الملائكة؛ فكيف بمن دونهم من الأموات والأوثان، وقوله: ﴿فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: زال الفزع عنها.

وفي الحديث: إثبات صفة الكلام والقول للَّه، وأنه يتكلم بصوت يُسمع، وقوله: «**كَأَنَّهُ سِلسِلَةٌ عَلَى صَفوَانٍ**»: أي: يسمعون الصوت كأنه سلسلة على صفاةٍ ملساء؛ تشبيه للسماع بالسماع لا المسموع بالمسموع، و«**الصفوان**»: الحجر الأملس.

١٥- بابٌ الشفاعـة ملكٌ للَّه فلا تُطلب من غيره، ولا تَحصل إلا بشرطين: الإذن والرضا

لما كان المشركون في قديم الدهر وحديثه إنما وقعوا في الشرك لتعلّقهم بالشفاعة كما تقدم؛ عقد المصنف -غفر اللَّه له- هذا الباب ليبين أن الشفاعة ملكٌ للَّه؛ وأن لا سبيل إليها يوم القيامة إلا بتحقق شروطها، وأن ما يتوّهمه المشركون سبيلًا لنيل الشفاعة هو طريقُ حرمانهم منها -نسأل اللَّه العافية-.

والشفاعة لغة: مصدر من الشفع ضد الوتر، وفي الشرع: طلب الشافع من اللَّه جلب منفعة للمشفوع له أو دفع ضر عنه.

ولا تحصل حتى يأذن اللَّه للشافع أن يشفع، ويكون المشفوع له ممن رضي اللَّه قوله وعمله؛ وهذان هما شرطا الشفاعة.

ومن أهل العلم من يزيد شرطًا ثالثًا؛ وهو رضا اللَّه عن الشافع، ويدل له قول اللَّه تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩]، وقد رضي اللَّهُ من الشفعاء يوم القيامة: الملائكةَ والنبيين والمؤمنين؛ ففي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول اللَّه ﷺ: «... **فيقول اللَّهُ عز وجل: شفعت الملائكةُ وشفع النبيون وشفع المؤمنون؛ ولم يبق إلا أرحمُ الراحمين**». أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣) (٣٠٢)، واللفظ له.

وقد ثبت له ﷺ أنواعٌ من الشفاعة يوم القيامة:

أولها: الشفاعة العظمى في فصل القضاء في أهل الموقف، وهي المقام المحمود.

ثانيها: الشفاعة في أهل الجنة أن يؤذن لهم بدخولها.

ثالثها: الشفاعة في تخفيف العذاب عن أبي طالب، ولا يُخفف عن كافرٍ عذابُه سوى أبي طالب، أما الإخراج من النار؛ فحرامٌ على جميع الكفار، وهذه الأنواع الثلاثة خاصة به ﷺ بالإجماع.

رابعها: الشفاعة في دخول أقوامٍ الجنةَ بلا حساب، وهذا النوع ظاهر السُنّة أنه خاص به ﷺ.

خامسها: الشفاعة في أقوام من أهل التوحيد استحقوا النار ألا يدخلوها.

سادسها: الشفاعة في أقوام من أهل التوحيد دخلوا النار بأن يخرجوا منها، وهذان النوعان ليسا خاصين به ﷺ.

وقول الله -تعالى-: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ﴾ [الزُّمَر: ٤٤].

سياق الآية وما قبلها: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ٤٣ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [الزمر: ٤٣-٤٤]؛ اللام للملك، وتقديم الجار والمجرور يفيد الاختصاص؛ أي: قل يا رسول الله: الشفاعة كلُّها ملكٌ لله وحده، فهي منه وإليه -تبارك وتعالى-.

قال في «مجموع الفتاوى» (١/ ١١٩-١٢٠):

«فتعيّن أن الأمر كلّه عائدٌ إلى تحقيق التوحيد، وأنه لا ينفع أحدٌ ولا يضر إلا بإذن الله، وأنه لا يجوز أن يُعبد أحدٌ غير الله، ولا يستعان به من دون الله، وأنه يوم القيامة يظهر لجميع الخلق أن الأمر كلّه لله، ويتبرأ كلُّ مدّعٍ من دعواه الباطلة؛ فلا يبقى من يدّعي لنفسه معه شريكًا في ربوبيته أو إلهيته، ولا من يدّعي ذلك لغيره، بخلاف الدنيا؛ فإنه وإن لم يكن ربٌّ ولا إله

إلا هو؛ فقد اتُّخِذ غيره ربًا وإلهًا، وادّعى ذلك مُدّعون».

وإذا كانت الشفاعة ملكًا للَّه وحده؛ فلا يحل أن تُطلب إلا منه؛ فيقول العبد: اللهم شفع فيّ نبيك ﷺ، اللهم إني أسألك شفاعة نبيك ﷺ؛ فلا تطلب من رسول اللَّه ﷺ بعد وفاته، ومن أبى إلا أن يطلبها منه اليوم؛ فقد أشرك؛ والمشرك لا حظ له في الشفاعة.

أما في الآخرة؛ فيسأله الخلقُ أن يشفع لهم عند ربه لفصل القضاء لأنه حيٌ حاضر قادر على ذلك؛ فانتفى ما يُتوهّم من البأس.

وقوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦].

في هذه الآية: يخبر تعالى أن كثيرًا من ملائكة السماء مع علو مقامهم لا تحصل منهم الشفاعة إلا بشرطين: إذن اللَّه للشافع أن يشفع، ورضاه عن المشفوع له، ولا يرضى إلا عن أهل التوحيد؛ تنبيهًا بذلك على أن من دونهم أولى أن لا تغني شفاعتهم إلا بذلك؛ فإن المشركين كانوا يقولون عن الأصنام: إنها تشفع لهم؛ قال تعالى في حق المشركين: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]، وقال: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨]، ولا شفيع أعظم من الخليل محمد ثم الخليل إبراهيم -صلى اللَّه عليهما وسلّم-؛ فأما رسول اللَّه ﷺ فاستأذن ربَّه تعالى أن يستغفر لأُمه؛ فلم يُؤذن له، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: زار النبيُّ ﷺ قبرَ أمّه؛ فبكى، وأبكى من حولَه؛ فقال: «**استأذنتُ ربي في أن أستغفر لها؛ فلم يُؤذن لي، واستأذنتُه في أن أزور قبرَها؛ فأَذِن لي؛ فزوروا القبورَ؛ فإنها تذكّر الموت**». أخرجه مسلم (٩٧٦)، ونهاه ربُّه عن الاستغفار لأبي طالب، وأما إبراهيم عليه السلام؛ فاستغفر لأبيه عن موعدة وعدها إياه ثم لما تبيّن له أنه عدو للَّه؛ تبرأ منه وامتنع عن

الاستغفار له، وأمرنا اللَّهُ بالتأسي بإبراهيم ومن اتبعه إلا في قوله لأبيه: لأستغفرنّ لك؛ فإن اللَّه لا يغفر أن يُشرَك به، لذلك لم ينتفع والدُ إبراهيم باستغفاره الأول؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**يَلقى إبراهيمُ أباه آزرَ يوم القيامة، وعلى وجه آزر قتَرة وغبرة؛ فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك: لا تعصني؛ فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك؛ فيقول إبراهيم: يارب إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون؛ فأيُ خزيٍ أخزى من أبي الأبعد؛ فيقول اللَّه تعالى: إني حرّمتُ الجنة على الكافرين، ثم يقال: يا إبراهيم ما تحت رجليك؟؛ فينظر؛ فإذا هو بذِيخٍ مُلتَطخٍ؛ فيُؤخذ بقوائمه؛ فيُلقى في النار**». أخرجه البخاري (٣٣٥٠)، والذيخ: ذكَرُ الضباع، وملتطخ؛ أي: برجيعه أو بالطين.

وقد نفى اللَّهُ الشفاعة مطلقًا في عدد من الآيات كقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ﴾ [البقرة ٤٨]، وقوله: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، والمراد بذلك: أنها لا تنفع المشركين؛ للآيات المتقدمة، أو يُراد به: نفي الشفاعة التي يظنها المشركون؛ أنّ لبعض الخلق عند اللَّه من المكانة ما يؤهّلهم للشفاعة عنده بغير إذنه والعياذ بالله؛ ولقد تضمنت الشفاعةُ التي يظنها المشركون الشركَ باللَّه وسوءَ الظن بالله؛ فتضمنت الشرك باللَّه من جهة أنها دعاء لغير اللَّه وسؤال ممن لا يملكها وفيها تعلقٌ بغير اللَّه وتوكل على غيره، وتضمنت سوءَ الظن باللَّه من جهة أن فيها تشبيها للَّه بملوك الدنيا؛ يشفعُ عندهم أبناؤهم والمقرَّبون منهم دون إذن منهم.

فعُلم بذلك أن كلَّ شفاعة تُرجى بسؤال غير اللَّه، أو دون إذن اللَّه، أو في غير أهل التوحيد؛ فهي منفيةٌ.

وقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

من: اسم استفهام، ومعناه: النفي المضمن معنى التحدي، وأسماء الاستفهام من صيغ العموم؛ أي: لا أحد يشفع عند اللَّه إلا بإذنه حتى رسول اللَّه ﷺ وهو أعظم الشفعاء وأكرمهم على اللَّه لا يبدأ بالشفاعة أولًا، بل يستأذن على ربه؛ فيؤذن له عليه؛ فإذا رآى ربَّه وقع له ساجدًا؛ فيدعه ما شاء اللَّه أن يدعه، ثم يقال له: يَا مُحَمَّدُ، ارفَع رَأسَكَ، قُل تُسمَع، سَل تُعطَه، اشفَع تُشَفَّع، فيحمد ربَّه بمحامد علّمه إيّاها، ثم يشفع، ويحدّ له حدًّا فيدخلهم الجنة؛ ففي حديث الشفاعة حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «. . **فَيَأتُونِي فَأَستَأذِنُ عَلَى رَبّي؛ فَيُؤذَنُ لِي، فَإِذَا أَنَا رَأَيتُهُ وَقَعتُ سَاجِدًا فَيَدَعُني مَا شَاءَ اللَّهُ؛ فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارفَع رَأسَكَ، قُل تُسمَع، سَل تُعطَه، اشفَع تُشَفَّع؛ فَأَرفَعُ رَأسِي فَأَحمَدُ رَبّي بِتَحمِيدٍ يُعَلِّمُنِيهِ رَبّي، ثُمَّ أَشفَعُ؛ فَيَحُدُّ لي حَدًّا؛ فَأُخرِجُهُم مِنَ النَّارِ وَأُدخِلُهُمُ الجَنَّةَ، ثُمَّ أَعُودُ؛ فَأَقَعُ سَاجِدًا فَيَدَعُني مَا شَاءَ اللَّهُ أَن يَدَعَني، ثُمَّ يُقَالُ: ارفَع رَأسَكَ يَا مُحَمَّدُ، قُل تُسمَع، سَل تُعطَه، اشفَع تُشَفَّع؛ فَأَرفَعُ رَأسِي؛ فَأَحمَدُ رَبّي بِتَحمِيدٍ يُعَلِّمُنِيهِ، ثُمَّ أَشفَعُ فَيَحُدُّ لي حَدًّا فَأُخرِجُهُم مِنَ النَّارِ وَأُدخِلُهُمُ الجَنَّةَ** . .». أخرجه البخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٣) (٣٢٢)؛ تكريمًا منه تعالى لنبيه ﷺ وإظهارًا لشرفه، وتفضلًا منه تعالى على أهل التوحيد؛ فليست الشفاعة مطلقة في حقه ﷺ، إنما أُعطي الشفاعةَ إعطاء مقيّدًا، واللَّهُ الذي أعطاه الشفاعة؛ لم يأذن أن تُطلب إلا من المعطِي لا المعطَى ﷺ ولا غيره.

وقوله: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ٢٢ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ﴾ [سبأ: ٢٢- ٢٣].

في هاتين الآيتين: يأمر اللَّه نبيه ﷺ أن يقول للمشركين: نادوا الذين زعمتموهم شركاء للَّه وعبدتموهم من دونه، واقصدوهم في حوائجكم؛ فلن يجيبوكم؛ إنهم لا يستقلّون بملك وزن ذرّة في السماوات ولا في الارض -والذرة: واحدة الذرّ، والذرّ: النمل الصغار-، ولا هم إذ لم يكونوا منفردين بملكه: يشاركون بملكه، وليس للَّه من هؤلاء الأنداد من معين على خلق شيء ولا على حفظه، فلم يبق لهم ما يتعلقون به إلا الشفاعة؛ فبيّن أنها لا تحصل إلا بإذنه، وهذا بخلاف ملوك الدنيا؛ فإن الشافع عندهم قد يكون له مُلك، وقد يكون شريكًا لهم في المُلك، وقد يكون لهم معاونًا على ملكهم، وهؤلاء يشفعون عند الملوك بغير إذن الملوك، والملِكُ يقبل شفاعتَهم لحاجته إليهم، أو لخوفه منهم أو مجازاة لهم على إحسانهم، وهكذا الخلق لا يقبل أحدٌ منهم شفاعةَ أحدٍ إلا لرغبة أو رهبة، واللَّه تعالى لا يرجو أحدًا ولا يخافه ولا يحتاج إلى أحد؛ بل هو الغني الحميد -تبارك وتعالى-.

وهما الآيتان اللتان قيل فيهما: إنهما تقطعان عروق شجرة الشرك من القلب.

وقد اشتملت الآية الثانية على شرط الإذن، و﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِن شِرْكٍ﴾، وقوله: ﴿مِّن ظَهِيرٍ﴾؛ للمبالغة في النفي.

وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

تقدمت هذه الآية في الباب السابق، وهي صريحة في ثبوت شرط الرضا؛ قال ابن عباس رضي الله عنهما: الذين ارتضى لهم شهادةَ أن لا إله إلا اللَّه. رواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٢٥٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لكلِ نبيٍّ دعوةٌ مستجابةٌ فتعجّلَ كلُّ نبيٍّ دعوتَه، وإنّي اختبأتُ دعوتي شفاعةً لأُمتي يومَ القيامةِ؛ فهي نائلةٌ إن شاءَ اللَّهُ مَن ماتَ من أمتي لا يشركُ باللَّهِ شيئًا». أخرجه مسلم (١٩٩).

هذا الحديث جامع لشرطي الشفاعة المثبتة: شرط الإذن في قوله: «**إن شاءَ اللَّهُ**»، وشرط الرضا في قوله: «**مَن ماتَ من أمتي لا يشركُ باللَّهِ شيئًا**».

وفيه: أمرُ الشفاعة إلى اللَّه، وإنما رسول اللَّه ﷺ شافعٌ داعٍ.

وفيه: كمال رأفته ﷺ بأمته وكمال حرصه على نجاتها في الدارين.

وفيه: بيان فضل نبينا ﷺ على سائر الأنبياء عليهم السلام حيث آثر أمتَه بدعوته المجابة على نفسه وأهل بيته، وجعلها دعاء لهم لا عليهم.

وفيه: ليس كل دعاء الأنبياء عليهم السلام في الدنيا مستجابًا؛ فمنه ما لا يستجيبه اللَّه لحكمة.

وعنه رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: مَن أَسعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَومَ القِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَقَد ظَنَنتُ يَا أَبَا هُرَيرَةَ أَن لَا يَسأَلُنِي عَن هَذَا الحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنكَ لِمَا رَأَيتُ مِن حِرصِكَ عَلَى الحَدِيثِ، أَسعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَومَ القِيَامَةِ مَن قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَالِصًا مِن قَلبِهِ أَو نَفسِهِ». أخرجه البخاري (٩٩).

في هذا الحديث: إثبات شرط الرضا؛ فلا ينتفع بشفاعته ﷺ إلا أهل التوحيد المؤمنون دون أهل الشرك؛ ولو كان المشرك محبًّا له ﷺ معظمًا له لم تُنقذه محبتُه له من النار، وهذا حال أبي طالب، وإنما يُنجي من النار: التوحيد والإيمان به ﷺ.

وفيه: شهادة رسول اللَّه ﷺ لأبي هريرة رضي الله عنه بالحرص في طلب العلم والسنة، وثناؤه عليه لسؤاله عن مسألة من مسائل النجاة والعقيدة، ونحوهُ: تهنئته ﷺ أُبيَّ بنَ كعب رضي الله عنه بالعلم بقوله: «**واللَّه، لِيَهنِك العلمُ أبا المنذر**»؛ لمّا سأله ﷺ عن أعظم آية في كتاب اللَّه؛ فهُدي إلى آية الكرسي. أخرجه مسلم (٨١٠)؛ فأين مَن يزهدُ في علم التوحيد وعلم عقيدة السلف مِن طلبة العلم مِن حقيقة العلم النافع؟!؛ إن بينهم وبينها لحجابًا مستورًا.

* * *

١٦- باب ما جاء في التحذير من الغلو في الصالحين، وأنه من ذرائع الشرك

هذا الباب واللذانِ يليانه في التحذير من ذرائع الشرك الأكبر، وفي هذا الباب: بيان ذريعة الغلو في الصالحين، وأنها سبب أول شرك حصل على الأرض.

وما زالت إلى يومنا فتنةَ المتلبسين بالشرك من المنتسبين إلى هذه الأمة لقرب الشرك بالصالحين من النفوس؛ فإن الشيطان يُظهره في قالب المحبة والإكرام وأداء حق الأولياء، وضابط الغلو: تعدّي ما أمر اللّه به، والغلو في الصالحين: مجاوزة الحد في محبتهم وتعظيمهم فوق ما شرعه اللّه.

قال في «مجموع الفتاوى» (١/ ٦٦-٦٨):

«والغلو في الأمة وقع في طائفتين: طائفة من ضلّال الشيعة الذين يعتقدون في الأنبياء والأئمة من أهل البيت الألوهيةَ، وطائفة من جهّال المتصوفة يعتقدون نحو ذلك في الأنبياء والصالحين؛ فمن توهّم في نبينا أو غيره من الأنبياء شيئًا من الألوهية والربوبية؛ فهو من جنس النصارى؛ وإنما حقوق الأنبياء: ما جاء به الكتاب والسنة عنهم، قال تعالى في خطابه لبني اسرائيل: ﴿وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [المائدة: ١٢]، والتعزير: النصر والتوقير والتأييد، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٨-٩]؛ فهذا في حق الرسول، ثم قال في حق اللّه تعالى: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾، ... وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟

سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥١-٥٢]؛ فجعل الطاعةَ للّه والرسول، وجعل الخشيةَ والتقوى للّه وحده كما قال: ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [النحل: ٥١]، وقال: ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ [البقرة: ٤١]، وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقول اللّه -تعالى-: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]: **قال ابن عباس رضي الله عنهما: أَسمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِن قَومِ نُوحٍ؛ فَلَمَّا هَلَكُوا أَوحَى الشَّيطَانُ إِلَى قَومِهِم: أَن انصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِم الَّتِي كَانُوا يَجلِسُونَ أَنصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسمَائِهِم؛ فَفَعَلُوا؛ فَلَم تُعبَد، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ العِلمُ؛ عُبِدَت. رواه البخاري(٤٩٢٠).**

هذا خبرٌ عن أول شركٍ حصلَ على الأرض وسببِه؛ وأنه الغلو في الصالحين، وتفصيل نبأهم كما بيّنه ابن عباس رضي الله عنهما: أن بني آدم عليه السلام ظلّوا على التوحيد عشرة قرون، وكان فيهم آخرَ تلك المدة خمسةٌ من أهل الصلاح هم: وَد وسُواع ويَغوث ويَعوق ونَسر؛ فماتوا في زمن متقارب؛ فأَسِفَ الناسُ عليهم؛ فزيّن الشيطانُ لهم -ولا يزال الناس وقتئذ على التوحيد- أن يجعلوا لكل رجل منهم صنمًا باسمه مصوّرًا على صورته حيث كانوا يجلسون ليتذكروا نشاطهم في الطاعة، ولم تُعبد تلك الصور، حتى إذا مات الجيلُ الذين صوروا تلك الصور، وتنسّخ العلم؛ أي: درست آثار العلم الذي فيه بيان الشرك والتوحيد أو العلم الذي نصبوا لأجله تلك الانصاب؛ عبدوها من دون اللّه.

وفي الآية: تواصيهم بعبادة آلهتهم وعبادةِ هؤلاء الخمسة من الصالحين، فأرسل اللّه نوحًا -عليه الصلاة والسلام- أولَ رسول أرسله اللّه؛ فدعاهم إلى توحيد اللّه في العبادة؛ فما آمن معه إلا قليل؛ ثم أمره اللّه

بصنع السفينة فصنعها، وحملَ فيها المؤمنين ومن كل شيءٍ زوجين اثنين، وأرسل اللّه على أهل الأرض الطوفان؛ فغرقوا إلا أصحاب السفينة.

وروي أن الطوفان ألقى تلك الأصنام في ساحل جُدّة، ووارتها الرمال مع كرّ السنين؛ ثم أوحى الشيطان إلى عمرو بن لُحَيّ الخزاعيّ -وهو الذي غيّر دين العرب عن الحنيفية ملة إبراهيم عليه السلام- بأن يخرجها ويفرّقها على العرب ودلّه على مكانها؛ فكان ذلك منه؛ فجدّد الشركَ بها -قاتله اللّه- إلى أن فتح اللّه على خاتم رسله محمد ﷺ مكة فكسّر تلك الأوثان؛ فانظر إلى آثار الشرك إذا علقت متى تزول؛ أصنامٌ عبدت من دون اللّه قبل بعثة أول الرسل، وما كسّرها إلا آخرُهم.

وفي هذه القصة من الفوائد: أن الشرك طارئ على البشرية.

وفيها: التحذير من مكر الشيطان وخطواته، وأن أكبر همه إيقاع أهل التوحيد في الشرك الأكبر.

وفيها: ذهابُ علم التوحيد في النّاس إيذانٌ بخراب دينهم، **وفي هذا**: عظيم بركة معلِّمي التوحيد ودعاتِه على الخلق.

وفيها: وجوب الخوف على الذرية من الشرك، وأن تقصير الآباء في حسم مادة الشرك ربما فتح على الأبناء باب الشرك الأكبر.

وفيها: عسر إزالة أعلام الشرك بالصالحين بعد وقوعه.

وفيها: التحذير من التصوير ونصب الصور، وأنه وسيلة للإشراك بصاحب الصورة.

وعنه ﷺ سَمِعَ عُمَرَ ﷺ يَقُولُ عَلَى المِنبَرِ: سَمِعتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «لَا تُطرُونِي كَمَا أَطرَت النَّصارَى ابنَ مَريَمَ؛ فَإِنَّمَا أَنَا عَبدُهُ؛ فَقُولُوا: عَبدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ». أخرجه البخاري (٣٤٤٥).

في هذا الحديث: نهيه ﷺ عن إطرائه أو الغلو فيه، والإطراء هو: المبالغة في المدح.

وقد أبى أهلُ الغلو إلا ارتكابَ نهيَه ﷺ وراموا تعظيمَه بما يؤذيه، وضاهوا النصارى في غلّوهم وشركهم، وأظهر لهم الشيطانُ هذا الشركَ في قالب التعظيم للنبي ﷺ ومحبته، وأظهر التوحيدَ والإخلاصَ في قالب التنقص، ولا حول ولا قوة إلا باللّه.

قال في «مجموع الفتاوى» (١/ ١٠٧):

«وإذا نفى الرسول عن نفسه أمرًا كان هو الصادق المصدوق في ذلك كما هو الصادق المصدوق في كلّ ما يخبر به من نفي وإثبات، وعلينا أن نصدّقه في كل ما أخبر به من نفي وإثبات، ومن ردّ خبره تعظيمًا له؛ أشبه النصارى الذين كذّبوا المسيح في إخباره عن نفسه بالعبودية تعظيمًا له، ويجوز لنا أن ننفي ما نفاه، وليس لأحد أن يقابل نفيه بنقيض ذلك ألبتة».

وفيه: أجلُّ وصفِ رسولِ اللّه ﷺ أنه عبد اللّه ورسوله، وبه تحقيق الوسطية في ذاته ﷺ.

وفي قوله: «**فَإِنَّمَا أَنَا عَبدُهُ؛ فَقُولُوا: عَبدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ**»: بيانٌ لما يجب اعتقاده فيه ﷺ، وتحديدٌ للرتبة التي لا يَحلّ تعدّيها في وصفه ﷺ، وردٌ بيّنٌ على مَن كذبت ظنونُه؛ فتوهّم من قوله: «**لَا تُطرُونِي كَمَا أَطرَت النَّصَارَى ابنَ مَريَمَ**» إباحةَ كل إطراءٍ في حقه سوى ما ادّعته النصارى في المسيح ﷺ؛

فإنّ قصرَه ﷺ لصفته على رتبة العبودية قاضٍ بمنع كلّ ما جاوزها إلى رتبة الإلهية أو الربوبية، وليست خصائص الإلهية والربوبية منحصرةً بزعم النصارى في عيسى عليه السلام أنه اللَّه أو ابن اللَّه أو ثالث ثلاثة كما لا ينحصر حدُّ الشرك في زعم النصارى فيه عليه السلام؛ فقد تقدّمهم في الزمان أممٌ من المشركين ولحقهم مشركو العرب؛ وما ادّعى أحد من تلك الأمم في آلهتهم -فيما نعلم- عينَ ما ادّعته النصارى في المسيح عليه السلام، وقد كفّرها اللَّه في كتابه وحكم بشركها وتوعدها بالخلود في النار، ولا ادّعى أحد في محمد ﷺ في حياته شيئًا من ذلك حتى يُتوهم من هذا الحديث اختصاص النهي بمشابهة النصارى في نفس مقالتهم.

* * *

١٧- باب ما جاء في التحذير من الافتتان بقبور الصالحين أو اتخاذها مساجد، وأنهما من ذرائع الشرك

هذا الباب معقود لبيان ذريعة أخرى من ذرائع الشرك هي: الافتتان بقبور الصالحين بتجاوز ما شرعه اللَّه في القبور مما يغري ضعافَ التوحيد بالشرك، **ومن ذلك**: الصلاة إليها أو عندها، وإدخالها إلى المساجد، وبناء المساجد عليها، ورفعها، وبناء القباب أو الشبابيك عليها، وتجصيصها - وهو بناؤها أو طلاؤها بالجص-، وزخرفتها، ووضع الستور عليها، وشد الرحال إليها، وإضاءة المقابر، واعتقاد أفضلية العبادة أو الدعاء عندها.

عَن عَائِشَةَ ﵂: أَنَّ أُمَّ حَبِيبَةَ وَأُمَّ سَلَمَةَ ﵄ ذَكَرَتَا كَنِيسَةً رَأَينَهَا بِالحَبَشَةِ -فِيهَا تَصَاوِيرُ- لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أُولَئِكِ إِذَا كَانَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فَمَاتَ؛ بَنَوا عَلَى قَبرِهِ مَسجِدًا وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلكَ الصُّوَرَ، أُولَئِكِ شِرَارُ الخَلقِ عِندَ اللَّهِ يَومَ القِيَامَةِ». أخرجه البخاري (٤٢٧)، ومسلم (٥٢٨).

في هذا الحديث: شدة تحذيره ﷺ من مشابهة أهل الكتاب في اتخاذ القبور مساجد، وتسميته إيّاهم شرار الخلق لذلك؛ فكيف بمن عبدَ الصالحين أنفسَهم، ومنه: صنيع الذين اتخذوا على أهل الكهف مسجدًا؛ فقد كانوا من النصارى الذين نهانا رسولُنا ﷺ أن نتشبَّه بهم.

ولاتخاذ القبور مساجد صور، هي:

١) قصد الصلاة إلى القبور أو في فنائها؛ وإن لم يُبنَ مسجد.

٢) السجود على القبر مباشرة، وهذه أشنعها.

٣) بناء المسجد عليها.

٤) إدخالها إلى المسجد، أو دفن الميت في المسجد.

فهذه وإن كان القاصد إلى الاتخاذ إنما يقصد عبادةَ اللَّه وحده؛ فإنه ذريعةٌ قريبة لقصد المسجد لأجل صاحب القبر ودعائه والإشراك به مع اللَّه.

وفي الحديث: أن اتخاذ الصور في مواضع العبادة من عادات النصارى.

وعن عائشة وابن عباس رضي الله عنهما قالا: لَمَّا نُزِلَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ طَفِقَ يَطرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجهِهِ؛ فَإِذَا اغتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا عَن وَجهِهِ؛ فَقَالَ وَهُوَ كَذَلِكَ: «لَعنَةُ اللَّهِ عَلَى اليَهُودِ وَالنَّصَارَى؛ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنبِيَائِهِم مَسَاجِدَ»؛ يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا. أخرجه البخاري (٤٣٥ و٤٣٦)، ومسلم (٥٣١).

في هذا الحديث: خبر من رسول اللَّه ﷺ أو دعاء باللعنة على اليهود والنصارى لاتخاذهم قبور أنبيائهم مساجد، وكل موضع قُصدت الصلاة فيه؛ فقد اتُخذ مسجدًا.

ولم يكن هذا اللعن منه في سياق الموت لأهل الكتاب على ذلك إلا على سبيل التحذير الشديد لئلا تفعل أمتُه عند قبره ﷺ ما فعل أولئك عند قبور أنبيائهم، وموجب اللعن: اتخاذهم قبورَهم مساجد؛ فكيف لو عبدوهم أنفسَهم أو سجدوا لهم أنفسِهم، وهذه اللعنةُ ليست مختصة بهم بل تعمُّ كلَّ من فعل فَعلتهم.

وقولهما: «لَمَّا نُزِلَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ»؛ أي: نزل به الموت واشتد به المرض.

وفي حديث عائشة وحدها عند الشيخين: قالت: «فلولا ذلك أُبرِزَ قبرُه غير أنه خُشي أن يُتخذَ مسجدًا». أخرجه البخاري (١٣٩٠)، ومسلم

(٥٢٩)؛ أي: دفن الصحابةُ رسولَ اللَّه ﷺ حيث قُبض في حجرة عائشة ﵄ مجانبة للنهي الذي فهموه منه حينما غلّظ الإنكار على اليهود والنصارى وهو في مرض الموت لاتخاذهم قبور أنبيائهم مساجد؛ فكان ذلك منهم ﵃ سدًا لذريعة الغلو في قبره أو اتخاذه مسجدًا مع مرّ السنين، وثَم علة أخرى هي: أن الأنبياء ﵈ يدفنون حيث يموتون؛ فدُفن ﷺ حيث قبض في حجرة عائشة، وحجرتها مستقلة عن المسجد بجدرانها، ثم وُسّع المسجد في عهد الفاروق عمر ثم في عهد ذي النورين عثمان، ولم يتعرضا لحجرتها ولا لشيء من حجرات أمهات المؤمنين وظلّ الحال على ذلك مدةَ خلافة الخلفاء من الصحابة: الأربعة الراشدين، وخير ملوك المسلمين معاوية ﵃ أجمعين وما بعده حتى عهد الوليد بن عبدالملك -الذي تولى سنة ست وثمانين بعد وفاة العبادلة من صغار الصحابة: ابن عمر وابن عباس وابن الزبير وابن عمرو ﵃، ووفاة جميع من كان في المدينة من الصحابة؛ فإن آخر من مات بها جابرُ بن عبد اللَّه ﵄ سنة ثمان وسبعين-؛ أمرَ الوليد سنة إحدى وتسعين بتوسعة مسجد النبي ﷺ من جميع جهاته؛ فهُدمت حجرات أمهات المؤمنين، وأُدخلت حجرة عائشة في المسجد بعد أن أعاد عمر بن عبدالعزيز ﵀ والي الوليد على المدينة بناء جدارها ثم بنى عليها جدارًا لا يُدخَل منه إليها؛ له خمسة أضلاع تلتقي أضلاعه الخلفية على هيئة مثلّث حتى لا يتمكن أحدٌ من استقبال قبره وحتى لا تكون على هيئة الكعبة ثم أحاطها أحد السلاطين من المماليك بشبك حديدي؛ فغدت ثلاثة جدارن، وقد أنكر من أدرك إدخال الحجرة في التوسعة من التابعين، وكانت سنّته الراتبة ﷺ في جميع من يُتوفى من المسلمين أن يدفنه في المقابر لا في المساجد، ولم يكن يُعرف قط في عهد الصحابة والتابعين مسجدٌ على قبر أو فيه قبر، **ومن ذلك**: قبره ﷺ وقبرا صاحبيه؛ فإن مسجده لم يُبن على قبر، ولم

يُحفر لقبره في مسجده، بل دُفن في حجرة عائشة، ومسجده قبل قبره، وهذه حالة لا نظير لها؛ فإن دخول قبره حصل بقصد التوسعة، ولم تكن حجرة عائشة مقصودةً بالإدخال بل دخلت كما دخلت حجرات أمهات المؤمنين بعد هدمها.

وكلُّ مسجد فيه قبر سوى مسجد رسول اللَّه؛ فإما أن المسجد بُني لأجل القبر، أو جُعل القبر في ذلك المكان لأجل المسجد، ثم إن مسجد رسول اللَّه ﷺ فضله باق ومشروعية الصلاة فيه باقية إلى قيام الساعة بالإجماع.

ولو قيل: إن قبور النبي ﷺ وصاحبيه ليست في المسجد النبوي؛ لكان له حظ من النظر؛ فإنها في حجرة عائشة، وهي بيت مستقل مفصولٌ بأكثر من جدار ليست هي مسجدًا ولا لها حكم المسجد بتضعيف الصلاة فيه ألفًا؛ فالقبور الثلاثة والحالة تلك محاطةٌ بالمسجد وليست فيه.

وفي معنى حديث الباب: حديث جندَب بن عبداللَّه رضي الله عنه قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ قبل أن يموت بخمس، وهو يقول: «**إني أبرأُ إلى اللَّه أن يكون لي منكم خليل؛ فإنّ اللَّهَ تعالى قد اتخذني خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا، ولو كنتُ متخذًا من أمتي خليلًا لاتخذتُ أبا بكر خليلًا، ألا وإنّ مَن كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائِهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبورَ مساجدَ، إني أنهاكم عن ذلك**». أخرجه مسلم (٥٣٢)، وفيه: النهي عن اتخاذ القبور مساجد من ثلاثة وجوه: ذمّ من كان قبلنا بفعلهم ذلك، ونهيه هذه الأمة عن اتخاذها بقوله: «**ألا فلا تتخذوا..**»، ثم تأكيده للنهي بقوله: «**فإني أنهاكم عن ذلك**».

وفيهما: ملازمته ﷺ للدعوة إلى التوحيد إلى آخر لحظات من حياته

المباركة مع ما هو فيه من شدة السكرات صلوات ربي وسلامه عليه .

وعَن أَبِي هُرَيرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تجعَلُوا بُيُوتَكُم قُبُورًا، وَلَا تَجعَلُوا قَبرِي عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّ صَلَاتَكُم تَبلُغُنِي حَيثُ كُنتُم». أخرجه أبوداود(٢٠٤٢)، وصححه الألباني.

في هذا الحديث: أمرُه ﷺ إيَّانا بالصلاة عليه بعد نهيه عن جعل قبره عيدًا ، ومعنى جعل قبره عيدًا : أن يُعتاد في زمن مخصوص كتكرير زيارته كلما دخل الزائر مسجده ﷺ أو بعد كل صلاة مفروضة ، يؤكد ذلك : قولُه ﷺ في آخره : «**فَإِنَّ صَلَاتَكُم تَبلُغُنِي حَيثُ كُنتُم**» ؛ فلا تشرع إدامة زيارة قبره لأن صلاتنا عليه حيث كنّا تبلغه ﷺ .

وفي هذا : أن لا مزية للقرب من قبره ﷺ ، وأن فضيلة الصلاة والسلام عليه حاصلة مع البعد عن قبره كما هي حاصلة مع القرب منه ، وأن كثرة الصلاة والسلام عليه في أيّ موضع من أرض اللَّه كان المصلي عليه فيه ؛ خيرٌ من اعتياد زيارة قبره لساكن مدينته ﷺ أو زائرِها .

ومن اتخاذ قبره ﷺ عيدًا : اعتياد قصد قبره لدعاء اللَّه عنده .

وفي الحديث أيضًا : نهيُه ﷺ عن جعل البيوت قبورًا .

وفيه : أن المتبادر إلى أذهان الصحابة ﵃ أن القبور ليست محلًّا للصلاة والعبادة ؛ ولذلك حثهم على صلاة النافلة في بيوتهم بقوله : «**لَا تَجعَلُوا بُيُوتَكُم قُبُورًا**» ، وقد أشار الإمام البخاري ﵀ إلى هذا المعنى لما بوب على حديث ابن عمر ﵄ المتفق عليه عن النبي ﷺ : «**اجعلوا في بيوتكم من صلاتكم، ولا تتخذوها قبورًا**» بقوله (**١/ ٨٩**) : باب كراهية الصلاة في المقابر .

والعلة عن ذلك النهي عن الصلاة في المقابر : سد ذريعة الشرك .

وعَن أَبِي الهَيَّاجِ الأَسَدِيِّ قَالَ: قَالَ لِي عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه: أَلَا أَبعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ أَن لَا تَدَعَ تِمثَالًا إِلَّا طَمَستَهُ، وَلَا قَبرًا مُشرِفًا إِلَّا سَوَّيتَهُ». أخرجه مسلم (٩٦٩).

في هذا الحديث: أمره ﷺ بتسوية كل قبر مشرف، وإرساله عليًّا رضي الله عنه لأجل هذا المقصد.

وفيه: إنكاره ﷺ لذرائع الشرك بالقول والفعل، ومنها: رفع القبور، وائتساء خلفائه الراشدين رضي الله عنهم به في ذلك؛ علي رضي الله عنه كما في حديث الباب، وكذا عثمان رضي للّه عنه؛ فعن عَبد اللَّهِ بن شُرَحبِيلَ بن حَسَنَةَ قَالَ: «رَأَيتُ عُثمَانَ بنَ عَفَّانَ رضي الله عنه يَأمُرُ بِتَسوِيَةِ القُبُورِ، فَمَرَّ بِقَبرٍ فَقَالُوا: هَذَا قَبرُ أُمِّ عَمرٍو بِنتِ عُثمَانَ، فَأَمَرَ بِهِ؛ فَسُوِّيَ». رواه ابن شبة في «تاريخ المدينة» (٣/ ١٠١٨- ١٠١٩).

وفيه: الأمر بطمس جميع التماثيل، وفي رواية لمسلم: «ولا صورةً إلا طمستَها».

وذلك كان دأبه ﷺ يكسّر الأوثان بقوله وفعله، ويطهّرُ بيوتَ اللَّه منها؛ فعن عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه قال: دخل النبي ﷺ مكة يوم الفتح، وحول البيت ستون وثلاثمائة نُصُبٍ؛ فجعل يَطعنها بعود في يده، ويقول: ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ﴾ [الإسراء: ٨١]، ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩]». أخرجه البخاري(٤٢٨٧)، ومسلم (١٧٨١).

و أبى ﷺ أن يدخل الكعبة في فتح مكة حتى أُخرج ما فيها من التماثيل؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن رسول اللَّه ﷺ لما قدِم أبى أن يدخل البيت وفيه الآلهة؛ فأمرَ بها فأُخرجت؛ فأخرجوا صورة إبراهيم وإسماعيل في أيديهما الأزلام؛ فقال رسول اللَّه ﷺ: **«قاتلهم اللَّهُ، أما واللَّهِ لقد علموا أنّهما لم**

يستقسما بها قطُّ»؛ فدخل البيت؛ فكبّر في نواحيه ولم يصلِّ فيه. أخرجه البخاري (١٦٠١).

وفي الحديث: جمع بين الأمر بمحو الشرك بطمس التماثيل، وبين الأمر بإزالة ما يغري بالشرك بتسوية القبور.

وعَن أَبِي مَرثَدٍ الغَنَوِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا تُصَلُّوا إِلَى القُبُورِ، وَلَا تَجلِسُوا عَلَيهَا». أخرجه مسلم (٩٧٢).

في هذا الحديث: نهيه ﷺ عن الصلاة ذات الركوع والسجود إلى القبور، وهو الشاهد من الحديث للترجمة، وعن ثابت البناني عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: رآني عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ وأنا أصلي عند قبر فجعل يقول: «القبرَ»؛ قال: فحسبتُه يقول: القمر، قال: فجعلتُ أرفع رأسي إلى السماء؛ فأنظر؛ فقال: «إنما أقول: القبرَ لا تصلِّ إليه»؛ قال ثابت: فكان أنس بن مالك يأخذ بيدي إذا أراد أن يصلي فيتنحى عن القبور». علّق البخاريُّ أصله في «صحيحه» (كتاب الصلاة - باب هل تُنبش قبور مشركي الجاهلية ويُتخذ مكانها مساجد-١/ ٨٨)، ووصله عبدالرزاق في «مصنَّفه» (١٥٨١)، وصحح إسناده الألباني؛ فمع أن أنسًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لم يرَ القبر حينما صلى ولا قصده؛ لم يمهله الفاروق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حتى يفرغ من صلاته.

أما صلاة الجنازة على الميت بعد دفنه لمن فاتته صلاة الجنازة عليه مع المسلمين؛ فهي مشروعة بفعله ﷺ.

وإن وجدت مقبرةٌ في قبلة مسجدٍ؛ حرُمت الصلاة فيه ما لم تُفصَل المقبرة بجدار غير جدار المسجد ويكن كلٌ من المقبرة والمسجد مبنيًا على أرضه، وليس المسجد ثَمَّ لأجل تعظيم القبور، ويزيد بعضُ أهل العلم اشتراطَ مسافة فاصلة بين الجدارين، وهو الأحوط.

وكل مسجد بُني لتعظيم قبر؛ فإن الصلاة فيه لا تجوز ولا تصح، وأيما قبرٍ طرأ على مسجد؛ وجب نبشه وإخراجه من المسجد؛ فإن كان القبر أولًا؛ وجب هدم المسجد.

وفيه: النهي عن الجلوس على القبور رعاية لحرمة المسلم.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَن يُجَصَّصَ القَبرُ، وَأَن يُقعَدَ عَلَيهِ، وَأَن يُبنَى عَلَيهِ. أخرجه مسلم (٩٧٠).

في هذا الحديث: نهيه ﷺ عن تجصيص القبر وعن البناء عليه، وهو الشاهد من الحديث للترجمة، زاد أبوداود (٣٢٢٦)، والنسائي (٢٠٢٧): «أو يزاد عليه»؛ فكل زيادة على القبر غير ترابه؛ يُنهى عنها، وآية تلك الزيادة: أن يعلو القبر عن شبر.

وفيه: النهي عن القعود على القبر رعاية لحرمة المسلم.

وعَن أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه يَبلُغُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ: «لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: مَسجِدِي هَذَا، وَمَسجِدِ الحَرَامِ، وَمَسجِدِ الأَقصَى». أخرجه البخاري (١١٨٩)، ومسلم (١٣٩٧).

هذا نفيٌ معناه النهي عن شد الرحال إلا إلى المساجد الثلاثة، وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه بالنهي: «**لا تَشدّوا...**». أخرجه البخاري(١٨٦٤)، ومسلم (١٣٣٨) (٤١٥)، واللفظ له.

وشدّ الرحال هو: التعبد بالسفر إلى بقعة مقصودة؛ فلا يشرع إلا إلى المساجد الثلاثة حتى مسجد قباء الذي ندبنا لزيارته وصلاة ركعتين فيه؛ إنما يُقصد من داخل مدينة رسول الله ﷺ، ولا يُتعبد بالسفر إليه من خارجها؛ فكيف بشدّ الرحال إلى المقابر؟!، وقد سئل الإمام مالك بن أنس رحمه الله

ورضي عنه عن رجل نذر أن يأتي قبر النبي ﷺ؛ فقال: إن كان أراد القبر؛ فلا يأته، وإن أراد المسجد؛ فليأته. نقله في «مجموع الفتاوى» (١/ ٣٠٤).

وقد فهم الصحابةُ عمومَ النهي عن شد الرحال إلى جميع البقاع: المساجدِ وغير المساجدِ سوى المساجد الثلاثة، بل غير المساجد أولى بالمنع؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه في خبر طويل: «... فلقيت بَصرة بن أبي بَصرة الغِفاري رضي الله عنه؛ قال: من أين أقبلتَ؟؛ فقلت: من الطور؛ فقال: أما لو أَدركتُك قبل أن تخرج إليه ما خرجتَ إليه، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا تُعمَل المطِيُّ إلا إلى ثلاثة مساجد: إلى المسجد الحرام، وإلى مسجدي، وإلى مسجد إيلياء أو بيت المقدس**»؛ يَشكّ. أخرجه النسائي (١٤٣٠)، وأحمد (٢٣٨٤٨)، والسياق له، وصححه الألباني.

أما السفر لطلب العلم والدعوة؛ فإن العلم والدعوة هما المقصودان به لا البقعة، وكذا السفر للتجارة أو العلاج ونحوهما؛ فإنه لطلب مصلحة دنيوية؛ فلا يشملهما النهي.

وأما زيارة القبور من داخل البلد؛ فمشروعةٌ مادام الباعثُ عليها:

١) الاعتبار بحال الموتى، وتذكّر الموت والآخرة.

٢) الدعاء للموتى والاستغفار لهم وسؤال العافية لهم، والسلام عليهم.

فهذه زيارة مستحبة وصاحبها مأجور، وما سواها؛ فزيارة ممنوعة، وهي على نوعين:

١- ما كان من وسائل الشرك الأكبر كزيارتها بقصد التبرك بها لا على جهة الشرك الأكبر، أو اتخاذها مساجد، أو التوسل بها التوسل البدعي.

٢- ما كان شركًا أكبر؛ وهو زيارتها بقصد التقرب إلى أهلها أو الاستغاثة

بهم، ونحو ذلك.

فالزيارة المشروعة إحسان إلى النفس وإلى الميت؛ ينتفع بها الزائر والمزور، والزيارة الممنوعة إساءة إلى النفس وإلى الميت؛ تضرُّ الزائرَ ولا تنفع المزورَ بل تحرمه بركةَ ما شرعه اللّٰه من الدعاء له والترحم عليه.

واعلم أن قبره صلوات ربي وسلامه عليه داخلٌ في عموم استحباب زيارة القبور الزيارة الشرعية دون اعتياد ودون سفر إليه، لكن لم يثبت حديثٌ خاص قطّ في فضل زيارة قبره ﷺ؛ فجميع الأحاديث المروية في ذلك ضعيفةٌ بل موضوعةٌ، وإنما نُدبنا على وجه خاص إلى الصلاة والسلام عليه في كل وقت، وكلما ذُكر اسمه، وإلى الإكثار منهما يوم الجمعة وليلتها، وإلى سؤال الوسيلة والفضيلة والمقام المحمود له ﷺ عقيب الأذان.

* * *

١٨- باب النهي عن عبادة اللَّه حيثُ يُشرَك بالله

هذا الباب معقودٌ لبيان ذريعة من ذرائع الشرك، هي عبادة اللَّه حيثُ يُشرَك باللَّه، فهي مزلة قدم للموحد، وإغراء بالشرك لغيره ممن يحسن به الظنَّ، وتكثيرٌ لسواد المشركين، ومشابهة للمشركين في صورة العمل، وإحياء للمحل الشركي الذي حقه الهجر بل المحو للقادر على التغيير بيده.

عن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه قال: نَذَرَ رَجُلٌ عَلَى عَهدِ رَسُولِ اللّهِ ﷺ أن يَنحَرَ إبِلًا ببُوَانَةَ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَال: إنِّي نَذرتُ أن أَنحرَ إبِلًا ببُوَانَةَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «هَل كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِن أَوثَانِ الجَاهِلِيَّةِ يُعبَدُ؟» قَالُوا: لَا، قَالَ: «هَل كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِن أَعيَادِهِم؟»، قَالُوا: لَا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَوفِ بِنَذرِكَ، فَإنَّهُ لَا وَفَاءَ لِنَذرٍ فِي مَعصِيَةِ اللَّهِ، وَلَا فِيمَا لَا يَملِكُ ابنُ آدَمَ». أخرجه أبوداود (٣٣١٣)، وصححه الألباني.

في هذا الحديث: تحريم قصد محالّ الشرك لعبادة اللَّه، وأن نذره من نذر المعصية؛ ولو بعد زوال الشرك منها، وما كان من نذر المعصية؛ فلا يجوز الوفاء به.

وفيه: وجوب اجتناب مشابهة المشركين في أعيادهم ومحالّها؛ وإن كان لا يقصد ذلك، و«بُوانة»: موضع.

* * *

١٩- باب إخباره ﷺ بأن بعض أُمته سيقع في الشرك الأكبر بعده

هذا الباب معقودٌ في هذا الموضع للرد على من ينفي من المتأخرين وقوعَ الشرك ممن يقول: لا إله إلا اللَّه، وهذه الدعوى مخالفة للنصوص الصريحة التي اشتمل هذا الباب على بعضها، وللنصوص المصرِّحة بأن المرء قد يكون مسلمًا ثم ينقض إسلامَه بناقض، كقول اللَّه تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥- ٦٦]، وقوله: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٤]، وللأصل المتقدم بيانه وهو أن الانقياد من شروط لا إله إلا اللَّه، وصرف عبادة من العبادات إلى غير اللَّه إخلالٌ بشرط الانقياد.

ولا ريب أن إخباره ﷺ بأن بعض أُمته سيقع في الشرك الأكبر بعده مما يملأ قلب الموحد خوفًا من الشرك وحذرًا منه، ومما يزيد الدعاةَ إلى التوحيد ثباتًا وبذلًا في هذا السبيل الذي اصطفاهم اللَّه له.

أما قوله ﷺ: «**إن الشيطان قد أَيِسَ أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم**». أخرجه مسلم (٢٨١٢)؛ فهذا ظنُّه في نفسه، وليس الشيطان معصومًا في ظنه، وأل في «**المصلون**» إما أن تكون للجنس؛ أي: أيس أن يعبده جميعُ المصلين في جزيرة العرب، أو للعهد؛ فيكون المراد بهم الصحابة خاصة؛ فلا ينفي رجوعَ بعض المسلمين إلى الشرك من سواهم.

وأما قوله ﷺ في آخر خطبة خطبها على منبره بعد صلاته على أهل أُحد كالمودع للأحياء والأموات: «.. **وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَخَافُ عَلَيكُم أَن تُشرِكُوا بَعدِي، وَلَكِن أَخَافُ عَلَيكُم أَن تَنَافَسُوا فِيهَا**». أخرجه البخاري (١٣٤٤)،

ومسلم (٢٢٩٦)؛ فالمخاطَب به أصحابُ النبي ﷺ خاصة كما هو ظاهر من سياق الحديث.

عَن ثوبَانَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَلحَقَ قَبَائِلُ مِن أُمَّتِي بِالمُشرِكِينَ، وَحَتَّى يَعبُدُوا الأَوثَانَ، وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي ثَلَاثُونَ كَذَّابُونَ كُلُّهُم يَزعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لَا نَبِيَّ بَعدِي». أخرجه أبوداود (٤٢٥٢)، والترمذي (٢٢١٩)، وابن ماجه (٣٩٥٢)، واللفظ للترمذي، وصححه الألباني.

في هذا الحديث: خبر من رسول اللَّه ﷺ بأن الساعة لن تقوم حتى يهاجر قبائلُ من هذه الأمة إلى المشركين يساكنونهم راضين بدينهم متولّين لهم، وحتى يعبدوا الأوثانَ.

وفيه: إخبار بظهور ثلاثين دجالين ذوي شوكة من مدّعي النبوة بعده؛ فإنه لا نبي بعده إلى قيام الساعة وشريعته لا تُنسخ أبد الآبدين، ولا تزال قائمةً منصورة وأعلامها منشورة بكلاءة من اللَّه وحفظ.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَضطَرِبَ أَلَيَاتُ نِسَاءِ دَوسٍ عَلَى ذِي الخَلَصَةِ، وَذُو الخَلَصَةِ طَاغِيَةُ دَوسٍ الَّتِي كَانُوا يَعبُدُونَ فِي الجَاهِلِيَّةِ». أخرجه البخاري (٧١١٦)، ومسلم (٢٩٠٦).

في هذا الحديث: يخبر ﷺ بأن الساعة لن تقوم حتى يضرب بعضُ أَلَيات نساء دوس بعضًا على ذي الخَلَصة، والأَلية: العجيزة؛ أي: أنهن يتزاحمن عند الطواف حوله بحيث تضرب عجيزةُ بعضهن الأخرى أو أنهن يركبن الدواب من البلدان إليه، والمراد: أنهم يكفرون والعياذ باللَّه ويرجعون إلى عبادة ذي الخَلَصة؛ وهو بيت صنم في الجاهلية ببلاد دوس كان يدعى

كعبة اليمانِيَة حتى قال رسول اللَّه ﷺ لجرير بن عبداللَّه البجلي رضي الله عنه: «ألا تُريحني من ذي الخَلَصة»؛ فانطلق في خمسين ومائة فارس؛ فكسّرها وحرّقها؛ فدعا لهم رسول اللَّه ﷺ بالبركة خمس مرات كما رواه البخاري (٣٠٢٠)، ومسلم (٢٤٧٦) (١٣٧)، وفي هذا الخبر: أن إزالة معالم الشرك راحة لرسول اللَّه ﷺ.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ الَّذِينَ مِن قَبلِكُم شِبرًا بِشِبرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَو دَخَلُوا فِي جُحرِ ضَبٍّ لَاتَّبَعتُمُوهُم»، قُلنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ آليَهُودَ وَالنَّصَارَى؟، قَالَ: «فَمَن؟». أخرجه البخاري (٧٣٢٠)، ومسلم (٢٦٦٩).

هذا خبر من الصادق المصدوق ﷺ يتضمن النهي الأكيد والتحذير الشديد من مشابهة أهل الكتاب، وشرُّ ما اتبع به بعضُ هذه الأمة سَنَنَ الأمم السابقة: الإشراك باللَّه، وهذا وجه مناسبة الحديث للترجمة، وقوله: «فَمَن؟»: استفهام تقرير؛ أي: فمن القوم إلا هم.

وقد أكّد رسولُ اللَّه ﷺ هذا الخبر باللام ونون التوكيد، وبالمثل الذي ضربه المتضمن لشدة متابعتهم.

وفيه: عَلَم من أعلام نبوته ﷺ؛ فيا لغربة الإسلام العتيق في هذا الزمان؛ ترى الذين في قلوبهم مرضٌ من المسلمين يُسارعون في اليهود والنصارى تشبهًا بهم ومداهنةً لهم؛ وتطّلبًا لرضاهم بكل سبيل، وتمكينًا لهم من ديار المسلمين ومواضع عزتهم، وتخفّفًا من حقيقة الإسلام وأصوله وأحكامه القطعية؛ يقولون: نخشى أن تصيبنا دائرة أو نوصم بالإرهاب؛ فليرتقبوا ﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ۝١٥ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝١٦ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ

﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٥-١٩].

فالزم يا عبدالله شريعة الله القائل لنبيه ﷺ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٨-١٩]، والقائل: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف: ٤٣].

* * *

٢٠- بابٌ الذبح لغير اللَّه شرك أكبر

هذا شروعٌ بأبواب الشرك الأكبر الظاهر :

وأولها : الشرك في عبادة الذبح .

ويثبت أن شيئًا ما عبادةٌ بواحد من وجوه ؛ منها : أمرُ اللَّه أو رسوله ﷺ بها ، أو ثناؤه على فاعلها ، أو إخباره بمحبة اللَّه لها ، أو ترتّب الثواب على فعلها أو العقاب على تركها ، وغير ذلك .

وكلُّ ما دلّت النصوصُ على أنه عبادة ؛ فصرفه لغير اللَّه شرك ، ولو لم يأت التصريح في النصوص بأن صرف ذلك الفرد من أفراد العبادة لغير اللَّه شرك .

والذبح عبادة جليلة قرنها اللَّه بالصلاة في غير موضع ، إن تُقرِّب فيه إلى غير اللَّه أو عُظِّم فيه سواه ؛ فهو ذبح شركي أيًا كان المذبوح أو المذبوح له ، ولا يكون الشرك في الذبح إلا أكبر .

ويرجع الشرك في عبادة الذبح إلى أحد ثلاث صور :

١) شرك في العبادة فقط بأن يذبح لغير اللَّه باسم اللَّه .

٢) شرك في الاستعانة فقط بأن يذبح باسم غير اللَّه للَّه ، وهذا نادر .

٣) شرك فيهما ، وهو أقبحها بأن يذبح لغير اللَّه باسم غير اللَّه .

وإن تُقرِّب فيه إلى اللَّه وحده ولم يُعظَّم فيه سواه ولم يذكر عليه إلا اسمه ؛ كان توحيدًا ، ثم يكون حكمه الشرعي التكليفي بحسب نوعه ؛ فقد يقع نذرًا أو هديًا أو عقيقة أو أضحية أو شكرًا للَّه على السلامة مثلًا أو وليمة عرس ، أو في مناسبة بدعية كالموالد ، وقد يصاحبه الإسراف أو ما يقدح في الإخلاص ، أو غير ذلك .

فإن لم يقصد به التقرّبَ إلى اللّه ولا إلى غيره بل أراد به اللحمَ للأكل أو الضيافة أو البيع؛ فهو من الذبح المباح في الأصل بشرط أن يذكر عليه اسم اللّه وحده.

وقول اللّه -تعالى-: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢].

في هذه الآية: يأمر اللّه نبيه ﷺ بمخالفة أهل الشرك بالصلاة له وحده والنحر له وحده دون الأوثان شكرًا له على ما أعطاه من الكرامة؛ ففيها: أن النحر عبادة للأمر به، **وفيها:** عظيم منزلة النحر لقرنه بالصلاة أعظم العبادات الظاهرة؛ قال في «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٥٣٢): «وأجلّ العبادات المالية: النحر، وأجلّ العبادات البدينة: الصلاة، وما يجتمع للعبد في الصلاة لا يجتمع في غيرها من سائر العبادات كما عرفه أرباب القلوب الحيّة وأصحاب الهمم العالية، وما يجتمع له في نحره من إيثار اللّه وحسن الظن به وقوة اليقين والوثوق بما في يد اللّه أمر عجيب؛ إذا قارن ذلك الإيمانُ والإخلاص، وقد امتثل النبي ﷺ أمر ربه؛ فكان كثير الصلاة لربه، كثير النحر حتى نحر بيده في حجة الوداع ثلاثًا وستين بدنة، وكان ينحر في الأعياد وغيرها».

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

في هذه الآية: يأمر اللّه نبيه ﷺ أن يقول للمشركين الذين يعبدون غير اللّه ويذبحون لغيره وعلى غير اسمه: إن صلاتي وذبحي، وحياتي ووفاتي كله محضُ حقِّ اللّه رب العالمين دون ما أشركتم به: اللام للاستحقاق ثم أكده بقوله: لَا شَرِيكَ لَهُ، وبذلك أمرني ربي، ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾: أي: من هذه الأمة؛ فإن جميع الأنبياء عليهم السلام قبله كانت دعوتُهم إلى الإسلام وأصلِه عبادة

اللَّه وحده لا شريك له .

فدلت هذه الآية على : وجوب إفراد اللَّه بعبادة الصلاة والذبح وجميع العبادات ؛ فكما أن الصلاة لا تكون إلا إليه والصوم إلا إليه والحج إلا إليه ؛ فكذلك الذبح والدعاء والنذر والتوكل .

وفيها كسابقتها : أن الذبح عبادة للأمر به .

وفيها : عظيم منزلة الذبح لقرنه بالصلاة أعظم العبادات الظاهرة .

وفيها : أن التوحيد حقٌّ على العبد حياتَه كلَّها حتى يموت .

وعن علي رضي الله عنه قال: سَمِعتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَعَنَ اللَّهُ مَن ذَبَحَ لِغَيرِ اللَّهِ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَن آوَى مُحدِثًا، وَلَعَنَ اللَّهُ مَن لَعَنَ وَالِدَيهِ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَن غَيَّرَ المَنَارَ». أخرجه مسلم (٥٢٤٠).

في هذا الحديث : لعنُ الذابح لغير اللَّه ؛ وهو إما خبر من رسول اللَّه ﷺ أودعاء ، والخبر أبلغ في التحقّق ، واللعن من اللَّه هو الطرد والإبعاد من رحمته ، ولا يُتوعد باللعن إلا على فعل كبيرة ، وقد تكون كفرًا أكبر كالذبح لغير اللَّه .

وفي قوله : **«لَعَنَ اللَّهُ مَن ذَبَحَ لِغَيرِ اللَّهِ»** : ثلاثة عمومات : **«مَن»** : موصولية بمعنى : الذي ؛ تفيد العموم ؛ أي : كل ذابح ، وحذفُ المفعول في قوله : **«مَن ذَبَحَ»** يفيد العموم ؛ أي : أيًّا كان المذبوح ، وقوله : **«لغير اللَّه»** : أي : تقربًا لغيره وتعظيمًا لغيره ؛ دخل فيه كلُّ من سوى اللَّه ؛ أي : أيًّا كان المذبوح له من دون اللَّه .

و**«المحدِث»** : المبتدع أو الجاني ، وإيواؤه : حمايته ونصرته ، و**«المَنَار»** : حدود الأرض التي تكون بين الجيران .

* * *

٢١- بابٌ النذر لغير اللَّه شرك أكبر

النذر هو: إيجاب العبد على نفسه شيئًا ليس واجبًا عليه بأصل الشرع تعظيمًا للمنذور له.

وهو نوعان:

الأول: النذر لغير اللَّه كالنذر لأهل القبور أو الجن؛ فهذا لا ينعقد ولا تجب فيه الكفارة، بل هو شرك أكبر يجب التوبة منه.

قال في «منهاج السنة النبوية» (٢/ ٤٤٠):

«فمن نذر لغير اللَّه؛ فهو مشركٌ كمن صام لغير اللَّه وسجد لغير اللَّه». انتهى، ولا يشابه النذرُ لغير اللَّه الحلفَ بغير اللَّه إلا في حرمة الوفاء به وانتفاء الكفارة.

الثاني: النذر للَّه وحده، وله أقسام محل تفصيلها كتب الفقه، أذكرُ منها:

١) نذر الطاعة (نذر التبرّر)؛ فهذا نوعان:

١- النذر المطلق؛ كأن يقول ابتداء: للَّه عليّ شاة أذبحها؛ فهذا يجب الوفاء به؛ فإن عجز عنه؛ فعليه كفارة يمين.

٢- النذر المعلّق (نذر المجازاة)؛ كأن يقول: إن شفى اللَّه مريضي؛ فلله عليّ ذبح شاة؛ فهذا يجب الوفاء إن حصل شرطه.

وهذا النوع مكروه الابتداء واجب الوفاء، وعليه يحمل حديث ابن عمر رضي الله عنهما: قال: نهى رسولُ اللَّه ﷺ عن النّذر، وقال: «**إنه لا يردُّ شيئًا، ولكنه يُستخرَج به من البخيل**». أخرجه البخاري(٦٦٩٣)، ومسلم(١٦٣٩)، واللفظ للبخاري، ووجه الكراهة: أن الناذر لما علّق فعل القربة على حصول

غرضه؛ بانَ أنه لم يتمحض منه نيةُ التقرب إلى اللَّه، بل سلك مسلك المعاوضة، وهذا شأنُ البخيل؛ فإنه لا يُخرج من ماله شيئًا إلا بعوض عاجل يزيد على ما أخرج غالبًا، ويوهمُ صنيعُه هذا بأن اللَّه إنما يُنيله غرضَه لأجل نذره الذي نذر، وهذا اعتقاد محرّم وسوء ظن باللَّه.

وكلا النوعين عبادة؛ لأن النذر تعظيمٌ للمنذور له، حتى النذر المعلق فإن من وفّى به؛ إنما يرجو التقرب إلى اللَّه، وما فيه من كراهة راجعة إلى التعليق لا إلى أصل النذر، وإذا ثبت أن نذر الطاعة عبادة مطلقًا ولا يحتمل إلا التعبد؛ كان صرفه لغير اللَّه شرك أكبر، ومنه: قول القبوري: إن حصل كذا فللوليّ فلان عليّ أن أذبح كذا وكذا.

٢) **نذر المعصية**؛ كأن ينذر للَّه أن يقطع رحمه لا لموجب شرعي؛ فهذا نذر محرم، والوفاء به محرم، وعليه الكفارة في قول طائفة من أهل العلم.

وقول اللَّه -تعالى-: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٧٠].

أي: وأيّ صدقة تصدقتم وأيّ نذر نذرتم؛ فإن اللَّه يعلمه علمَ جزاءٍ ورضا، وهذا سياق مدح؛ وقُرِن فيه النذرُ بالإنفاق في سبيل اللَّه؛ فدل على أن النذر عبادة؛ من صرفه لغير اللَّه؛ فقد أشرك شركًا أكبر

وهذه الآية محمولة على النذر المطلق، أما النذر المعلّق؛ فهو مكروه كما تقدم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «رَأَيتُ عَمرَو بنَ عَامِرِ بنِ لُحَيٍّ الخُزَاعِيَّ يَجُرُّ قُصبَهُ فِي النَّارِ، وَكَانَ أَوَّلَ مَن سَيَّبَ السَّوَائِبَ». أخرجه البخاري (٣٥٢١)، ومسلم (٢٨٥٦) (٥١).

في هذا الحديث: شدة العذاب المعدّ لعمرو بن لُحَي الخزاعي في النار، ذلك بأنه أول من سنّ شرك النذر في العرب، و«**قُصبَهُ**»؛ أي: أمعاءه، و«**السَّوَائِب**»: أنعام كانوا ينذرونها للأصنام، ويحرّمون على أنفسهم الانتفاع بها.

* * *

٢٢- بابٌ دعاء غيرِ اللَّه فيما لا يقدر عليه إلا اللَّه شركٌ أكبر

دعاء اللَّه نوعان:

١) **دعاء عبادة**: وهو مطلق التعبد للَّه؛ فيدخل فيه جميع العبادات القلبية والقولية والبدنية إذا فعلها العبد تقربًا إلى اللَّه وابتغاء ثوابه والنجاة من عقابه؛ فهي دعاء بلسان الحال.

٢) **دعاء مسألة**: وهو طلب ما ينفع الداعي من جلب نفع أو كشف ضر أو دفعه.

ودعاء العبادة يستلزم دعاء المسألة، ودعاء المسألة يتضمن دعاء العبادة.

ودعاء المسألة هو المراد في الترجمة.

وحيث أُطلق الدعاء في النصوص؛ شمل النوعين إلا لقرينة تخصه بأحدهما كآية سورة غافر أول آية في هذا الباب؛ فهي في دعاء المسألة لما فيها من الوعد باستجابة الدعاء.

ودعاء المسألة عبادة تحتمل التعبد وتحتمل غير التعبد، والدليل: قول اللَّه تعالى: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ . . .﴾ [آل عمران: ٦١]، وقوله ﷺ في حديث حق المسلم: «وإذا دعاكَ فأجبه». أخرجه مسلم (٢١٦٢) (٥).

وضابط دعاء المسألة الشركي: دعاء غير اللَّه فيما لا يقدر عليه إلا اللَّه، ويرجع إلى ثلاثة صور:

١) دعاء الأموات مطلقًا؛ فيما يقدرون عليه حالَ حياتهم، وفيما لا يقدرون عليه، عند قبورهم وعند غير قبورهم.

٢) دعاء الأحياء الغائبين مطلقًا؛ فيما يقدرون عليه لو كانوا حاضرين،

وفيما لا يقدرون عليه، ومنه: دعاء الجن والملائكة.

٣) دعاء الأحياء الحاضرين فيما لا يقدر عليه إلا اللَّه، أو دعاؤهم بكمال الخضوع وكمال المحبة.

وكلها شركٌ أكبر، بل قال بعض العلماء: «لا نعلم نوعًا من أنواع الكفر والردة وردَ فيه من النصوص مثل: ما ورد في دعاء غير اللَّه بالنهي عنه والتحذير من فعله والوعيد عليه».

وهذا حكمها القاطع، ولو قُدّر أن لها تأثيرًا؛ فقد يَنالُ بعضُ المستغيثين بغير اللَّه حاجاتِهم عقبه؛ وليس كل ما كان سببًا كونيًّا؛ يكون سائغًا في الشريعة؛ فإن الدخول في دين النصارى أو الرافضة قد يكون سببًا لنيل مال أو رئاسة، وهو محرم، وكثير من الفواحش والظلم قد يكون سببًا لنيل مطالب، وهو محرم، والسحر والكهانة قد تكون سببًا لنيل مطالب، وكلاهما محرم؛ فكذلك الشرك بدعاء غير اللَّه من الأموات والشياطين قد يكون سببًا لحصول بعض المطالب وهو محرم، وذلك أن من الناس الذين يستغيثون بغائب ميت مَن تتمثل له الشياطين، وربما كانت على صورة ذلك الغائب، وربما كلّمته، وربما قضت له أحيانًا بعض حوائجه كما تفعل شياطين الأصنام بعبّادها؛ فيظن أنه الشيخ نفسه أو أنه ملَك تَصوَّر على صورته وأن هذا من كراماته؛ فيزداد به شركًا وفيه مغالاة، والعياذ باللَّه.

ولا فرق بين طلب الحاجات من الأموات وبين سؤالهم أن يطلبوا ذلك من اللَّه.

قال في «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٧٨٠):

«فإذا كان النبيُّ ﷺ قد نهى عن الصلاة التي تتضمن الدعاء للَّه وحده

خالصًا : عند القبور ؛ لئلا يفضي ذلك إلى نوع من الشرك بهم ؛ فكيف إذا وجد ما هو عين الشرك من الرغبة إليهم سواء طلب منهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات أو طلبَ منهم أن يطلبوا ذلك من اللَّه» . انتهى .

وقد كان أصحابُ النبي ﷺ يُبتلَون بأنواع البلاء بعد وفاته وتنزل بهم النوازل والفتن الكبار ، ويقفون تلك المواقف العظام في مقابلة المشركين في القتال ويشتد بهم البأس ؛ ولم يكن أحدٌ منهم يأتي قبرَه ﷺ يشكو إليه أو يستفتيه أو يسأله أن يستغفر له أو يسأله أن يدعو له أو لأمته أو أن يستسقي لهم بلهَ أن يسأله ذاته الحاجاتِ أو تفريج الكربات أو سدّ الفاقات أو مغفرة الزلات ، وهذا ترك راتبٌ منهم مع وجود المقتضي وزوال المانع ؛ فهو سنّة لازمة ، وخلافه ابتداع في دين اللَّه ومخالفة لسبيل المؤمنين ، وبهذا التقرير يتبين لك مُتَنزّلُ قولِ اللَّه تعالى : ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء : ٦٤-٦٥] ؛ ذلك أنها إنما سيقت وما بعدها فيمن رضي من المنافقين بحكم الطاغوت دون حكم رسول اللَّه ﷺ ؛ فظلم نفسه بذلك أعظم الظلم ثم لم يجئ إلى رسول اللَّه ﷺ ليستغفر له ، وقد اشترط اللَّه لقبول توبتهم ثلاثةَ أمور : أن يجيئوا إلى رسول اللَّه ﷺ ، ويستغفروا اللَّه ، ويستغفر لهم ﷺ ، ومثل هذا لم يأت في غير هذا الذنب .

أما الصحابة في حياة رسول اللَّه ﷺ ؛ فكانوا إن صدر من أحدهم ما يقتضي التوبة ربما جاء إليه ؛ فقال : يا رسول اللَّه فعلتُ كذا وكذا فاستغفر لي ، وأما بعد وفاته ؛ فلم يكن أحد منهم قطُّ يفعلُه ، ولو كان هذا واجبًا عامًا على كل أحد وفي كل ذنب وفي كل زمان لما تركوه ألبته ولأرشدوا إليه ،

ولوقعوا -وحاشاهم- في عين ما نهاهم عنه نبيهم ﷺ حينما قال لهم: «لا تجعلوا قبري عيدًا».

وقول الله -تعالى-: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

في هذه الآية: أمرُ الله عبادَه بدعائه وتكفّله لهم بالإجابة فضلًا منه تعالى، وقد دلّت على أن الدعاء عبادة من أربعة وجوه: الأمر بها، ووعد أهلها بالاستجابة، وتسميتها عبادة ثم توعده لمن استكبر عنها بالنار؛ فاشتملت هذه الآية على عدد من الوجوه التي تثبت بها العبادة، وقوله: ﴿دَاخِرِينَ﴾؛ أي: أذلّاء صاغرين.

وإذا ثبت أنه عبادة؛ فصرفه لغير الله شرك.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥-٦].

هذا استفهام معناه النفي؛ أي: لا أحد أضلّ ممن يدعو من دون الله آلهة لا تستجيب دعاءه أبدًا، وهي غافلة عن دعائه لا تسمع ولا تنطق ولا تبطش ولا تعقل، وإذا حُشر الناس يوم القيامة لموقف الحساب أحوجَ ما يكونون إليهم كانت لهم أعداء وعليهم ضدًا، تنكر أمرَها إيّاهم بعبادتها أو علمها بذلك.

وفي هذا: توبيخ من الله لهؤلاء المشركين الداعين غير الله، وبيان لعظيم خزيهم يوم القيامة.

وفي الآية: تسميةُ الله دعاءهم لغيره عبادةً لغيره.

وبنحو هذا المعنى: قول الله: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ

وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢]؛ فمن دعا غيرَ اللَّه في كشف السوء عنه؛ فقد اتخذه إلهًا مع اللَّه.

والآية في دعاء الأموات من الصالحين من دون اللَّه كما هو ظاهر من سياقها؛ ففيها أبلغ الرد على من خصّ الدعاء الشركي بدعاء الأصنام.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ١٣ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ١٤ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٣-١٥].

الذين: اسم موصول يفيد العموم، ففي هذه الآية: إخبار من اللَّه عن صفة كل مدعوّ سواه؛ لا يستقلُّ بملك ﴿قِطۡمِيرٍ﴾ -وهو القشرة على نواة التمر- فما فوقه، لا يسمعُ داعيه مطلقَ السمع، ولو فرض أنه سمِع فلن يستجيب له، ويوم القيامة يتبرأ منه ومن شركه، ولا يخبرك يا رسول اللَّه عن آلهة المشركين وما يكون من أمرها وأمر عبدَتها يوم القيامة ﴿مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾ يعني: نفسه -تبارك وتعالى-، ثم قال اللَّه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾؛ فإيّاه فاعبدوا، ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ الذي لا يستحق العبادة سواه.

فاشتملت الآيات على نفي الملك الاستقلالي التام، وسماع الدعاء، والقدرة على الاستجابة عن آلهة المشركين؛ فبطلت دعوتهم من كل وجه.

وفي قوله: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ﴾: تسمية دعاء غير اللَّه شركًا؛ وهذا مطابق لمقصود الترجمة، وكذا سمى اللَّه دعاءَ غيره كفرًا، ودعاةَ غيره كفّارًا في قوله: ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

والآية في دعاء الأموات من الصالحين من دون اللَّه كما هو ظاهر من سياقها؛ ففيها أبلغ الرد على من خص الدعاء الشركي بدعاء الأصنام.

وقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

هذا خبر منه تعالى في سورة الجن عن قول مسلمي الجن: إنه كان رجال من الإنس يستعيذون استعاذة تعبدية برجال من الجن؛ قال مجاهد فيما رواه الطبري (٢٣/ ٣٢٣): «كانوا يقولون إذا هبطوا واديًا: نعوذ بعظماء هذا الوادي»؛ ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾؛ أي: زاد الجنُّ الإنسَ إخافة وذعرًا، وزادهم الإنسُ جرأة وطغيانًا.

وفي هذا: أن من اعتمد على غير اللَّه عامله اللَّه بنقيض قصده.

وقد أكرم اللَّهُ عبادَه بما فيه إجارةٌ من الشرور وعصمةٌ من الشرك بما علّمنا رسولُه ﷺ عند نزول المنزل بقوله: «**من نزل منزلًا ثم قال: أعوذُ بكلمات اللَّه التامَّات مِن شرِّ ما خلق؛ لم يضرَّه شيءٌ حتى يرتحلَ من منزله ذلك**». أخرجه مسلم (٢٧٠٨) (٥٤).

والاستعاذة: طلب العوذ وهو الالتجاء من الشرور؛ فهي دعاء خاص، ومثلها: الاستغاثة وهي طلب الغوث وهو إزالة الشدة، والاستعانة وهي طلب العون.

والاستعاذة عبادة تحتمل التعبد وتحتمل غير التعبد، والدليل: قوله ﷺ: «**ستكون فتنٌ؛ القاعد فيها خيرٌ من القائم، والقائم فيها خيرٌ من الماشي، والماشي فيها خيرٌ من الساعي، من تشرَّف لها تستشرفه، ومن وجد فيها ملجأً فليَعُذ به**». أخرجه البخاري (٣٦٠١)، ومسلم (٢٨٨٦)، وفي حديث أبي مسعود رضي الله عنه أنه كان يضرب غلامَه؛ فجعل يقول: «**أعوذ باللَّه**، قال: فجعل يضربه؛ فقال: أعوذ برسول اللَّه؛ فتركه؛ فقال

رسول اللَّه ﷺ: «**واللَّهِ، لَلَّهُ أَقدرُ عليك منك عليه**»، قال: فأعتقه. أخرجه مسلم (١٦٥٩) (٣٦)، وفي حديث جابر رضي الله عنهما أن امرأة من بني مخزوم سرقت؛ فأُتي بها النبيُّ ﷺ؛ فعاذت بأمِّ سلمة زوج النبيّ ﷺ. الحديث. أخرجه مسلم (١٦٨٩).

وهذه استعاذةٌ بالمخلوق الحي الحاضر فيما يقدر عليه ودون اعتماد القلب عليه؛ فلا بأس بها ما لم يقع عطف المخلوق فيها على الخالق بالواو نحو: أعوذ باللَّه وبك؛ فهي شرك أصغر.

وعَنِ النُّعمَانِ بنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الدُّعَاءَ هُوَ العِبَادَةُ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾. أخرجه أبوداود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩)، وابن ماجه (٣٨٢٨)، وصححه الألباني.

في هذا الحديث: خبر منه ﷺ؛ فيه بيان عظيم منزلة الدعاء، وأنه عبادة بل هو العبادة؛ أي: أفضل أنواعها، وهذا أُسلوب حصر، ولا غرو أن يكون كذلك؛ وهو يجمع عبوديةَ القلب وعبودية اللسان وعبودية الجوارح.

وإذا كان عبادة؛ فصرفه لغير اللَّه شرك، بل إن الشرك في عبادة الدعاء يضم مع الشرك في الألوهية شركَ الربوبية وشركَ الأسماء والصفات؛ فما من داع يدعو غير اللَّه دعاء تعبديًا إلا ويعتقد في مدعوّه أن له سلطانًا خفيًا في هذا الكون وتصرفًا خارقًا لعادة البشر به يقضي الحاجات ويجيب السؤالات، وهذا المعنى من خصائص اللَّه في الربوبية، وأن له سمعًا عامًّا وعلمًا محيطًا إذا لم يكن حاضرًا، وهذا المعنى من خصائص اللَّه في الصفات.

وعن عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «مَن مَاتَ وَهوَ يَدعُو مِن دُونِ اللَّهِ نِدًّا؛ دَخَلَ النَّارَ». أخرجه البخاري (٤٤٧٩).

في هذا الحديث: توعّد كلِّ من لقي اللَّهَ وهو يدعو أحدًا من دونه أي أحد

بدخول النار؛ دخولَ الكفار الدخولَ الأبدي الذي لا يعقبه إلا ازدياد العذاب، سواء في ذلك دعاء العبادة ودعاء المسألة، و«مَن»: شرطية تفيد العموم، وقوله: «نِدًّا»: نكرة في سياق الشرط؛ فتعم.

* * *

٢٣- بابُ ما جاء في التوسل المشروع

بعد أن أورد المصنف باب الدعاء؛ ناسبَ أن يذكر عقِبه التوسلَ المشروع وغير المشروع.

التوسل: ما يُتوصّل به إلى المطلوب.

ثم اعلم أن التوسل إلى اللَّه توقيفيٌّ، والذي شرعه اللَّه منه أنواع:

١) التوسل إلى اللَّه باسم من أسمائه أو صفة من صفاته، وهو أجلّ هذه الأنواع.

٢) التوسل إلى اللَّه بالإيمان والعمل الصالح، ومنه: التوسل باتباع النبي ﷺ وبمحبته وموالاته.

٣) التوسل إلى اللَّه بدعاء الرجل الصالح في حياته.

وثمّة نوع رابع يذكره بعض أهل العلم؛ هو توسل الداعي إلى اللَّه ببيان حاله، ومنه قول كليم اللَّه موسى -عليه الصلاة والسلام-: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤].

وما سوى هذه الأنواع: توسل ممنوع، وهو نوعان:

١) **ما هو بدعيٌّ من وسائل الشرك**؛ كالتوسل بذوات الأنبياء والصالحين أو جاههم أو حقهم أو حرمتهم؛ فهذا بدعةٌ بإجماع السلف، وما يُحكى فيه من خلاف؛ فإنه حادث.

قال في «مجموع الفتاوى» (٢٧/ ٨٣):

«أن يقول: اللهم بجاه فلان عندك، أو ببركة فلان أو بحرمة فلان عندك: افعل بي كذا وكذا؛ فهذا يفعله كثير من الناس، لكن لم ينقل عن أحد من

الصحابة والتابعين وسلف الأمة أنهم كانوا يدعون بمثل هذا الدعاء، ولم يبلغني عن أحد من العلماء في ذلك ما أَحكيه؛ إلا ما رأيت في فتاوى الفقيه أبي محمد بن عبد السلام؛ فإنه أفتى أنه لا يجوز لأحد أن يفعل ذلك إلا للنبي ﷺ؛ إن صح الحديث في النبي ﷺ».

ولا يستريب موحدٌ في عظيم جاه أنبياء اللَّه عليهم السلام عند اللَّه؛ فقد قال اللَّه في موسى عليه السلام: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩]، وقال في عيسى عليه السلام: ﴿وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ﴾ [آل عمران: ٤٥]، ومحمد ﷺ أعظم جاهًا منهما ومن سائر الأنبياء عليهم السلام أجمعين، ولكن اللَّه لم يجعل جاههم أو ذواتهم سببًا في حصول المطلوب أو إجابة الدعاء، فمن توسل بجاههم أو بذواتهم؛ فقد توسل بما لا أثر له في قبول الدعاء، وليس هو مما يتعلق بالداعي أو المدعو؛ فكيف يتوسل به.

ولا سبيل إلى الانتفاع بجاهه ﷺ وعظيم قدره عند ربه إلا بأحد طريقين:

الأول: أن يتوسل المتوسل بما أمر اللَّه به من الإيمان به ﷺ ومحبته وطاعته وموالاته والصلاة عليه والسلام ونحو ذلك، وهذه هي الوسيلة التي افترضها على كل أحد باطنًا وظاهرًا في حياة رسول اللَّه ﷺ وبعد وفاته، في مشهده وفي مغيبه، وهي سبيل نيل كرامة اللَّه ورحمته والنجاة من عذابه

والثاني: أن يدعو له رسول اللَّه ﷺ في حياته.

٢) **ما هو شركيٌّ الشرك الأكبر**؛ كالتوسل إلى اللَّه بدعاء الأموات والغائبين أو التقرب إلى غيره؛ وهو شرك الجاهلية.

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

في هذه الآية: أمرُ اللَّه عباده بدعائه بأسمائه الحسنى، ودعاء اللَّه

بأسمائه الحسنى نوعان:

١) **دعاء عبادة وهو**: التعبد للَّه بمقتضى هذه الأسماء فتتوب إلى اللَّه لأنه التواب، وتذكره بلسانك لأنه السميع، ونحو ذلك.

٢) **دعاء مسألة وهو**: أن تقدم بين يدي سؤالك أو تختم به اسمًا من أسماء اللَّه يناسب مطلوبك كأن تقول: يا تواب تب عليّ، احفظني في ديني ودنياي يا حفيظ.

وهذا الثاني هو النوع الأول من أنواع التوسل المشروع؛ وهو التوسل إلى اللَّه باسم من أسمائه أو صفة من صفاته، والآيات الدالة على هذا النوع كثيرة؛ منها: دعاء سليمان -عليه الصلاة والسلام-: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

وقول اللَّه -تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٣٥].

في هذه الآية: يأمر اللَّه بتقواه والجهاد في سبيله وابتغاء الوسيلة إليه، والوسيلة التي أمر اللَّه أن تبتغى إليه هي: ما يُتقرّب به إليه من الواجبات والمستحبات من الإيمان والعمل الصالح والكف عن المعاصي.

وهذه هي الوسيلة المشروعة بل الواجبة.

وثَمّ وسيلة ممنوعة يظن بعضُ الخلق أنها توصلهم إلى اللَّه وما يرضيه، وهي تبعدهم عنه وعن مراضيه، بل سبيل خسران الدنيا والآخرة: هي التوسل إلى اللَّه بالتقرب إلى الأموات بأنواع القُرَب والاستغاثة بهم وإنزال الحوائج بهم تأسيًا بحال أهل الجاهلية: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾، وإن اللَّه لم يجعل بينه وبين خلقه وسائط إلا في تبليغ وحيه وأمره؛

فهذه الوسائط إنما تُطاع وتُتّبع ويُقتدى بها كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء: ٦٤].

وتقديم الجار والمجرور في قوله: ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ يفيد الاختصاص؛ أي: إلى الله لا إلى غيره.

ففي هذه الآية: الأمر بثاني أنواع التوسل المشروع؛ وهو التوسل بالعمل الصالح.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٦].

في هذه الآية: يخبر تعالى عن توسل عباده بإيمانهم في سؤالهم لربهم مغفرةَ ذنوبهم والوقاية من عذاب النار؛ ففيها: التوسل بالإيمان، وهو رأس الأعمال الصالحة.

ومن التوسل بالعمل الصالح أيضًا: قول الله عن خليله إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

ومن السنة: حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في قصة الثلاثة الذين انطبقت عليهم صخرة، فسدّت عليهم الغار، فتوسلَ كل واحد منهم بخالص عمله أحدهم ببره العظيم للوالديه، والآخر بعفته العظيمة عن الفاحشة، والثالث بأدائه العظيم للأمانة. أخرجه البخاري (٢٢٧٢)، ومسلم (٢٧٤٣).

وعَن جَابِرِ بنِ عَبدِ اللَّهِ رضي الله عنهما قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا الاستِخَارَةَ فِي الأُمُورِ كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِن القُرآنِ يَقُولُ: «إِذَا هَمَّ أَحَدُكُم بِالأَمرِ فَليَركَع رَكعَتَينِ مِن غَيرِ الفَرِيضَةِ، ثُمَّ لِيَقُل: اللَّهُمَّ إِنِّي أَستَخِيرُكَ بِعِلمِكَ وَأَستَقدِرُكَ

بِقُدرَتِكَ وَأَسأَلُكَ مِن فَضلِكَ العَظِيمِ فَإِنَّكَ تَقدِرُ وَلَا أَقدِرُ وَتَعلَمُ وَلَا أَعلَمُ وَأَنتَ عَلَّامُ الغُيُوبِ...» -الحديث-. أخرجه البخاري (١١٦٢).

هذا حديث صلاة الاستخارة ودعائها، وهو حديث عظيم، **وفيه**: التوسل بصفتي العلم والقدرة وأن اللَّه علّام الغيوب؛ فهو من التوسل بصفات اللَّه، **وفيه**: بيان كمال اضطرار العبد إلى ربه في جميع شأنه.

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بَينَمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَخطُبُ يَومَ الجُمُعَةِ إِذ جَاءَ رَجُلٌ؛ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَحَطَ المَطَرُ؛ فَادعُ اللَّهَ أَن يَسقِيَنَا؛ فَدَعَا؛ فَمُطِرنَا. أخرجه البخاري (١٠١٥)، ومسلم (٨٩٧)، واللفظ للبخاري.

في هذا الحديث: توسل الصحابة باستسقاء رسول اللَّه ﷺ في حياته، وهذا شاهدٌ للتوسل بدعاء الرجل الصالح في حياته، أما بعد وفاته ﷺ؛ فلم يتوسلوا لا بدعائه ولا بذاته.

وبنحوه: ما رواه أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان إذا قحَطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب؛ فقال: «اللهم إنّا كنا نتوسل إليك بنبينا؛ فتسقِينا، وإنّا نتوسل إليك بعمّ نبينا؛ فاسقنا»، قال: فيُسقَون. أخرجه البخاري (١٠١٠)، وهذا توسل بدعاء الحي كما أن توسلهم باستسقاء النبي ﷺ من التوسل بالدعاء كما دل عليه حديث الباب حديث أنس؛ فتوسلوا بالعباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما كانوا يتوسلون بالنبي ﷺ، وكان توسلُهم به توسلًا بدعائه، وهذا تعذّر بموته، ولو كان توسلُ عمرَ بالعباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا توسلًا بالذات لما عدل عمرُ برسول اللَّه ﷺ أحدًا؛ فهو خير من العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يؤكد ذلك: ما رواه سُليم بنُ عامر الخبائري أن السماء قَحطت؛ فخرج معاويةُ بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وأهلُ دمشق يستسقون؛ فلما قعد معاوية على

المنبر؛ قال: أين يزيد بن الأسود الجُرَشي؛ فناداه الناس؛ فأقبل يتخطى الناس؛ فأمره معاويةُ؛ فصعد المنبر؛ فقعد عند رجليه؛ فقال معاوية: «اللهم إنا نستشفع إليك اليوم بخيرنا وأفضلنا، اللهم إنّا نستشفع إليك بيزيد بن الأسود، يا يزيد، ارفع يديك إلى اللَّه»؛ فرفع يزيد يديه ورفع الناس أيديهم؛ فما كان أوشكَ أن ثارت سحابة في الغرب كأنها تُرس، وهبّت لها ريح؛ فسُقينا حتى كاد الناسُ أن لا يبلغوا منازلهَم. رواه يعقوب بن سفيان الفسوي في «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٣٨٠-٣٨١)، وصحح إسناده ابن حجر في «الإصابة» (١١/ ٤٦٥)، والألباني؛ ففي هذا الأثر: التصريح بأن معنى قولهم: اللهم إنا نستشفع إليك بفلان أو نتوسل إليك بفلان؛ أي: بدعاء فلان؛ بدليل قول معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليزيد بن الأسود رَحِمَهُ اللَّهُ: «يا يزيد، ارفع يديك إلى اللَّه..».

ومن هذه البابة: حديث عثمان بن حُنيف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلًا ضرير البصر أتى النبي ﷺ؛ فقال: ادع اللَّه أن يعافيني، قال: «**إن شئتَ دعوتُ، وإن شئتَ صبرتَ؛ فهو خيرٌ لك**»، قال: فادعه، قال: فأمره أن يتوضأ؛ فيُحسن وضوءه، ويدعو بهذا الدعاء: اللهم إني اسألك وأتوجه إليك بنبيك محمدٍ نبي الرحمة، إنّي توجهتُ بك إلى ربي في حاجتي هذه لتُقضى لي، اللهم فشفّعه فيّ». أخرجه الترمذي (٣٥٧٨)، وابن ماجه (١٣٨٥)، وأحمد (١٧٢٤١)، وجوّد إسناده الألباني، وضعفه بعض أهل العلم؛ فهذا الحديث إن صح = من التوسل بدعاء الحي؛ فهو توسلَ بدعاء النبي ﷺ لا بذاته، وهذا بيّن من طلب الرجل أولَ الحديث وما تلاه من تخيير النبي ﷺ له بين الدعاء والصبر ثم اختياره أن يدعو له، فلا بد أن يكون قد وفّى له ﷺ وهو سيد الموفين بالوعد؛ فدعا له ثم أرشده بعد الوضوء للتوسل إلى اللَّه بدعائه ﷺ ليكمّل أسباب الإجابة، ولو كان من التوسل بذاته أو

جاهه؛ لما كان ثمة حاجة إلى أن يأتي رسول اللَّه ﷺ بل يقعد في بيته.

وقوله: «**اللهم فشفّعه فيّ**»؛ أي: اللهم اقبل دعاءَ رسول اللَّه لي بردّ بصري، وعند أحمد: «وتشفّعني فيه، وتشفّعه فيّ»، وقوله: تشفّعني فيه؛ أي: اقبل دعائي في أن تقبل دعاءه لي برد بصري، وهذا صريح في أنه بعدما طلب من النبي ﷺ أن يدعو له؛ توسلَ إلى اللَّه بدعاء النبي ﷺ بقوله: إنّي توجهتُ بك؛ أي: بدعائك؛ بدلالة السياق والسباق واللحاق.

وإن من الجور في الحكم والخطأ المبين: التسوية بين التوسل بدعاء رسول اللَّه ﷺ في حياته؛ وقد دل الدليل على مشروعيته، وبين التوسل بذاته أو جاهه؛ ولم يدل الدليل على مشروعيته.

وما فتئ دعاة الشرك منذ أزمان يتعمدون الخلط بين التوسل بالذوات والجاه وهو بدعة من وسائل الشرك؛ وبين الاستغاثة بغير اللَّه وهي شرك أكبر؛ تهوينًا من شأن الاستغاثة بغير اللَّه، وفرق بعيدٌ ما بينهما لغة وشرعًا بل لا تُعرَف التسوية بينهما في لغة أحدٍ من بني آدم لا حقيقة ولا مجازًا؛ فإن الاستغاثة هي التوجهُ إلى المستغاث به ودعاؤه إياه نفسَه في الشدائد، أما التوسل البدعي؛ فهو جعلُ المتوسَل به سببًا بين يدي دعاء اللَّه وحده، والمستغاث هو المسؤول، وأما المتوسل به؛ فلا يُدعى ولا يُطلب منه ولا يُسأل وإنما يُطلب به، فمن سوّى بينهما؛ فقد جاهرَ بالباطل وسوّى بين مختلفين.

* * *

٢٤- بابٌ محبة غير اللَّه محبة تعبّديّة شرك أكبر

هذا شروع بأبواب الشرك الأكبر الخفي.

محبة اللَّه هي أصل العبادة، ولا تُنجي صاحبَها حتى يُفرد اللَّهَ بها، ومن مقتضيات تحقيقها: محبة رسول اللَّه ﷺ، ومحبة المؤمنين في اللَّه، ومحبة ما يحب اللَّهُ من الطاعات والذوات.

والمحبة عبادة تحتمل التعبد وتحتمل غير التعبد، والدليل: حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ بعثه على جيش ذات السلاسل؛ فأتيتُه؛ فقلت: أيُّ الناسِ أحبُّ إليك؟، قال: «**عائشة**»، قلت: من الرجال؟، قال: «**أبوها**»، قلت: ثم من؟، قال: «**عمر**»؛ فعدّ رجالًا. أخرجه البخاري (٣٦٦٢)، ومسلم (٢٣٨٤)، وعنها رضي الله عنها قالت: كان رسول اللَّه ﷺ يحب الحَلواء والعسل. أخرجه البخاري (٤٥٣١)، ومسلم (١٤٧٤) (٢١)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابّوا...**». أخرجه مسلم (٥٤).

فأما المحبة التعبدية التي لا يجوز أن تُصرَف إلى غير اللَّه؛ فهي: المحبة المستلزمة لكمال الخضوع وكمال التعظيم وإيثار مراد المحبوب على مراد النفس؛ فمن أحب غير اللَّه هذه المحبة؛ فقد أشرك الشرك الأكبر.

وأما المحبة الطبيعية (غير التعبدية) التي يجوز صرفها لغير اللَّه؛ فهي محبة الإنسان لما يلائمه ويوافق طبعه من الذوات والأشياء؛ ولا تُذَم إلا إذا ألهت عن ذكر اللَّه وطاعته، أو قادت إلى معصيته؛ فهذه لا تستلزم التعظيم، ولا تزاحم المحبةَ التعبدية، لكن لا بد أن يكون اللَّهُ ورسوله ﷺ أحبَّ إلى

صاحبها منها، ومنها: محبة الوالد لولده، والولد لوالده، والرجل لزوجه.

وقول اللَّه -تعالى-: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾ [البقرة: ١٦٥].

في هذه الآية: أن هؤلاء المشركين مع كونهم يحبون اللَّه حبًا عظيمًا؛ لما لم يخلصوا المحبة للَّه وسووا أندادهم باللَّه في المحبة؛ سماهم متخذين من دون اللَّه أندادًا؛ فكيف بمن يحب الند حبًّا أكبر من حبه للَّه، ويغتاظ للتعرض للند أكثر من غيظه للتعرض لجناب اللَّه، ويستغلظ الحلف كاذبًا بالند، ويستسهل الحلف كاذبًا باللَّه، والعياذ باللَّه، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾؛ أي: من حب المشركين لأندادهم.

وعَن أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «ثَلاثٌ مَن كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمَانِ: أَن يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَن يُحِبَّ المَرءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَن يَكرَهَ أَن يَعُودَ فِي الكُفرِ كَمَا يَكرَهُ أَن يُقذَفَ فِي النَّارِ». أخرجه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣)، وفي لفظ للبخاري: «لَا يَجِدُ أَحَدٌ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ حتى..».

الشاهد من الحديث: قوله: **«أَن يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيهِ مِمَّا سِوَاهُمَا»**، **وفيه:** أن محبة اللَّه ومحبة رسوله عبادة؛ لوعد أهلها بنيل حلاوة الإيمان، ولفظ البخاري أبلغ؛ فإن فيه أن من لم يحقق تلك المحبة؛ لا يجد حلاوة الإيمان.

وفي قوله: **«أحبَّ»**: جواز صرف المحبة الطبيعية لغير اللَّه دون أن تساوي محبة اللَّه، وكلما قويت محبةُ العبد لمولاه؛ صغُرت عنده المحبوبات وقلّت، وكلما ضعفت محبة العبد لمولاه كثرت محبوباتُه وانتشرت.

وفي الحديث: الجمع بين حقيقة المحبة الواجبة للَّه ولرسوله ﷺ، وبين مقتضيين من مقتضياتها: تحقيق المحبة في اللَّه، وكمال بغض الكفر؛ فإن من كان اللَّه ورسوله أحب إليه مما سواهما قد صار حبه كله للَّه وبغضه كله للَّه؛ فأحب ما يحبه اللَّه من الأقوال والأعمال والأعيان، وكره ما يكرهه اللَّه منها، ووجد حلاوة الإيمان وطعمه؛ فأحبه وأحب دوامه وأحب الازدياد منه، وأحس بمرارة الكفر؛ فكرهه أشد الكراهة ونفر منه وتباعد منه جهدَه..

وفيه: أن للإيمان حلاوةً لا تعدلها حلاوة؛ لا يجدها إلا من استكمل هذه الخصال.

* * *

٢٥- بابٌ الخوف من غير اللَّه خوفًا تعبّديًّا شرك أكبر

الخوف من اللَّه عبادة جليلة لا يستقيم سير العبد إلى ربه إلا بالجمع بينها وبين المحبة والرجاء؛ وهي محرّكات القلوب إلى اللَّه، وأقواها: المحبة.

وإذا علم العبدُ عظيمَ تفريطه في طاعة اللَّه وفي شكر نعمه، وعلم قُبحَ معاصيه، وأيقنَ من حقيقة الوعيد المتوعّد به عليها، وخاف أن يُحال بينه وبين التوبة أو يُقبضَ على حالٍ لا تسرّه يوم الدين؛ اشتد خوفه من اللَّه، وكلما ازداد العبد معرفة بالله؛ ازداد حياءً منه وخشية له وحبًا.

قال في «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٢١):

«فما حُفظت حدود اللَّه ومحارمه، ووصل الواصلون إليه بمثل خوفه ورجائه ومحبته؛ فمتى خلا القلب من هذه الثلاث؛ فسد فسادًا لا يرجى صلاحه أبدًا، ومتى ضعُف فيه شيء من هذه؛ ضعُف إيمانه بحسبه».

ومِن مقتضيات تحقيق الخوف من اللَّه: الخوف من وعيده، والخوف من الوقوع في معصيته، والخوف من عدم قبول الطاعة، والمحمودُ منه: ما حملَ على التقرب إلى اللَّه بفعل ما يحبّه واجتناب ما يكرهه؛ فإذا تجاوز ذلك خِيف منه اليأس والقنوط، وإن كان ضعيفًا لم يحجز صاحبَه عن محارم اللَّه.

والخوف عبادة تحتمل التعبد وتحتمل غير التعبد، والدليل: وصفُ اللَّه كليمَه موسى -عليه الصلاة والسلام- بالخوف من غيره في غير ما موضع من كتابه؛ فدلّ على أن من الخوف ما لا يقدح في التوحيد، وهو الطبيعي.

فأما الخوف التعبدي الذي لا يجوز أن يُصرَف إلى غير اللَّه؛ فهو: أن يخاف الإنسان من غير اللَّه أن يُصيبَه بمكروه دون مباشرة بينهما أو سببٍ ظاهر.

فمن خاف غيرَ اللَّه هذا الخوف؛ فهو مشركٌ الشركَ الأكبر، وهو الذي كان المشركون الأولون يعتقدونه في آلهتهم، وهو الواقع اليوم من عبّاد القبور، ولهذا يخوّفون الموحدين بمعبوديهم من الصالحين وغير الصالحين كما خوّف أسلافُهم خليلَ اللَّه محمدًا ﷺ كما قال اللَّه: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ﴾ [الزمر: ٣٦]، وكما خوّفوا الخليل إبراهيم ﷺ؛ فردّ عليهم بقوله فيما حكاه اللَّه عنه: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ﴾ [الأنعام: ٨٠-٨١]، وقالوا لهود -عليه الصلاة والسلام-: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٤-٥٥].

وكلما قويت خشية العبد لمولاه؛ صغُرت عنده المخوفات وقلّت، وكلما ضعفت خشية العبد لمولاه؛ كثرت مخوفاتُه وانتشرت، وإذا أيقن العبدُ أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأنه لن يصيبه إلا ما كتب اللَّه له؛ لم يبق لخوف المخلوقين في قلبه موضع.

قال في «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٤٤٩):

«ولن يخاف الرجلُ غيرَ اللَّه إلا لمرض في قلبه، كما ذكروا أن رجلًا شكا إلى أحمد بن حنبل خوفَه من بعض الولاة؛ فقال: «لو صححتَ؛ لم تخف أحدًا»؛ أي: خوفك من أجل زوال الصحة من قلبك».

وأما الخوف الطبيعي (غير التعبدي) الذي يجوز صرفه لغير اللَّه؛ فهو الخوف من عدو مُسلَّح أو سبع أو غرق أو هدم ونحو ذلك من أسباب الهلاك والأذى الحقيقية الظاهرة؛ ولا يُذمّ إلا إذا حمل على فعل محرم أو ترك

واجب؛ كترك الواجب من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فيكون خوفًا محرَّمًا.

وقول الله -تعالى-: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

أي: إنما ذلكم الشيطان يخوفكم أنصارَه، ويوهمكم أنهم أولو بأس شديد؛ فإذا سوّل لكم ذلك؛ فتوكلوا عليّ والجأوا إليّ، وخافون وحدي إن كنتم مؤمنين؛ فجعل اللَّه التوحيد في الخوف شرطًا للإيمان، وقوله: ﴿أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾: مفعول ثان كما تقول العرب: أعطيتُ الأموالَ؛ أي: أعطيت القوم الأموال؛ فيحذفون المفعول الأول.

وكلما قوي إيمان العبد؛ ضعف خوف أولياء الشيطان من قلبه، وكلما ضعف إيمانه؛ قوي خوفه منهم.

وفي الآية: التحذير من كيد الشيطان، وأنه يمكر المكر الكُبَّار ليستزل الموحد ويوقعه في الشرك الأكبر الخفي.

وفيها: عظم الحرب بين أهل التوحيد وبين إبليس وجنده.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨].

في هذه الآية: يخبر تعالى أنه لا يعمر مساجده على الحقيقة بالبناء والرعاية والصلاة والذكر وتلاوة القرآن إلا الذين آمنوا باللَّه واليوم الآخر وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأخلصوا الخشية للَّه، والخشية خوف يقارنه العلم بالمخشي وتعظيمه؛ فأولئك هم المهتدون؛ فإن «عسى» من اللَّه واجبة.

ودلّت الآية بمفهومها على أن عمّارَ المقابر وعمّارَ مساجد المقابر؛ يخشون غير اللّه ويرجون غير اللّه، والواقع شاهدُ صدقٍ بذلك؛ فترى الموحدين هم عمار المساجد، وترى المشركين هم عمّار القبور والأوثان والمشاهد.

قال في «الاستغاثة» (ص٣٠٥):

«وجمهور هؤلاء المشركين بالقبور يجدون عند عبادة القبور من الرقة والخشوع والدعاء وحضور القلب ما لا يجده أحدهم في مساجد اللّه التي أذن اللّه أن ترفع ويذكره فيها اسمه».

وقوله: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [النحل: ٥١].

في هذه الآية: يأمر اللّه جميع عباده بعد نهيه إياهم عن اتخاذ إلهين اثنين؛ بإفراده بالرهبة وهي الخوف المثمر للهرب من المخوف، والمعنى: ارهبوني ولا ترهبوا غيري؛ فإن تقديم ما حقه التأخير يفيد الاختصاص.

وفيها: أمر اللّه بالتوحيد بالنهي عن التثنية، كما أمر به بالنهي عن التثليث بقوله: ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ [النساء: ١٧١]، وكما نفى الجمع بقوله فيما حكى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿أَئِفۡكًا ءَالِهَةٗ دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ [الصافات: ٨٦]، وقوله فيما حكى عن يوسف عليه السلام: ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩].

* * *

٢٦- بابٌ التوكل على غير اللَّه فيما لا يقدر عليه إلا اللَّه شرك أكبر

التوكل عبادة جليلة هي نصف الدين، ونصفه الآخر: العبادة والإنابة؛ وقد جمع اللَّه بينهما في غير موضع من كتابه؛ قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقال: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

وأجلّ أنواع التوكل: التوكل على اللَّه في مطالب الآخرة كتحقيق توحيده والتعبد له بمقتضى أسمائه وصفاته، وتجريد المتابعة لرسوله ﷺ ونيل الهداية إلى تفاصيل الصراط المستقيم، والإعانة على العلم النافع والاستقامة على العمل الصالح، وتحقيق مقتضى نصرة دين اللَّه وجهاد أعدائه قولًا وعملًا، ودونه: التوكل في تحصيل مصالح الدنيا ودفع ما يُحاذره من مصائبها، والعبد الموفق هو الذي يصطحب التوكل على مولاه في جميع أموره على الإطلاق أمور الدين والدنيا.

أمرنا اللَّه بالتوكل وجعل إفرادَه به شرطًا لصحة الإيمان كما سيأتي، فمن ثمة؛ كان من العبادات التي لا تحتمل إلا التعبد، والتوكل: اعتماد القلب؛ ومن اعتمد بقلبه على غير اللَّه؛ فلا يخلو من أحد حالين:

الأولى: أن يعتمد بقلبه على غير اللَّه من الأموات والغائبين والأحياء الحاضرين فيما لا يقدر عليه إلا اللَّه؛ فهذا شرك أكبر، وهو توكل القبوريين وأشباههم.

الثانية: أن يعتمد بقلبه على غير اللَّه من الأحياء الحاضرين فيما أقدرهم اللَّه عليه من الرزق ودفع الأذى ونحوهما، ومنه: اعتماد القلب على

الأسباب الحقيقية مع اعتقاد كونها أسبابًا؛ فهذا شركٌ أصغر، ولو قُدّر أن شيئًا من الأسباب يكون مستقلًا بالمطلوب؛ لكان الواجب أن لا يُرجى إلا اللَّه ولا يتوكل إلا عليه ولا يسأل إلا هو؛ فكيف وليس شيءٌ من الأسباب مستقلًا بمطلوب.

ولا يجوز صرف لفظ التوكل إلى غير اللَّه مطلقًا؛ فقول القائل: أنا متوكل عليك، أو: أنا متوكل على اللَّه وعليك، أو: أنا متوكل على اللَّه ثم عليك، كل ذلك لا يجوز، وهو شرك أصغر.

أما الوكالة؛ فشيء آخر؛ وهي إنابة شخص في فعل أمر يقدر عليه دون اعتماد القلب عليه، ولا بأس في ذلك في الأصل، وقد وكّل رسول اللَّه ﷺ عليًّا رضي الله عنه في ذبح بقية بُدنه في حجة الوداع كما رواه مسلم (١٢١٨)، ووكّل أبا هريرة رضي الله عنه بحفظ زكاة رمضان كما رواه البخاري (٢٣١١)، ووكّل غيرَهما على أعمال خاصة وعامة.

والعبد مفتقر دائمًا إلى التوكل على اللَّه والاستعانة به كما هو مفتقر إلى عبادته، ولا بد أن يشهد على الدوام فقرَه ذاك، ولا بد له أن يتصف بموجبه من الخضوع للَّه وتعليق الرجاء به وحده، وذلك سبيلُ سعادته؛ فإن العبد كلما كان أعظم افتقارًا إلى اللَّه وخضوعًا له؛ كان أقرب إليه وأعزَّ له وأعظم لقدره، وبالتوحيد يقوى العبد وتزول فاقتُه ويطمئنُ قلبُه وتسكنُ نفسُه، ويستغني عن جميع الخلق؛ فلا تطيب الحياة إلا بالتوكل على اللَّه وحده؛ فإنّ كلَّ مخلوق مفتقرٌ إلى اللَّه في إيجاده وفي بقائه ثم هو مفتقر غاية الافتقار في أمور دنياه وآخرته الى أربعة أمور: تحصيل ما ينفعه ومعرفة طريق حصوله عليه، ودفع ما يضره ومعرفة طريق دفعه عن نفسه، واللَّه وحده هو الجامع لهذه الأمور الأربعة؛ فهو خالق النافع والهادي إليه والمعين عليه، وهو

خالق الضار والهادي إلى معرفته والمعين على الحذر منه؛ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

أما المخلوقُ؛ فلا يعلم ما يُصلح المخلوقَ وما يضرّه حتى يعرّفه اللَّه بهما، ولا يعرِفهما إلا على جهة الظن، ثم هو غير قادر على تحصيلهما لأجله حتى يجعله اللَّه قادرًا على ذلك؛ فإن قدِر فلا تحصل منه إرادةُ ذلك حتى يجعله اللَّه مريدًا له، فإن أراد وحصل منه النفعُ ودفعُ الضر؛ فبإذن اللَّه وإعانته، ثم لا يدوم نفعه؛ فهو في ذاته إلى زوال، ولا يقدر حالَ بقائه على نفعه على سبيل الدوام، ونفعه متغيّر متقلّب تبعًا لتقلب مزاجه وهواه، وتنحط منزلة المعطى عنده بتكرّر إحسانه له وازدياده، ثم هو في جميع ذلك يلتمس حظ نفسه وانتفاعه العاجل أو الآجل، أما اللَّه -تبارك وتعالى-؛ فهو الرحيم الودود، وهو الغني الحميد.

وحقيقة التوكل المأمور به: صدق اعتماد القلب على اللَّه في حصولِ ما ينفع العبد في دينه ودنياه، ودفعِ ما يضرُّه في دينه ودنياه، بعد بذل الأسباب المأذون بها.

فمن أخلّ بواحد من هذين الأمرين: اعتماد القلب على اللَّه، وبذل الأسباب؛ لم يكن متوكلًا، ونفس التوكل إنما هو بذل لأعظم الأسباب، وقد أمر اللَّه بالأخذ بالأسباب في مواضع كثيرة من كتابه؛ منها: قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١]، وقوله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقوله لمريم وهي في المخاض: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريم: ٢٥]، وكان رسول اللَّه ﷺ يأخذ بالأسباب؛ فقد اتخذ دليلًا على طريق الهجرة كما رواه البخاري (٢٢٦٣)، وظاهر بين درعين في غزوة أحد كما رواه أبو داود (٢٥٩٠) وصححه الألباني،

وكان يحمل الزاد والمزاد هو وأصحابه كلما سافر أو غزا .

وجمعَ رسول اللَّه ﷺ بينهما بقوله : «**احرِص على ما ينفعُكَ، واستعن باللَّه ولا تَعجِز**» . أخرجه مسلم (٢٦٦٤)؛ فقوله : «**احرِص على ما ينفعُكَ**» : أمرٌ بالأخذ بالأسباب، وأنه موافق للفطرة ولسنن اللَّه الكونية، وقوله : «**واستعن باللَّه ولا تَعجِز**» : أمرٌ باعتماد القلب على اللَّه والثقة التامة به تعالى .

وقول اللَّه -تعالى-: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨].

في هذه الآية : يأمر اللَّه بالتوكل على الحي الذي يموت، وهو وصف خاص باللَّه تعالى؛ فكل ما سواه تعالى إما حي سيموت وإما حي قد مات، أو جماد لا يوصف بحياة ولا موت .

قال الإمام محمد بن إدريس الشَّافِعِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «أحكام القرآن» (٢/ ١٨٠):

«نزه اللَّه ﷻ نبيَّه ﷺ ورفع قدره، وعلّمه وأدّبه، وقال : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ ؛ وذلك أن الناس في أحوال شتى : متوكل على نفسه، أو على ماله، أو على زرعه، أو على سلطان، أو على عطية الناس .

وكلُّ مستندٍ إلى حي يموت، أو على شيء يفنى يوشك أن ينقطع به؛ فنزه اللَّه نبيَّه ﷺ وأمرَه : أن يتوكل على الحي الذي لا يموت ﷻ» . انتهى .

وفي الآية : أن التوكل عبادة للأمر به؛ وكل ما كان عبادة؛ فيجب إخلاص اللَّه به .

وقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢].

في هذه الآية : يأمر اللَّه عباده المؤمنين بإفراده بالتوكل؛ فإن تقديم الجار

والمجرور يفيد الاختصاص؛ أي: توكلوا على اللَّه لا على غيره؛ ففي الآية: أن التوكل عبادة، وأنه حق اللَّه.

وقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

في هذه الآية: أمرٌ من اللَّه لعباده بإفراده بالتوكل؛ فإن تقديم الجار والمجرور يفيد الاختصاص، **وفيها**: اشتراط ذلك لثبوت الإيمان، وهذا يدل على انتفاء الإيمان عند انتفاء التوكل؛ فمن لا توكل له لا إيمان له، وأن التوكل عبادة وأنه حق اللَّه.

كما اشترط اللَّه إفراده بالتوكل لثبوت الإسلام في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]؛ فمن لا توكل له لا إسلام له.

* * *

٢٧- بابٌ من الشرك: لُبس التمائم بقصد الوقاية أو العلاج

هذا شروعٌ بأبواب الشرك الأصغر الظاهر، وهذا الباب وثلاثةُ أبواب تليه تتعلق بشرك الأسباب.

والأسباب نوعان:

١) **أسباب حقيقية**؛ وهي ما ثبتت سببيّتها بالشرع أو التجربة الظاهرة المتصلة، ونعني بالظهور: ظهور أثر السبب في المسبَّب، ونعني بالاتصال: مباشرة السبب للمسبَّب قبل حصول الأثر، مثال ما ثبت بالشرع: العسل والحبة السوداء للشفاء بقوله تعالى: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٩]، وقوله ﷺ: «**إن في الحبة السوداء شفاءً من كل داء إلا السام**». أخرجه البخاري (٥٦٨٨)، ومسلم (٢٢١٥)، والسام: الموت، ومثال ما ثبت بالتجربة الظاهرة المتصلة: دواء «البنادول»، وعشبة «المرامية» لتسكين الآلام.

وهذه الأسباب على أنها حقيقية؛ فإنّ التوكل عليها -أي: اعتماد القلب عليها-؛ شركٌ أصغر؛ فيحرم الالتفات إليها إلا التفات امتثالٍ وقيامٍ بها أداءً لحق العبودية فيها مع اعتماد القلب على مسببِّها وحده وهو اللَّه.

ويجب الإيمان بأنها مهما عظمت وقويت؛ فلا خروج لها عن إذن اللَّه وقدَره، ولا تستقلُّ بالتأثير في مسببَّاتها؛ فإن لم يكمّلها اللَّهُ ويدفع عنها الموانع؛ لم يحصل المقصود، وقد يحصل السبب المعيّن ولا يشاء اللَّه تأثيرَه، وليس في الوجود سببٌ تام موجبٌ إلا مشيئة اللَّه وحده.

كما يجب الإيمان بأن لها تأثيرًا في مسببَّاتها لكن لا بذاتها بل بما أودع اللَّه فيها، ومن نفى تأثيرَها؛ فقد خالف الشرعَ والفطرة والعقل والحس.

٢) أسباب وهمية ؛ وهي ما لم تثبت سببيتها بالشرع ولا بالتجربة الظاهرة المتصلة، ومن ظنَّ ما ليس بسببٍ سببًا ؛ فقد أشرك شركًا أصغر .

ومن الأسباب الوهمية : التمائم ؛ فمن نصبها سببًا معتقدًا أن اللَّه جعلها سببًا فقد أشرك شركًا أصغر، وإن اعتقد أنها تنفع استقلالًا من دون اللَّه أو اشتملت على استغاثة بالشياطين أو الأموات ؛ فقد أشرك شركًا أكبر .

والتميمة : اسم لكل ما يُعلَّق بقصد الوقاية أو العلاج كالخرز والجلود والخيوط والحِلَق والحجب والقلائد والأوراق والنعال، على الإنسان أو الحيوان أو الدار أو السيارة، كانوا يتلمحون من اسمها تمامَ المقصود؛ فأبطلها الشرع .

ومنها : حلقة من نحاس تسمى : «سوار ابن سينا» يزعمون أنها علاج للروماتيزم وآلام المفاصل ؛ ولم يثبت ذلك طبيًّا ؛ فهي من التمائم الشركية .

ومنها : ما افتتن به فئام من أبناء المسلمين بِأَخرة : قلائد، وأسورة، وخواتم، وأقلام، وأحجار، وبلورات، وأقراص تُعلّق أو تُحمل يُزعم أنها تُحسّن سريان الطاقة في الجسم ؛ فيورثه ذلك حيوية ونشاطًا وسعادة، ونحو ذلك من موروثات الثقافات الشرقية الوثنية .

أما التميمة من القرآن ؛ فإن ظاهر أحاديث الباب تحريم تعليق التمائم كلِّها من القرآن وغير القرآن، وقد كان رسول اللَّه ﷺ يرقي نفسه ويرقي غيره، ولو كان تعليق تمائم القرآن جائزًا لفعله ﷺ أو أَذِن فيه مع أنه أيسر وأبقى من الرقية، وهو القول الثابت عن الصحابة، ولم يثبت ما يُروى عن بعضهم بخلافه، وهو قول أكثر أهل العلم .

وأما ما يعلّقه الناس بقصد التزيّن ؛ فإن كان مما يُعلَّق عادة على أنه

تميمة؛ حرُم للمشابهة، وكذا إن كان فيه تشبه بالكفار، وإن خلا من هذين الوصفين جاز تعليقه.

عن عُقبَةَ بنِ عَامِرٍ الجُهَنِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَقبَلَ إِلَيهِ رَهطٌ، فَبَايَعَ تِسعَةً وَأَمسَكَ عَن وَاحِدٍ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، بَايَعتَ تِسعَةً وَتَركتَ هَذَا؟ قَالَ: «إِنَّ عَلَيهِ تَمِيمَةً»؛ فَأَدخَلَ يَدَهُ فَقَطَعَهَا؛ فَبَايَعَهُ، وَقَالَ: «مَن عَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَد أَشرَكَ». أخرجه أحمد (١٧٤٢٢)، وصححه الألباني.

في هذا الحديث: حكمٌ من رسول اللَّه ﷺ بإشراك معلّقي التمائم، وامتناعه عن مبايعتهم ما دامت عليهم، وشركهم بتعليقها إما أصغر أو أكبر على التفصيل المتقدم.

وفيه: دليل لقاعدة شرك الأسباب: ظنُّ ما ليس بسبب سببًا شرك.

وعن أبي بشير الأنصاري رضي الله عنه أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي بَعضِ أَسفَارِهِ؛ فَأَرسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَسُولًا أَن: «لَا يَبقَيَنَّ فِي رَقَبَةِ بَعِيرٍ قِلَادَةٌ مِن وَتَرٍ أَو قِلَادَةٌ إِلَّا قُطِعَت». أخرجه البخاري (٣٠٠٥)، ومسلم (٢١١٥).

في هذا الحديث: أمره ﷺ بقطع ما كان يجعل في رقاب الإبل من القلائد اتقاء العين، وإرساله رسولًا خاصًّا لهذا الغرض، والأمر بقطعها دال على حرمتها، خرج بذلك: ما كان يجعل من القلائد في رقاب الهدي ليعرف به من بين سائر الأنعام.

وفيه: إنكار مظاهر الشرك بالقول والفعل؛ الأصغر منه والأكبر.

وقوله: «**قِلَادَةٌ مِن وَتَرٍ أَو قِلَادَةٌ**»: شك من الرواي، وعند أبي داود (٢٢٥٢) بدون شك: «**قلادة من وتر ولا قلادة**».

* * *

٢٨- باب ما جاء في الرقى المشروعة والرقى الممنوعة

لما كان أحد نوعي الرقى من الأسباب الوهمية؛ ناسب أن يُذكر هذا الباب بعد باب التمائم.

والرقى هي: الألفاظ التي تقرأ بقصد العلاج أو الوقاية، وهي نوعان:

الأول: الرقى المشروعة، وهي: ما اجتمع فيها ثلاثة شروط:

١) أن تكون بكلام اللَّه أو أسمائه وصفاته، وما ثبت في السنة، أو المباح من الأدعية.

٢) أن تكون مفهومة المعنى ولو بغير العربية؛ لأن غير المفهومة مظنّة الشرك وعامّتها استغاثات بالشياطين.

٣) ألا تشتمل على ألفاظ شركية، أو يُظنّ أنها تنفع استقلالًا.

وأصل مشروعيتها ثابت بالسنة القولية والفعلية والتقريرية.

وللرقية الجائزة أربعة أحوال:

١) أن يرقي نفسه، ويدل لمشروعيتها: رواية البخاري لحديث الباب حديث عائشة الآتي.

٢) أن يرقي غيره، ويدل لمشروعيتها: رواية مسلم لحديث الباب حديث عائشة الآتي.

٣) أن يسترقي لغيره، ويدل لمشروعيتها: حديث أم سلمة رضي الله عنها أن رسول اللَّه ﷺ قال لجارية في بيت أم سلمة زوج النبي ﷺ رأى بوجهها سَفعةً؛ فقال: «**بها نظرةٌ؛ فاسترقوا لها**»؛ يعني: بوجهها صفرة. أخرجه

البخاري (٥٧٣٩)، ومسلم (٢١٩٧)، واللفظ له.

٤) أن يسترقي لنفسه؛ فهذا جائزٌ وتركه أفضل كما تقدم في باب تحقيق التوحيد.

الثاني: الرقى الممنوعة: وهي ما فقدت شروط الرقى المشروعة أو أحدها.

عن عائشة ﵂ أن رسولَ اللَّهِ ﷺ كانَ إذا اشتكى نفثَ على نفسِه بالمُعَوِّذات، ومسحَ عنه بيدهِ؛ فلما اشتكى وجعَه الذي تُوُفِّي فيه طفِقتُ أنفِثُ على نفسِه بالمُعَوِّذاتِ التي كان ينفِثُ، وأمسحُ بيدِ النبيِّ ﷺ عنهُ. أخرجه البخاري (٤٤٣٩)، ومسلم (٢١٩٢)، وهذا لفظ البخاري.

ولفظ مسلم: قَالَت: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا مَرِضَ أَحَدٌ مِن أَهلِهِ نَفَثَ عَلَيهِ بِالمُعَوِّذَاتِ، فَلَمَّا مَرِضَ مَرَضَهُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، جَعَلتُ أَنفُثُ عَلَيهِ وَأَمسَحُهُ بِيَدِ نَفسِهِ، لِأَنَّهَا كَانَت أَعظَمَ بَرَكَةً مِن يَدِي.

في هذا الحديث: أن النبي ﷺ كان يرقي نفسَه، ويرقي غيرَه، ورُقِي رقته عائشة ﵂، ورقاه جبريل ﵇ أيضًا؛ فعن أبي سعيد الخدري ﵁ أن جبريل أتى النبيَّ ﷺ؛ فقال: يا محمد، اشتكيتَ؟؛ فقال: «نعم»، قال: باسم اللَّه أَرقيك من كلّ شيء يُؤذيك، من شرّ كل نفسٍ أو عين حاسد، اللَّهُ يَشفيك، باسم اللَّه أَرقيك». أخرجه مسلم (٢١٨٦).

وفيه: مشروعية نفث الراقي بريق تلا فيه القرآن، أما النفث بنية التبرك بريق النافث؛ فيحرم؛ وهو من التبرك الممنوع.

وعَن عَوفِ بنِ مَالِكِ الأَشجَعِيِّ ﵁ قَالَ: كُنَّا نَرقِي فِي الجَاهِلِيَّةِ فَقُلنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيفَ تَرَى فِي ذَلِكَ؟ فَقَالَ: «اعرِضُوا عَلَيَّ رُقَاكُم، لَا بَأسَ بِالرُّقَى مَا لَم يَكُن فِيهِ شِركٌ». أخرجه مسلم (٢٢٠٠).

في هذا الحديث: جواز الرقية المتلقاة بالتجربة ما لم يكن فيها شرك، ولو كان الجواز مقصورًا على الرقية من القرآن وصحيح السنة -وإن كانت أفضلَ الرقى- لما سألهم رسول اللَّه ﷺ أن يعرضوا عليه رقاهم التي كانوا يرقون بها في الجاهلية.

وعن جابر بن عبد اللَّه ﵄ قَالَ: نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الرُّقَى، فَجَاءَ آلُ عَمرِو بنِ حَزمٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهُ كَانَت عِندَنَا رُقيَةٌ نَرقِي بِهَا مِنَ العَقرَبِ، وَإِنَّكَ نَهَيتَ عَنِ الرُّقَى، قَالَ: فَعَرَضُوهَا عَلَيهِ، فَقَالَ: «مَا أَرَى بَأسًا؛ مَنِ استَطَاعَ مِنكُم أَن يَنفَعَ أَخَاهُ فَليَنفَعهُ». أخرجه مسلم (٢١٩٩) (٦٣).

في هذا الحديث: أن الرقية سبب حقيقي للانتفاع والشفاء.

وفيه: رقية الرجل لأخيه إحسان منه إليه.

وفيه وفي الحديث الذي قبله: بيان حقيقة الرقى المقصودة بالنهي؛ وأن النهي لا يتناول عموم الرقى كما ظنّه آل عمرو بن حزم ﵃ بقولهم لرسول اللَّه ﷺ: وَإِنَّكَ نَهَيتَ عَنِ الرُّقَى.

وفيه: ترخيص النبي ﷺ بالرقى إذا خلت من الشرك، ونهيه عن الرقى الشركية المعهودة في الجاهلية.

وعن عبد اللَّه بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن الرُّقَى والتَّمَائِمَ والتِّوَلَةَ شِرك». أخرجه أبو داود (٣٨٨٣) وابن ماجه (٣٥٣٠)، وصححه الألباني.

قوله: «**الرُّقَى**»: أل للعهد؛ أي: المشتملة على الشرك باللَّه لا الرقى المشروعة بكلام اللَّه أو رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو الأدعية المباحة المفهومة المعنى.

وقوله: «**التِّوَلَةَ**»: ضرب من سحر العطف تصنعه النساء يتحبّبن به إلى أزواجهن.

وفي الحديث: دليل لقاعدة شرك الأسباب: ظنُّ ما ليس بسبب سببًا شرك أصغر.

* * *

٢٩- بابٌ من الشرك: التبرّك بالأحجار والأشجار ونحوهما

التبرك: طلب البركة؛ وهي ثبوت الخير ونماؤه.

والبركة من اللَّه؛ فهو مالكها وهو موجدها وهو الواهب لها؛ فلا تُسأل إلا منه؛ فعن عبداللَّه بن مسعود رضي الله عنه قال: كنا نعد الآيات بركة، وأنتم تعدونها تخويفًا، كنا مع رسول اللَّه ﷺ في سفر؛ فقلّ الماء؛ فقال: «**اطلبوا فضلةً من ماء**»؛ فجاءوا بإناء فيه ماء قليل؛ فأدخل يدَه في الإناء، ثم قال: «**حيَّ على الطهور المبارك، والبركةُ من اللَّه**»؛ فلقد رأيتُ الماءَ ينبع من بين أصابع رسول اللَّه ﷺ، ولقد كنّا نسمع تسبيحَ الطعام وهو يُؤكَل. أخرجه البخاري (٣٥٧٩).

وللتبرك نوعان:

الأول: التبرك المشروع: وهو التماس البركة:

١) مما ثبتت بركته شرعًا؛

٢) بصفة شرعية؛

٣) على أنه سبب لها لا يهبها بذاته.

فله ثلاثة شروط لا بد من اجتماعها، وإذا اختل واحد منها؛ صار التبرك من قسم الممنوع.

مثال ذلك: المسجد الأقصى -طهّره اللَّه من رجس يهود-: بقعة مباركة شرعًا، الصفة الشرعية لالتماس بركته: الصلاة فيه والاعتكاف وحضور مجالس العلم ونحو ذلك، واللَّه موجد البركة فيه؛ فمن تبرك بالمسجد الأقصى بالتمسح بجدارنه أو تربته، أو اعتقد أنه مصدر البركة؛ فقد وقع في المحذور.

وللتبرك المشروع أنواع؛ المرجع في ثبوتها: دلالة النص الشرعي:

١) التبرك بالأعمال الصالحة من الأقوال والأعمال كالتبرك بتلاوة القرآن، وهذا أشرف الأنواع.

٢) التبرك بالأزمنة والأمكنة المباركة شرعًا بالصفة الشرعية كالتبرك بالعشر الأواخر من رمضان بقيامها والاعتكاف فيها، وبالمسجد الحرام بالصلاة فيه والطواف فيه والسعي.

٣) التبرك بذات النبي ﷺ ك: يده، والتبرك بآثاره وما انفصل من جسده كشعره ووَضوئه وعرقه وريقه، والتبرك بما لامسه كثوبه وإنائه؛ في حياته وبعد وفاته.

وهذا خاص به ﷺ كما سيأتي.

وهذه الآثار قد عُدمت في القرون المتأخرة، وليس بإمكان أحدٍ اليومَ إثبات شيء منها على وجه القطع واليقين.

ومن أدلة هذا النوع:

حديث المسور بن مخرمة رضي الله عنه في صلح الحديبية، وفيه قول عروة بن مسعود رضي الله عنه -قبل إسلامه- عن الصحابة: فواللَّه ما تنخّمَ رسولُ اللَّه ﷺ نُخامةً إلا وقعت في كف رجل منهم؛ فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وَضوئه، وإذا تكلّم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحِدّون إليه النظر تعظيمًا له». أخرجه البخاري (٢٧٣٢).

وحديث أنس رضي الله عنه قال: لما رمى رسول اللَّه ﷺ الجمرة، ونحر نسكَه، وحلق؛ ناول الحالق شقَه الأيمن؛ فحلقه ثم دعا أبا طلحة الأنصاري؛

فأعطاه إياه، ثم ناوله الشقَ الأيسر؛ فقال: «**احلق**»؛ فحلقه؛ فأعطاه أبا طلحة؛ فقال: «**اقسمه بين الناس**». أخرجه البخاري(١٧١)، ومسلم (١٣٠٥) (٣٢٦)، واللفظ له.

وحديث أنس أيضًا قال: كان النبي ﷺ يدخل بيت أم سُليم؛ فينام على فراشها، وليست فيه، قال: فجاء ذات يوم؛ فنام على فراشها؛ فأُتيت؛ فقيل لها: هذا النبيّ ﷺ نام في بيتك على فراشك، قال: فجاءت وقد عرِقَ، واستنقعَ عرقُه على قطعة أديمٍ على الفراش؛ ففتحت عتيدتَها [صندوق صغير يوضع فيه المتاع النفيس]؛ فجعلت تُنَشِّف ذلك العرَق؛ فتعصرُه في قواريرها؛ ففزِع النبيُّ ﷺ؛ فقال: «**ما تصنعين يا أمَّ سُليم؟**»، قالت: يا رسول اللَّه، نرجو برَكتَه لصبيابنا، قال: «**أصبتِ**». أخرجه البخاري (٦٢٨١)، ومسلم (٢٣٣١) (٨٤)، واللفظ له، وفي لفظ البخاري: فلما حضر أنسَ بن مالك الوفاةُ؛ أوصى أن يُجعل في حَنوطه من ذلك السُّكّ [الطيب المركب الذي خلطت أمُّ سليم عرقَ النبي ﷺ به]، قال: فجُعل في حَنوطه.

وحديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كنت عند النبي ﷺ وهو نازل بالجعرانة بين مكة والمدينة ومعه بلالٌ..، وفيه: ثم دعا رسول اللَّه ﷺ بقدَح فيه ماء؛ فغسل يديه ووجهه فيه، ومجَّ فيه، ثم قال: «**اشربا منه، وأفرِغا على وجوهكما ونحوركما، وابشرا**»؛ فأخذا القدح؛ ففعلا ما أمرهما به رسولُ اللَّه ﷺ؛ فنادتهما أمُّ سلمة من وراء الستر: أفضِلا لأُمِّكما مما في إنائكما؛ فأفضلا لها منه طائفة. أخرجه البخاري (٤٣٢٨)، ومسلم (٢٤٩٧).

وحديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما، وفيه: أنها أخرجت جبّةَ طيالسةٍ كِسراونية، وقالت: هذه كانت عند عائشة حتى قُبضت؛ فلما قبضت؛

قبضتُها، وكان النبي ﷺ يَلبسُها؛ فنحن نغسلها للمرضى يُستشفى بها. أخرجه مسلم (٢٠٦٩).

٤) التبرك بالمطعومات ونحوها مما ثبت بركته شرعًا بالصفة الشرعية؛ كالتبرك بماء زمزم بشربه والاستشفاء به، وبزيت الزيتون بأكله والادهان به، والحبة السوداء بأكلها.

الثاني: التبرك الممنوع: وهو قسمان:

الأول: ما كان شركًا أكبر، وله نوعان:

١) صرف عبادة للمتبرَك به رجاء بركته؛ كطلب البركة بالذبح لصاحب القبر، وهذا شرك في الألوهية.

٢) اعتقاد أن أحدًا سوى اللَّه يعطي البركة استقلالًا؛ ولو لم يُتبرَك به، وهذا شرك في الربوبية.

الثاني: ما كان شركًا أصغر، فيما يُعتقَد أنه سبب للبركة، وليس كذلك، وله أنواع:

١) التبرك بالآثار المكانية للأنبياء؛ وهي الأماكن التي مر عليها النبي ﷺ أو صلى فيها دون قصد شرعي؛ فإن بركة ذواتهم عليهم السلام لا تتعدى إلى المكان الذي يطئونه أو يجلسون فيه أو يمشون عليه، مثل: التبرك بغار حراء أو جبل ثور أو مكان موقعة بدر أو موضع مولد النبي ﷺ في مكة -إن ثبت-.

وليس من ذلك: تحري ابن عمر رضي الله عنهما مواضع سير النبي ﷺ ومواضع نزوله ومواضع صلاته في الطريق؛ فعن موسى بن عقبة قال: رأيت سالم بن عبد اللَّه يتحرّى أماكن من الطريق فيصلّي فيها، ويحدّث أن أباه كان يصلّي فيها، وأنه رأى النبي ﷺ يصلّي في تلك الأمكنة. أخرجه البخاري (٤٨٣)،

ومسلم (١٣٤٦) (٤٣٤)، واللفظ للبخاري؛ فإنه كان يفعل ذلك تأسيًا لا تبركًا، ومع ذلك؛ فلم يوافقه الصحابة على ذلك ولم يكن الخلفاء الراشدون والأكابر من السابقين الأولين يفعلونه، وهم أعلم من ابن عمر وأعظم اتباعًا له ﷺ، ولو كان سنة مشروعة لفعله هؤلاء، إذ حقيقة المتابعة: فعلك ما فعل رسولُ اللَّه ﷺ على الوجه الذي فعل.

قال في «مجموع الفتاوى» (١/ ٢٨٠-٢٨١- «قاعدة جليلة»):

«فإذا فعل فعلًا على وجه العبادة؛ شُرِع لنا أن نفعله على وجه العبادة، وإذا قَصد تخصيص مكان أو زمان بالعبادة؛ خصصناه بذلك، كما كان يقصد أن يطوف حول الكعبة، وأن يستلم الحجر الأسود، وأن يصلي خلف المقام، وكان يتحرى الصلاة عند اسطوانة مسجد المدينة، وقصد الصعود على الصفا والمروة والدعاء والذكر هناك، وكذلك عرفة ومزدلفة وغيرهما، وأما ما فعله بحكم الاتفاق ولم يقصده مثل: أن ينزل بمكان ويصلي فيه لكونه نزلَه لا قصدًا لتخصيصه به بالصلاة والنزول فيه؛ فإذا قصدنا تخصيص ذلك المكان بالصلاة فيه أو النزول؛ لم نكن متَّبعين، بل هذا من البدع التي كان ينهى عنها عمر بن الخطاب. . . ؛ فإن المتابعة في النية أبلغ من المتابعة في صورة العمل».

٢) التبرك بذوات الصالحين أو آثارهم أحياء أو أمواتًا.

وما في الصالحين المحققين للتوحيد المتبعين للسُّنّة من بركةٍ؛ فإنها بركة لازمةٌ لهم، تظهرُ في أعمالهم، ولا تتعدى لغيرهم، وقياسُ من قاسهم على رسول اللَّه ﷺ ذي البركة المتعدية؛ قياسٌ فاسدٌ؛ لوجوه:

١- أن هذا قياس مع انتفاء المقاربة بين الفرع والأصل فضلًا عن المساواة المشترطة للعلة في القياس الصحيح، ولو كانت علة القياس

عند من يقول به هي الصلاح؛ فمَن كالنبي ﷺ في الصلاح حتى لو كان المقيس أبا بكر رضي الله عنه، وهو أعظم الأمة إيمانًا وصلاحًا؛ فإنه رضي الله عنه حسنة واحدة من حسنات رسول اللَّه ﷺ، وأعماله كلها في صحيفته ﷺ بل أعمال الأمة كلها.

٢- يعضد هذا الفارق المتيقن بين النبي ﷺ وأي فرد من أخيار أمته: ترك الصحابة للتبرك مع قيام المقتضي وانتفاء المانع بأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وسائر العشرة رضي الله عنهم أجمعين مع علمهم بفضلهم وأنهم خير الأمة بعد نبيها، ومع حرصهم الشديد على الخير وبذل أسبابه، ولو كان خيرًا لسبقونا إليه؛ فهو إجماع منهم، وإجماعهم على الترك مع قيام المقتضي وانتفاء المانع حجة كإجماعهم على الفعل.

٣- أن وصف الصلاح ليس وصفًا منضبطًا حتى يكون علة معتبرة.

٤- أن الصلاح لا يتحقق إلا بصلاح القلب، وهو أمر باطن لا يمكن العلم به إلا بنص، وليس ثمة نص فيمن ظُنَّ صلاحه أو ولايته، هذا إن جاء في الشرع ما يجوّز التبرك بمن تُيقّن صلاحه سوى رسول اللَّه ﷺ، وقد علمتَ أن لا دليل على ذلك.

٣) التبرك بالأمكنة أو الأزمنة غير المباركة شرعًا؛ كالتبرك باتخاذ القبور مساجد أو التمسح بها وتقبيلها وتمريغ الخد عليها، وكالتبرك بيوم الثاني عشر من ربيع الأول.

٤) التبرك بالأمكنة أو الأزمنة المباركة شرعًا بصفة غير شرعية؛ كالتبرك بالكعبة بالتمسح بجدرانها، وكالتبرك بالوقوف بعرفة يوم الثامن من ذي الحجة التماسًا للبركة.

٥) التبرك ببعض الجمادات المتوهمة البركة؛ كأبواب المسجد الحرام أو أستار الكعبة أو شبّاك الحجرة النبوية.

فهذه الأنواع الخمسة؛ إن اعتُقِد أنها أسباب للبركة بإذن اللَّه؛ فهي شرك أصغر، وإن أُعتقد أنها تهب البركة استقلالًا من دون اللَّه؛ فهي شرك أكبر.

عَن أَبِي وَاقِدٍ اللَّيثِيِّ ﵁ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا خَرَجَ إِلَى حُنَينٍ مَرَّ بِشَجَرَةٍ لِلمُشرِكِينَ يُقَالُ لَهَا: ذَاتُ أَنوَاطٍ؛ يُعَلِّقُونَ عَلَيهَا أَسلِحَتَهُم، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اجعَل لَنَا ذَاتَ أَنوَاطٍ كَمَا لَهُم ذَاتُ أَنوَاطٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «سُبحَانَ اللَّهِ، هَذَا كَمَا قَالَ قَومُ مُوسَى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]**، وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ لَتَركَبُنَّ سُنَّةَ مَن كَانَ قَبلَكُم». أخرجه الترمذي (٢١٨٠)، وصححه الألباني.**

في هذا الحديث: بيان ما عليه المشركون من التبرك الشركي بطلب البركة من غير اللَّه على وجه الاستقلال؛ ومن ذلك: أنهم كانوا يعلّقون أسحلتهم ببعض الأشجار لتشتد وتقوى، ويقيمون عندها تعظيمًا لها؛ فلما مرّ بعض الصحابة من حديثي الإسلام على شجرة منها للمشركين يقال لها: ذات أنواط؛ سميت بذلك لأنهم كانوا ينوطون بها أسلحتهم؛ سأل هؤلاء الصحابةُ رسولَ اللَّه ﷺ أن يجعل لهم مثلها بمثل قصد المشركين؛ بدليل قوله ﷺ: «**سُبحَانَ اللَّهِ، هَذَا كَمَا قَالَ قَومُ مُوسَى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾**»، وأقسم على ذلك في رواية أحمد (٢١٨٩٧) بقوله: «**قلتم والذي نفسي بيده..**»، والأصل تماثل المشبَّه بالمشبَّه به إلا لقرينة، ولا قرينة، وإنما لم يكفروا بذلك لأنهم لم يفعلوا، ولو لم يطيعوه واتخذوا مثل شجرة المشركين؛ لكفروا، وإنما ظنوا أنه لو كان اتخاذها واقعًا من رسول اللَّه ﷺ؛ جاز.

فإذا التبس على بعض الصحابة ﵃ بعضُ صور الشرك الأكبر؛

ورسول اللَّه ﷺ بين ظهرانيهم؛ فكيف بغيرهم بعد وفاته.

وفيه: تغليظُه ﷺ عليهم مع جهلهم بحرمته؛ فكيف به ﷺ لو أدرك علماء الضلالة.

وفيه: تسمية النبي ﷺ سؤالَهم طلبًا لجعل إله مع اللَّه مع أنه سمّوها: ذات أنواط؛ فعُلم أن تغيير الأسماء لا يغيّر من الحقيقة شيئًا، وهذا كمن يسمّي دعاء الأموات والذبح لهم والنذر ونحو ذلك تعظيمًا ومحبة.

وفيه: أن المسلم قد يقع في الشرك وهو لا يدري؛ ففيه: وجوب الخوف من الشرك، وأنه لا نجاة من شَرَك الشِرك إلا بالالتجاء إلى اللَّه وتعلم التوحيد تفصيلًا وتعلم الشرك تفصيلًا.

وفيه: إخباره ﷺ بأن الشرك سيقع في هذه الأمة.

وفيه: تحذير الأمة من سلوك سبيل اليهود والنصارى، وتحريم التشبه بأهل الجاهلية، وأن سُنّة أهل الكتاب مذمومة كسنّة المشركين.

وفيه: أن العبد قد يَظنّ في شيء أنه يقرّبه إلى اللَّه وهو أبعد ما يُبعده عن اللَّه ومرضاته.

وعَن عَابِسِ بنِ رَبِيعَةَ عَن عُمَرَ رضي الله عنه أَنَّهُ جَاءَ إِلَى الحَجَرِ الأَسوَدِ، فَقَبَّلَهُ فَقَالَ: إِنِّي أَعلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنفَعُ، وَلَولَا أَنِّي رَأَيتُ النَّبِيَّ ﷺ يُقَبِّلُكَ مَا قَبَّلتُكَ. رواه البخاري (١٥٩٧)، ومسلم (١٢٧٠).

في هذا الأثر: أن استلام الحجر الأسود وتقبيله في هذه الشريعة طاعةٌ للَّه وتعظيمٌ له تعالى، وتأسٍ برسول اللَّه ﷺ لا لطلب البركة، ولا هو من تعظيم الأحجار.

وعلى من يستلم الحجر الأسود والركن اليماني أن تكون تلك نيته

لا التبرك بمسحهما .

وفيه : أصحاب رسول اللَّه كما ربّاهم نبيهم ﷺ لا يُخلون مقامًا يستدعي بيان التوحيد ونفي الشبه عنه وحسم مادة الشرك إلا بيّنوه، وهذا المتعيّن على الخطباء والدعاة وكلِّ متول لولاية شرعية .

وعَنِ المَعرُورِ بنِ سُوَيد قَالَ: خَرَجنَا مَعَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي حَجَّةٍ حَجَّهَا فَقَرَأَ بِنَا فِي الفَجرِ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾، **وَ**﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ **فَلَمَّا قَضَى حَجَّهُ وَرَجَعَ وَالنَّاسُ يَبتَدِرُونَ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ فَقَالُوا: مَسجِدٌ صَلَّى فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: هَكَذَا هَلَكَ أَهلُ الكِتَابِ؛ اتَّخَذُوا آثَارَ أَنبِيَائِهِم بِيَعًا، مَن عَرَضَت لَهُ مِنكُم فِيهِ الصَّلَاةُ؛ فَليُصَلِّ، وَمَن لَم تَعرِض لَهُ مِنكُم فِيهِ الصَّلَاةُ؛ فَلَا يُصَلِّ. رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧٦٣٢)، وصححه الألباني.**

في هذا الأثر : نهيُ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن تتبّع الآثار المكانية لرسول اللَّه ﷺ أو مواضع صلاته لا لقصد شرعي .

وفيه : أن هذا الصنيع من شعار أهل الكتاب .

وفيه : أنه سبب هلاكهم ، وفي هذا : عمق فقه الصحابة ، وأن النجاة كلَّ النجاة في التمسك بغرزهم ؛ فإنهم أعلم هذه الأمة بحق اللَّه وحق رسوله ﷺ ، وأكمل الناس تأدية لحق اللَّه وحق رسوله ﷺ .

وفيه : حماية الخلفاء الراشدين لحمى التوحيد وسدهم طرق الشرك تأسيًا بنبيهم ﷺ ، ومن حماية الفاروق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لجناب التوحيد في هذا الباب أيضًا : ما رواه نافع قال : كان الناس يأتون الشجرة التي يُقال لها : شجرة الرضوان ؛ فيُصلّون عندها ، قال : فبلغ ذلك عمر بن الخطاب ؛ فأوعدهم

فيها، وأمر بها فقُطعت». رواه ابن سعد في «الطبقات» (٢/ ٩٦)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٧٦١٩)، وصحح ابن حجر إسناده عن نافع في «الفتح» (٧/ ٤٤٨).

* * *

٣٠- بابٌ الطِّيَرَةُ شركٌ

أصل الطيرة: زجر الطير قبل المضي في الأمر؛ فإن رأى الطيرَ طار يمنةً؛ تيّمن به ومضى في أمره، وإن طار يَسرةً تشاءم به ورجع، ثم أُطلقت على كل ما أمضى أو ردَّ وليس سببًا حقيقيًّا في الإمضاء أو الرد من الأسماء، والأشخاص، والأزمنة، والأمكنة، والألوان، والأعداد، والمسموعات، والمرئيات كالتشاؤم بصوت البومة، ونعيق الغراب، ويوم الأربعاء، وشهر صفر، وبملاقاة ذوي العاهات أول النهار.

وكل من رتّب على ما وجد في صدره من التشاؤم أو التفاؤل إمضاء أو ردًا؛ فقد وقع في الشرك الأصغر، فإن اعتقد استقلال ما تطيّر به بإيجاد الشر أو الخير؛ فقد وقع في الشرك الأكبر.

فإن لم يثنه تطيّره عن عزمه؛ فلا يخلو؛ إما أن يكون خاطرًا ثم يزول؛ فلا شيء عليه، وإما أن يصيبه الضيق والهم ويتوقع المكروه؛ فهذا محرّم.

وإنما حُرّمت الطيرة لما فيها من تعلق القلب بغير اللَّه، واعتقاد التأثير في غير ذي أثر، ونسبة المضار والقدرة عليها لغير اللَّه، وما تجلبه للمؤمن بها من القلق والهلع وترقّب المكروه، ثم هي سبيل لتمكين الخرافات والأوهام في نفوس العباد، وهذه خِلال لا تنفك عن كل ما يُتعلّق به من دون اللَّه.

وقريب من الطيرة: الاستقسام بالأزلام؛ أي: طلب علم ما قُسم لهم في الغيب بالأزلام، والأزلام: قِداح مكتوب على بعضها: نهاني ربّي، وعلى بعضها: أمرني ربّي؛ فإن خرج القدح الذي عليه مكتوب: «**أمرني ربي**»، مضى لما أراد من سفر أو غزو أو تزويج وغير ذلك، وإن خرج الذي عليه مكتوب: «**نهاني ربي**»، كفّ عن المضي لذلك وأمسك.

ولقد عاضَ اللَّهُ عبادَه من ذلك كلِّه ركعتي الاستخارة ودعاءَها الذي هو توحيد وافتقار وتفويض إلى من بيده مقاليد الأمور، وتمجيد له وإقرار بصفات كماله، وبراءة من الحول والقوة والعلم بما فيه الخير في العاقبة إلا به تعالى؛ فلا ينصرف العبد عنه إلا وقد سكنت نفسُه، وهدأَ بالُه، وأمّل كلَّ خيرٍ، وأحسن ظنَّه بربه غاية الإحسان؛ فاللهم لك الحمد على الإسلام والسنة.

عَن عَبدِ اللَّهِ بنِ مَسعُودٍ ﵁، عَن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ، «الطِّيَرَةُ شِركٌ، الطِّيَرَةُ شِركٌ»، ثَلَاثًا، «وَمَا مِنَّا إِلَّا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُذهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ». أخرجه أبوداود (٣٩١٠) والترمذي (١٦١٤) وابن ماجه (٣٥٣٨)، وصححه الألباني.

في هذا الحديث: وصف التطير بأنه شرك؛ أي: أصغر، وكرر الجملة من باب التوكيد.

قوله: «**وَمَا مِنَّا إِلَّا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُذهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ**»: ذهب جماعة من الحفاظ إلى أن هذه الجملة مدرجة من قول ابن مسعود ﵁ لمنافاتها لعصمة النبي ﷺ من الشرك، وفيها: أن التوكل مُذهِبٌ لأثر الطيرة في النفس، وفيها: ما يقع في النفس بادي الأمر من بعض التطير ولا يحمل على الإمضاء أو الرد؛ لا يكاد يسلم منه أحد.

وعن أبي هريرة ﵁ قال: سَمِعتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا طِيَرَةَ وَخَيرُهَا الفَألُ»، قَالُوا: وَمَا الفَألُ؟، قَالَ: «الكَلِمَةُ الصَّالِحَةُ يَسمَعُهَا أَحَدُكُم». أخرجه البخاري (٥٧٥٤)، ومسلم (٢٢٢٣).

في هذا الحديث: نفي سببيّة الطيرة ونفي تأثيرها؛ فليست سببًا حقيقيًّا للإمضاء أو الرد، وفيه: المنع منها؛ فإنه نفيٌ معناه النهي.

وأما الأحاديث التي فيها إثبات الشؤم في ثلاث كحديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**الشؤم في المرأة والدار والفرس**». أخرجه البخاري (٥٠٩٣)، ومسلم (٢٢٢٥) (١١٥)، وفي لفظ لهما -بالتعليق-: «**إن يكن من الشؤم شيء حق؛ ففي الفرس والمرأة والدار**». رواه البخاري (٥٠٩٤)، ومسلم (٢٢٢٥) (١١٧)، والسياق له، وبنحو هذا اللفظ: حديث سهل بن سعد رضي الله عنه. أخرجه البخاري (٢٨٥٩)، ومسلم (٢٢٢٦)، وحديث جابر رضي الله عنهما. أخرجه مسلم (٢٢٢٧)؛ فأحسن ما قيل فيها:

أن من جنس هذه الثلاث أعيانًا يقدّر اللَّه بها الضر والأذى؛ فيضيق بها من قارنها ويجدُ في نفسه الكراهةَ منها؛ فمن ابتلي بشيء من ذلك؛ أُبيح له تركه والخلاص منه، فلا تعارض بين نفي تأثير الطيرة التي لا تعدو أن تكون سببًا وهميًّا، وبين ما يقع الشؤم فيه بأسباب حقيقية كهذه الثلاث.

وفيه: استحباب الفأل، وهو ما يحدث للإنسان من استبشار وسرور من صوت أو اسم يسمعه أو حال تجري عليه اتفاقًا يؤمل منها الخير ولا يعتمد عليها، مثل: استبشار المريض إذا دخل عليه من اسمه سالم، وطالبِ الضالة إذا سمع من يقول: يا واجد، ومنه: قوله ﷺ في صلح الحديبية لما جاء سهيل بن عمرو -قبل إسلامه- رضي الله عنه: «**لقد سَهُلَ لكم من أَمرِكم**». أخرجه البخاري (٢٧٣٢).

وهو من حسن الظن باللَّه وقوة التوكل عليه، وغايته أنه منشّط ومقوّي، ولا يوجب إمضاء أو ردًا، بخلاف الطيرة، ولهذا قال ﷺ في الفال: «**الكَلِمَةُ الصَّالِحَةُ يَسمَعُهَا أَحَدُكُم**»، ولم يقل: يمضي لأجلها أحدكم، وتفسير الفأل بالكلمة الصالحة من التفسير بالمثال.

وعن معاوية بن الحكم رضي الله عنه قال: قُلتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنِّي حَدِيثُ عَهدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ وَقَد جَاءَ اللَّهُ بِالإِسلَامِ وَإِنَّ مِنَّا رِجَالًا يَأتُونَ الكُهَّانَ؛ قَالَ: «فَلَا تَأتِهِم»، قَالَ: وَمِنَّا رِجَالٌ يَتَطَيَّرُونَ؛ قَالَ: «ذَاكَ شَيءٌ يَجِدُونَهُ فِي صُدُورِهِم؛ فَلَا يَصُدَّنَّهُم» أخرجه مسلم (٥٣٧).

في هذا الحديث: بيان الحد الموقع في الطيرة المنهي عنها؛ وهو الصد عن المقصود.

وفيه: أن ضيق الصدر من الطيرة غيرَ الحامل على الصد؛ ليس شركًا.

وفيه: أن الطيرة وإتيان الكهان من عمل أهل الجاهلية المباين لحال أهل الإسلام، واللَّهُ تعالى إنما نسب التطيرَ في كتابه إلى أعداء رسله -عليهم الصلاة والسلام-: موسى وصالح ورسل أصحاب القرية الذين ذكر في سورة يس.

وفيه: النهي عن إتيان الكهان؛ ولو من من باب الفضول.

* * *

٣١- بابٌ الحلِفُ بغير اللَّه من شعار الجاهلية

الحلف -بسكون اللام وكسرها-: تأكيد الشيء بذكر معظَّم بالواو أو الباء أو التاء؛ وهو تعظيمٌ للمحلوف به، وهو حق اللَّه؛ فلا يحل إلا باللَّه وأسمائه وصفاته، واللَّه تعالى يُقسم بما شاء من مخلوقاته؛ لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

ومن حلف بغير اللَّه؛ فقد أشرك شركًا أصغر؛ فإن قصد الحالف بحلفه تعظيم المحلوف به كتعظيم اللَّه؛ صار بذلك شركًا أكبر.

عن عُمَرَ بن الخطاب رضي الله عنه قال: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَنهَاكُم أَن تَحلِفُوا بِآبَائِكُم»، قَالَ عُمَرُ: فَوَاللَّهِ مَا حَلَفتُ بِهَا مُنذُ سَمِعتُ النَّبِيَّ ﷺ ذَاكِرًا وَلَا آثِرًا. أخرجه البخاري (٦٦٤٧)، ومسلم (١٦٤٦) (١).

في هذا الحديث: توكيده ﷺ على أمته في الزجر عن الحلف بغير اللَّه.

وفيه: شدة مباعدة الصحابة عن الحلف بغير اللَّه بعد علمهم بالتحريم، وقوله: «**ذَاكِرًا وَلَا آثِرًا**»؛ أي: ما حلفتُ بها، ولا حكيتُ ذلك عن غيري.

وأما ما ورد من حلف النبي ﷺ بغير اللَّه في بعض الروايات؛ كلفظة «**أفلحَ وأبيهِ إن صدق**» أو: «**دخل الجنة وأبيه إن صدق**» في حديث طلحة بن عبيد اللَّه رضي الله عنه. أخرجه مسلم (١١) (٩)، ولفظة: «**أَمَا وأبيك لتُنبَّأنَّه..**» في حديث أبي هريرة. أخرجه مسلم (١٠٣٢) (٩٢)؛ فأحسن ما أُجيب به عنها: أنه جارٍ على البراءة الأصلية قبل ورود النهي الناقل عنها الذي دلّ على تأخره: قولُ عمر في حديث الباب وغيرُه.

وذهب جماعة من المحدثين إلى الحكم بشذوذها، ومهما يكن من

شيء؛ فأقلّ ما يقال فيها: إنها من المتشابه؛ فتردّ إلى المحكم الثابت بالسنة الصحيحة المستفيضة كما هي طريقة الراسخين في العلم.

وعن ابن عُمَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَن كَانَ حَالِفًا فَلَا يَحلِف إِلَّا بِاللَّهِ»، وَكَانَت قُرَيشٌ تَحلِفُ بِآبَائِهَا، فَقَالَ: «لَا تَحلِفُوا بِآبَائِكُم». أخرجه البخاري (٣٨٣٦)، ومسلم (١٦٤٦).

في هذا الحديث: عموم النهي عن الحلف إلا باللَّه فإن «مَن» الشرطية من صيغ العموم؛ فلا يحلف بنبيٍّ ولا ملَك ولا بالكعبة ولا بالوالدين أو تربتهما ولا بالشرف ولا بأي مخلوق.

وفيه: من حلف بغير اللَّه؛ فقد شابه أهل الجاهلية.

وعَن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَن حَلَفَ مِنكُم فَقَالَ فِي حَلِفِهِ: بِاللَّاتِ وَالعُزَّى؛ فَليَقُل: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَمَن قَالَ لِصَاحِبِهِ: تَعَالَ أُقَامِرك؛ فَليَتَصَدَّق». أخرجه البخاري (٦١٠٧)، ومسلم (١٦٤٧).

في هذا الحديث: كفارة الحلف بغير اللَّه أن يقول: لا إله إلا اللَّه، لما فيه من مضاهاة الكفار، وليس ذلك تجديدًا لإسلامه؛ فلا دلالة فيه على أن مطلق الحلف بغير اللَّه شرك أكبر.

وإنما خصّت اللات والعزى بالذكر؛ لأنهما أكثر ما كان يجري على ألسنتهم، وحكم غيرهما مما يحلف به الناسُ حكمهما.

وعَن بُرَيدَةَ بن الحُصَيبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَن حَلَفَ بِالأَمَانَةِ فَلَيسَ مِنَّا». أخرجه أبو داود (٣٢٥٣)، وصححه الألباني.

في هذا الحديث: البراءة من الحالف بالأمانة، وقوله ﷺ في غير

حديث: «**لَيسَ مِنَّا**»؛ أي: ليس على طريقتنا؛ فليس هو من المؤمنين الذين كمُل إيمانهم الواجب؛ بل من الظالمين لأنفسهم؛ فهو معرَّض للوعيد.

* * *

٣٢- بابٌ من الشرك: قول: ما شاء اللَّهُ وشئتَ، ونحوه

هذا الباب معقودٌ لبيان نوع من شرك الألفاظ، هو: قرن غير اللَّه باللَّه بالواو في الأمور القدرية، **ومن صوره:** عطف مشيئة المخلوق على مشيئة اللَّه بالواو، **وحكمه:** أنه شرك أصغر لما فيه من التسوية اللفظية بين الخالق والمخلوق، ما لم يُعتقد أن المعطوف مساو للَّه؛ فيكون شركًا أكبر.

وهذا مع أن اللَّه قد أثبت في كتابه للعبد مشيئة؛ فكيف بمن يقول لمخلوق مثله: أنا متوكل على اللَّه وعليك، أو: ما لي إلا اللَّه وأنت، أو: هذا من اللَّه ومنك، أو: هذا من بركات اللَّه وبركاتك، أو: اللَّه لي في السماء وأنت في الأرض، والعياذ باللَّه.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يُرَاجِعُهُ الكَلَامَ، فَقَالَ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ، فَقَالَ: «جَعَلْتَنِي لِلَّهِ عَدلًا، مَا شَاءَ اللَّهُ وَحدَهُ». أخرجه ابن ماجه (٢١١٧) وأحمد (٣٢٤٧)، وصححه الألباني، واللفظ لأحمد، وفي لفظ له: «أَجَعَلتَنِي وَاللَّهَ عَدلًا؟، بَل مَا شَاءَ اللَّهُ وَحدَهُ».

في هذا الحديث: شدة إنكاره ﷺ على من وقع في شرك الألفاظ؛ فكيف بما هو أكبر منه، فهو استفهام إنكار مضمّن معنى التعجب.

وفيه: من سوّى العبد باللَّه في اللفظ؛ فقد جعله ندًّا له؛ فكيف بمَن عبدَ مع اللَّه غيرَه.

وفيه: أن الأكمل قول: ما شاء اللَّه وحده، وإن كان يجوز قول: ما شاء اللَّه ثم شاء فلان؛ لانتفاء التسوية بين المتعاطفين.

وفيه: شدة إنكاره ﷺ على من تجاوز الحد الشرعي أدنى تجاوز في

وصفه؛ فكيف بمن قال مخاطبًا رسولَ اللَّه ﷺ في قصيدة ما زالت إلى يومنا تُعظّم ويعتقد فئامٌ أن قراءتها من أجلّ القربات:

يا أكرمَ الخلق ما لي من أَلوذ به   سواك عند حلولِ الحادثِ العَمم
إن لم تكن في معادي آخذًا بيدي   فضلًا وإلا فقل: يا زلةَ القدم
فإن مِن جودك الدنيا وضرَّتها   ومِن علومك علمَ اللوح والقلم

وما أصدقه من خطاب، وما أحق المخاطَب به لو كان مصدَّرًا بـ: يا خالق الخلق....

وكيف بمن قال -والعياذ باللَّه مما قال-:

يا صاحب القبر المنير بيثرب   يا منتهى أملي وغاية مطلبي
يا من نرجّيه لكشف عظيمة   ولحل عقد ملتو متعصب
يا من يجود على الوجود بأنعم   خضر تعم عموم صوب الصيّب
يا غوث من في الخافقين وغيثهم   وربيعهم في كل عام مجدب
يا رحمة الدنيا وعصمة أهلها   وأمان كل مشرّق ومغرّب
يا من نناديه فيسمعنا على   بعد المسافة سمع أقرب أقرب
يا سيدي إني رجوتك ناصرًا   من جور دهر خائن متقلب
فأقل عثار عُبيدك الداعي الذي   يرجوك إذ راجيك غير مخيَّب
واكتب له ولوالديه براءة   من حر نار جهنم المتلهب

فبالله؛ ماذا أبقى هؤلاء لخالقهم سبحانه من الأمر، وبم افترقوا عن النصارى الغالين في عيسى -عليه الصلاة والسلام-؟!.

وفي الحديث: إثبات المشيئة للمخلوق، وهي تابعة لمشيئة اللَّه.

وفيه: حمايته ﷺ لحمى التوحيد، وسده طرق الشرك الأكبر.

وعَن طُفَيلِ بنِ سَخبَرَةَ أَخِي عَائِشَةَ لأُمِّهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنهُمَا أَنَّهُ رَأَى فِيمَا يَرَى النَّائِمُ كَأَنَّهُ مَرَّ بِرَهطٍ مِنَ اليَهُودِ، فَقَالَ: مَن أَنتُم؟ قَالُوا: نَحنُ اليَهُودُ، قَالَ: إِنَّكُم أَنتُمُ القَومُ لَولَا أَنَّكُم تَزعُمُونَ أَنَّ عُزَيرًا ابنُ اللَّه، فَقَالَتِ اليَهُودُ: وَأَنتُمُ القَومُ لَولَا أَنَّكُم تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، ثُمَّ مَرَّ بِرَهطٍ مِنَ النَّصَارَى، فَقَالَ: مَن أَنتُم؟ قَالُوا: نَحنُ النَّصَارَى، فَقَالَ: إِنَّكُم أَنتُمُ القَومُ لَولَا أَنَّكُم تَقُولُونَ المَسِيحُ ابنُ اللَّهِ، قَالُوا: وَأَنتُمُ القَومُ لَولَا أَنَّكُم تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ مُحَمَّدٌ، فَلَمَّا أَصبَحَ أَخبَرَ بِهَا مَن أَخبَرَ، ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَخبَرَهُ، فَقَالَ: «هَل أَخبَرتَ بِهَا أَحَدًا؟» قَالَ: نَعَم؛ فَلَمَّا صلَّوا، خَطَبَهُم فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثنَى عَلَيهِ، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ طُفَيلًا رَأَى رُؤيَا فَأَخبَرَ بِهَا مَن أَخبَرَ مِنكُم، وَإِنَّكُم كُنتُم تَقُولُونَ كَلِمَةً كَانَ يَمنَعُنِي الحَيَاءُ مِنكُم أَن أَنهَاكُم عَنهَا»، قَالَ: «لَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ مُحَمَّدٌ». أخرجه ابن ماجه (٢١١٨م)، وأحمد (٢٠٦٩٤)، والسياق له، وصححه الألباني.

في هذا الحديث: النهي عن قول: ما شاء اللَّه وما شاء فلان.

وفيه: أنه ﷺ كان يكره قول من يقوله من أصحابه ويستحيي أن ينهاهم؛ لأنه لم يكن قد جاءه عن اللَّه تعالى نهي عن ذلك؛ فلما رأى طفيل رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ ما رأى؛ استدل ﷺ برؤياه على تحريم اللَّه له، وأنه تنديدٌ على المسلم اجتنابه.

وفيه: أنه ليس شركًا أكبر؛ إذ لو كان كذلك؛ لما تأخر ﷺ في النهي عنه.

وفيه: أهل الإسلام أولى الناس بتحقيق التوحيد والحذر من الشرك اللفظي وغير اللفظي.

وفيه: الرؤى لا تثبت بها الأحكام الشرعية ما لم يقرّها رسولُ اللَّه ﷺ.

* * *

٣٣- بابٌ من الشرك: نسبة التسبّب بإنزال المطر إلى النجوم

النجوم ليست سببًا حقيقيًّا في نزول المطر؛ فمن نسبَ التسبب بإنزال المطر إلى النجوم معتقدًا أن اللَّه منزّله وإنما هي سبب؛ فقد وقع في الشرك الأصغر، فإن اعتقد استقلالها بإنزال المطر كما هو اعتقاد الصابئة يعتقدون أن النجوم تدبر الكون؛ فقد أشرك شركًا أكبر، وهو شرك في الربوبية.

أما نسبة الأسباب الحقيقية التي تقع من المخلوق إليه مع اعتقاد كونه سببًا، وتعلق القلب باللَّه وحده؛ فلا بأس بها، مثل: أن يقول فيمن أنقذه من الغرق: لولا فلان لغرقت، والدليل: قول اللَّه تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وحديث العباس رضي الله عنه أنه قال: يا رسول اللَّه، هل نفعت أبا طالب بشيء؛ فإنه كان يحوطُك ويغضبُ لك؟، قال: «**نعم، هو في ضحضاحٍ من نارٍ، ولولا أنا لكان في الدّركِ الأسفلِ من النارِ**». أخرجه البخاري (٦٢٠٨)، ومسلم (٢٠٩) (٣٥٧).

ولا يجوز أن يقول: لولا اللَّه وفلان لغرقت؛ لأن قرن غير اللَّه باللَّه بالواو في الأمور القدرية من الشرك اللفظي الأصغر.

وقول اللَّه -تعالى-: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢].

أي: وتجعلون شكركم للَّه على ما رزقكم من نِعَمه أنّكم تكذبون بها.

ومنها: نعمة الغيث؛ فتنسبونها إلى غيره من النجوم والكواكب.

وعَن زَيدِ بنِ خَالِدٍ الجُهَنِيِّ رضي الله عنه قَالَ: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبحِ بِالحُدَيبِيَةِ فِي إِثرِ السَّمَاءِ كَانَت مِنَ اللَّيلِ، فَلَمَّا انصَرَفَ أَقبَلَ عَلَى النَّاسِ؛ فَقَالَ: «هَل تَدرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُم؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعلَمُ، قَالَ: «قَالَ: أَصبَحَ مِن

عِبَادِي مُؤمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَن قَالَ: مُطِرنَا بِفَضلِ اللَّهِ وَرَحمَتِهِ؛ فَذَلِكَ مُؤمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالكَوكَبِ، وَأَمَّا مَن قَالَ: مُطِرنَا بِنَوءِ كَذَا وَكَذَا؛ فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤمِنٌ بِالكَوكَبِ». أخرجه البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١)، وفي رواية له: «فَنَزَلَت هَذِهِ الآيَةُ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ حتَّى بلَغ: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٧٥-٨٢]».

في هذا الحديث: من نسب التسبب بإنزال المطر إلى النجوم؛ فقد كفر بالله الكفر الأصغر؛ فإن اعتقد استقلالها بإنزاله؛ فقد كفر بالله الكفر الأكبر، وهو الذي كان يعتقده أهل الجاهلية.

فإن أَطلق هذه الكلمة: مطرنا بنوء كذا؛ من يريد بالباء الظرفية؛ أي: في وقت خروج النجم؛ فلا يكون كفرًا، لكن يحرم سدًا للذريعة.

وبه يظهر جواز قولهم: مطرنا في نوء كذا، ففرقٌ بين ادعاء تسبّب النوء المعين في نزول المطر، وبين الإخبار عن النوء المعين بأنه وقت لنزول المطر.

وعن أبي مالك الأشعريّ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَربَعٌ فِي أُمَّتِي مِن أَمرِ الجَاهِلِيَّةِ لَا يَترُكُونَهُنَّ: الفَخرُ فِي الأَحسَابِ، وَالطَّعنُ فِي الأَنسَابِ، وَالاستِسقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ». أخرجه مسلم (٩٣٤).

في هذا الحديث: أن من خصال الجاهلية الباقية في مجموع الأمة لا جميعها: الاستسقاء بالنجوم.

وفيه: ذمّ ما كان عليه أهل الجاهلية، وذمّ من لم يتخلّ عن أعمالهم من هذه الأمة.

وفيه: أن المسلم قد يكون فيه شيء من خصال الجاهلية؛ ولا يقتضي ذلك كفرَه.

والفخر بالأحساب هو: التعاظم بالآباء والأجداد ومآثرهم، والطعن في الأنساب هو: عيبها أو نفي نسبة فلان لآل فلان على جهة القدح، والنياحة هي: رفع الصوت بتعديد محاسن الميت على وجه التسخط.

* * *

٣٤- باب ما جاء في سب الدّهر والرّيح

الدهر والريح مخلوقان مدَّبَران لا تصرف لهما؛ فمن سبّهما؛ فقد سب مدَّبِرهما -جل وعلا-، وسبهما يتضمن اعتقاد أن لهما تصرفًا وتدبيرًا مع اللَّه؛ فالساب مرتكب لأحد أمرين إما مسبة اللَّه أو الشرك، ومِن سب الدهر: قول القائل: لعن اللَّهُ الساعة أو اليوم الذي جرى فيها كذا وكذا، ويقاس على سبّ الريح: سبّ الشمس والقمر والسحاب وكلِ مخلوق مدبَّر لا تصرف له.

عَن أَبِي هُرَيرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ اللَّهُ ﷻ: يُؤذِينِي ابنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهرَ وَأَنَا الدَّهرُ، بِيَدِي الأَمرُ أُقَلِّبُ اللَّيلَ وَالنَّهَارَ». أخرجه البخاري (٤٨٢٦)، ومسلم (٢٢٤٦).

في هذا الحديث: الزجر عن سب الدهر، وأن الدهر ليس سببًا حقيقيًّا لحصول الأقدار؛ فمن ذمَّه لأنه محل للشر معتقدًا أنه سببٌ؛ فقد أشرك شركًا أصغر، وإن اعتقد استقلاله بتقليب الأمور إلى الخير والشر؛ فقد أشرك شركًا أكبر؛ لأنه اعتقد مع اللَّه خالقًا.

أما إن وصفَ الدهرَ بالشدة أو الغلظة أو الشر؛ وقصد به الخبر المحض دون لوم؛ فهذا جائز، مثل أن يقول: تعبنا من شدة حرّ هذا اليوم، والدليل: قوله تعالى: ﴿فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ﴾ [فصلت: ١٦]، وقول يوسف ﵇ فيما حكى اللَّه عنه: ﴿سَبۡعٞ شِدَادٞ﴾ [يوسف: ٤٨]، وقول لوط ﵇ فيما حكى اللَّه عنه: ﴿هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ﴾ [هود: ٧٧].

وفيه: مَن سب الدهر؛ فقد آذى اللَّه، ولا يلزم من ثبوت الأذية ثبوت الضرر؛ فإن إلحاق الضرر باللَّه محالٌ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ

عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـًٔا﴾ [محمد: ٣٢].

وليس في الحديث: أن الدهر من أسماء اللَّه؛ فإن الدهر هو الليل والنهار، واللَّه مقلِّب الليل والنهار، ولا يكون المقلَّب هو المقلِّب، وأسماء اللَّه حسنى، والدهر اسمٌ جامد ليس مشتقًّا؛ فلا يتضمن صفاتٍ فضلًا عن أن تكون صفاتِ كمالٍ.

وعنه رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «لَا تَسُبُّوا الرِّيحَ؛ فَإِنَّهَا مِن رَوحِ اللَّهِ، تَأْتِي بِالرَّحمَةِ وَالعَذَابِ، وَلَكِن سَلُوا اللَّهَ مِن خَيرِهَا وَتَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِن شَرِّهَا». أخرجه أبوداود (٥٠٩٧)، وابن ماجه (٣٧٢٧)، واللفظ له، وصححه الألباني.

في هذا الحديث: النهي عن سب الريح لأنها مأمورة، وحكم سبّها هو ذات حكم سب الدهر، وقوله: «**مِن رَوحِ اللَّهِ**»؛ أي: من رحمته وفرجه.

وليس مِن سبِّها: وصفها بالشدة ونحوها من باب الخبر المحض؛ لقوله تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١].

وفيه: الأمر بسؤال اللَّه من خيرها والتعوذ من شرها.

وفيه: وجوب التسليم لقضاء اللَّه تعالى.

* * *

٣٥- باب ما جاء في الرِّياء والسُّمعة

هذا شروعٌ بأبواب الشرك الأصغر الخفي، وهما بابان.

الرياء: التعبّد للَّه لأجل رؤية الناس؛ وذلك فيما يُرى كالصلاة والصدقة، والسمعة: التعبّد للَّه لأجل إسماع الناس، وذلك فيما يُسمع كالقراءة والذكر والوعظ، وحكمهما واحدٌ.

ومن ذلك: تحسين العمل في الظاهر وإطالته والإخبار عنه بقصد نيل الثناء.

والرياء نوعان:

١) **رياء أكبر**؛ هو رياء المنافقين، يدخل أحدُهم في الإسلام ظاهرًا بقصد إحراز دمه وماله، ولا يأتي بعبادة إلا مراءةً للمسلمين.

٢) **رياء المسلم ببعض عمله**، ويحدّه بعضُ العلماء بيسير الرياء، وهو المراد في هذا الباب، وحكمه أنه شرك أصغر.

وقول اللَّه -تعالى-: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

في هذا الآية: يأمر اللَّه نبيه محمدًا ﷺ أن يقول لهؤلاء المشركين المكذبين برسالته: إنما أنا بشر مثلكم من بني آدم يُوحى إلي أن معبودكم الحق معبودٌ واحد لا شريك له؛ فمن كان يخاف عذاب اللَّه ويرجو ثوابه يوم لقائه؛ فليعمل عملًا موافقًا لشرعه خالصًا لوجهه، ولا يشرك بعبادته أيَّ أحد.

وفيها: الأمر بالعمل الصالح، ولا يكون العمل صالحًا متقبَّلًا إلا باستكمال شرطين: أن يكون خالصًا للَّه لا رياء فيه ولا سمعة، وأن

يكون صوابًا موافقًا لهدي رسول اللَّه ﷺ، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٨]، قال الإمام الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أخلصه وأصوبه؛ فإنه إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا؛ لم يُقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا؛ لم يُقبل حتى يكون خالصًا؛ والخالص إذا كان للَّه، والصواب إذا كان على السنّة. رواه في «حلية الأولياء» (٨/ ٩٥)؛ فتضمن قولُه: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ فيما تضمن: النهيَ عن الرياء والسمعة.

وفيها: النهي عن الإشراك في عبادة اللَّه أيَّ إشراك؛ فإن قوله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ﴾: نهي دخل على الفعل المضارع؛ فأفاد عمومَ المصدر؛ فيعمّ كلَّ أنواع الشرك، ومنها: الرياء؛ فدلت الآية على النهي عن الرياء في موضعين منها.

وقوله: ﴿أَحَدًا﴾ نكرة في سياق النهي؛ فتعم كل المعبودات؛ أي: لا يشرك به أيَّ معبود؛ لا صالحًا ولا غير صالح، ولا بشرًا ولا حجرًا ولا غيرهما، وفي قوله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ﴾: استدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية.

ففي هذه الآية: بيان الأصلين العظيمين: أن لا يُعبد إلا اللَّه؛ بقوله تعالى: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، وألا يُعبد اللَّه إلا بما شرع؛ بقوله تعالى: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾.

وفيها: الجمع بين الشهادة بأن لا إله إلا اللَّه في قوله تعالى: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، والشهادة بأن محمدًا عبده ورسوله في قوله: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾.

وعَن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ اللَّهُ -تَبارَكَ وَتَعالَى-: أَنَا أَغنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّركِ، مَن عَمِلَ عَمَلًا أَشرَكَ فِيهِ مَعِي غَيرِي، تَرَكتُهُ

وَشِركَهُ». أخرجه مسلم (٢٩٨٥).

في هذا الحديث: ردّ كل عمل خالطه الرياء أو غيره من أنواع الشرك على صاحبه، وعدمُ قبوله؛ فإن قوله: **«مَن عَمِلَ عَمَلًا»**: نكرة في سياق الشرط؛ فتعم كل الأعمال التي خالطها الرياء، وهو مبطل للعمل ما لم يطرأ خاطرًا في أثناء العمل ويدفعه العامل، **وفي هذا**: المنع من التشريك بالرياء في العمل الصالح مطلقًا، أما التشريك بإرادة الدنيا في العمل الصالح؛ ففيه تفصيل كما سيأتي..

وفيه: تسمية الرياء شركًا.

وفيه: كمال غنى اللَّه من جميع الوجوه، ومن كمال غناه: تنزّهه عن أن يقبل العملَ الذي جُعل له فيه شريك.

وفيه: لا يرجع المرائي من عمله الذي راءى فيه كفافًا لا له ولا عليه، بل يأثم به.

وعنه رضي الله عنه قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقضَى يَومَ القِيَامَةِ عَلَيهِ رَجُلٌ استُشهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلتُ فِيكَ حَتَّى استُشهِدتُ، قَالَ: كَذَبتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلتَ لِأَن يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَد قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجهِهِ حَتَّى أُلقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ العِلمَ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ القُرآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمتُ العِلمَ، وَعَلَّمتُهُ وَقَرَأتُ فِيكَ القُرآنَ، قَالَ: كَذَبتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمتَ العِلمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأتَ القُرآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَد قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجهِهِ حَتَّى أُلقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيهِ، وَأَعطَاهُ مِن أَصنَافِ المَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكتُ

مِن سَبِيلٍ تُحِبُّ أَن يُنفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنفَقتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَد قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجهِهِ، ثُمَّ أُلقِيَ فِي النَّارِ». **أخرجه مسلم** (١٩٠٥) (١٥٢).

في هذا الحديث: عظيم خطر الرياء، وأنه محبط للأعمال.

وفيه: سوء عاقبة المرائي، وما يناله من الخزي والفضيحة والعذاب يوم القيامة، وكفى بذلك زاجرًا عن الرياء لكل ناصح لنفسه؛ فإذا علمتَ أن تلك العاقبة الوخيمة هي جزاء المجاهد والعالم والجواد يوم القيامة وهم من هم في نفع الإسلام والمسلمين لمّا ابتنوا أعمالَهم على أساس مراءة الخلق، أورثك ذلك خوفًا منه يلازمك، ومراقبة لنيتك لا تنفكّ عنك، نعوذ بك اللهم منه.

وعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه **قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ** ﷺ: **«مَن سَمَّعَ سَمَّعَ اللَّهُ بِهِ، وَمَن رَاءَى رَاءَى اللَّهُ بِهِ». أخرجه مسلم** (٢٩٨٦).

في هذا الحديث: سوء عاقبة المرائي والمُسَمِّع، وقوله: **«سَمَّعَ اللَّهُ بِهِ، و... رَاءَى اللَّهُ بِهِ»**؛ أي: فضحه وكشف أمره للناس، وهو خبر عام غير خاص بالآخرة.

* * *

٣٦- باب ما جاء في إرادة الدنيا بعمل الآخرة

هذا الباب والذي قبله متفقان في العمل لغير وجه اللَّه، وأنهما من الشرك الأصغر الخفي، ويفترقان في أن الرياء يُراد به الشهرة والجاه، وإرادة الدنيا بعمل الآخرة يُراد بها الأعراض العاجلة من مال ووظيفة ونحوهما.

ومن صوره: التصدق لا لشيء إلا حفظ المال وتنميته، والحج لا لشيء إلا للمال والتجارة، أما إرادة الدنيا بجميع أعمال الآخرة؛ فلا يصدر من مؤمن.

وأما التشريك بين النية الدنيوية والنية الأخروية في العمل الصالح؛ فله أحوال:

أولها: أن يقصد مع النية الأخروية ما هو حاصلٌ تبعًا بالعمل كالحمية بالصيام، والتبرد والتنظف بغسل الجمعة؛ فهذا لا يضرّه.

ثانيها: أن يقصد مع النية الأخروية ما أَذن الشرعُ بقصده بالعمل الصالح كالولد والسقيا بالاستغفار، والمغنم بالجهاد، وبسط الرزق وطول العمر بصلة الرحم؛ فهذا لا يُحبِط العملَ بشرط ألا تغلب النيةُ الدنيويةُ نيةَ الآخرةِ، إلا أنه يُنقص الأجرَ؛ لحديث عبد اللَّه بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**ما من غازيةٍ تغزو في سبيل اللَّه؛ فيُصيبون الغنيمةَ إلا تعجّلوا ثلثي أجرِهم من الآخرة، ويبقى لهم الثلثُ، وإن لم يصيبوا غنيمة؛ تمّ لهم أجرُهم**». أخرجه مسلم (١٥٣) (١٩٠٦)؛ فإن لم يُرد إلا الآخرة؛ وحصل له الأمر الدنيوي؛ لم ينقص بذلك أجرُه.

ثالثها: أن يقصد مع النية الأخروية ما لم يأذن الشرعُ بقصده كالوظيفة بطلب العلم الشرعي والسكن بالإمامة، والراتب بالأذان؛ فهذا يقدح في الإخلاص.

لكن من أتى بالعمل مخلصًا نيته للَّه، وأخذ على عمله ما يستعين به على ذلك العمل؛ فهذا لا يضرّه؛ لأنه لم يُرِد بعمله الدنيا، وإنما أراد الدينَ، واستعان بما حصّل من الدنيا على قيام الدين، كمن أخذ المال ليَحجَّ، وهذا بخلاف من حجّ ليأخذ المالَ.

وأما التشريك بين نيتين أو أكثر من نيات الآخرة في العمل الصالح كالصوم للأجر وغض البصر؛ فهذا بابٌ من أبواب التوفيق، وصاحبه مأجور عليهما.

وقول اللَّه -تعالى-: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [هود: ١٥-١٦].

في هذه الآية: أن إرادة الدنيا وزينتها بجميع أعمال الآخرة دون اللَّه والدار الآخرة محبطة لها، وليس لأهلها نصيب غير مرادِهم والنارِ.

وظاهر الآية أنها في الكفار، وبه قال جماعة من السلف، قال أنس بن مالك رضي الله عنه: نزلت في اليهود والنصارى. رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠٧٣٦).

ومن طريقة السلف وأهل العلم: الاستدلال بآيات نزلت في الكفر الأكبر على الكفر الاصغر، وبما نزل في الكفار على من شابههم من المسلمين، ولا يلزم من ذلك تكفيرهم.

وفيها: كل عمل لا يقصد به وجه اللَّه؛ فهو باطل.

وعَن أُبَيِّ بنِ كَعبٍ رضي الله عنه قالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بَشِّر هَذِهِ الأُمَّةَ بِالسَّنَاءِ وَالرِّفعَةِ وَالدِّينِ وَالنَّصرِ وَالتَّمكِينِ فِي الأَرضِ»، وَهُوَ يَشُكُّ فِي السَّادِسَةِ، قَالَ: «فَمَن عَمِلَ مِنهُم عَمَلَ الآخِرَةِ لِلدُّنيَا؛ لَم يَكُن لَهُ فِي الآخِرَةِ نَصِيبٌ». أخرجه

أحمد (٢١٢٢٠)، وصححه الألباني.

في هذا الحديث: إرادة الدنيا وزينتها بالعمل الأخروي محبطة له.

وفيه: كل عمل لا يقصد به وجه الله؛ فهو باطل.

وفيه: بشارة هذه الأمة بظهور هذا الدين وقوته وبثباتهم عليهم ونصرهم والتمكين لهم في الأرض.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تَعِسَ عَبدُ الدِّينَارِ وَعَبدُ الدِّرهَمِ وَعَبدُ الخَمِيصَةِ، إِن أُعطِيَ رَضِيَ وَإِن لَم يُعطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانتَكَسَ وَإِذَا شِيكَ فَلَا انتَقَشَ، طُوبَى لِعَبدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَشعَثَ رَأسُهُ مُغبَرَّةٍ قَدَمَاهُ؛ إِن كَانَ فِي الحِرَاسَةِ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ، وَإِن كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ؛ إِن استَأذَنَ لَم يُؤذَن لَهُ، وَإِن شَفَعَ لَم يُشَفَّع». أخرجه البخاري (٢٨٨٧).

في هذا الحديث: من علّق قلبه بشيء من الدنيا؛ إن وُجد رضي، وإن فُقد سخط؛ فهو عبدٌ له، وهذا إن حصل من المسلم في بعض عمله الأخروي كان شركًا أصغر، وقوله: «**تَعِسَ وَانتَكَسَ**»؛ أي: خاب وهلك ولا زال في انتكاس، و«**وَإِذَا شِيكَ فَلَا انتَقَشَ**»؛ أي: إذا دخلت فيه شوكة؛ فلا قدر على إخراجها، وهذا دعاء منه ﷺ عليه بلفظ الخبر.

وفيه: ذم العمل لأجل الدنيا، ومدح العمل للآخرة، وقوله: «**إِن كَانَ فِي الحِرَاسَةِ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ وَإِن كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ**»: أي: أينما أُقيم؛ قام بما عليه غيرَ مقصرٍ ولا غافلٍ ولا طامعٍ في شريف المقامات رغبةً في ثواب الله وطلبًا لمرضاته ومحبة لطاعته، ولو كان عمله حراسة الجيش أو البقاء آخره، وهما من أشد أعمال الجند مشقة.

٣٧- باب ما جاء في الزجر عن كلّ ما ينافي تعظيم الله

هذا الباب معقود لبيان مناهٍ لفظية تنافي الكمال الواجب لتعظيم اللَّه.

عَن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَخنَعَ اسمٍ عِندَ اللَّهِ رَجُلٌ تَسَمَّى مَلِكَ الأَملَاكِ، لَا مَالِكَ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ». أخرجه البخاري (٦٢٠٦)، ومسلم (٢١٤٣)، واللفظ له.

في هذا الحديث: تحريم التسمي بملك الأملاك أو ملك الملوك وكلِّ ما دل على الغاية في العظمة كـ«قاضي القضاة» ونحوه لما فيه من سوء الأدب مع اللَّه، وقوله: «**أخنع**»؛ أي: أذلّ وأوضع.

أما ما دل على العظمة المقيَّدة ببلد أو علم أو فئة، مثل: قاضي قضاة الشام؛ فلا بأس به.

وعنه رَضِيَ اللهُ عَنهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «لَا يَقُل أَحَدُكُم: اللَّهُمَّ اغفِر لِي إِن شِئتَ، ارحَمنِي إِن شِئتَ، ارزُقنِي إِن شِئتَ، وَلِيَعزِم مَسأَلَتَهُ، إِنَّهُ يَفعَلُ مَا يَشَاءُ، لَا مُكرِهَ لَهُ». أخرجه البخاري (٧٤٧٧)، ومسلم (٢٦٧٩) (٨)، واللفظ للبخاري، ولمسلم: «إِذَا دَعَا أَحَدُكُم فَلَا يَقُل: اللَّهُمَّ اغفِر لِي إِن شِئتَ، وَلَكِن لِيَعزِمِ المَسأَلَةَ وَلِيُعَظِّمِ الرَّغبَةَ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيءٌ أَعطَاهُ».

في هذا الحديث: تحريم تعليق الدعاء بالمشيئة لما فيه من إشعار ضعف الافتقار إلى اللَّه وقله الرغبة في عطاء اللَّه وفضله، ولما فيه من إيهام أن اللَّه سبحانه يتعاظمه هذا المطلوب أو يعطي شيئًا عن كراهة؛ كما يكون في سؤال المخلوق للمخلوق يعلّق مسألته على مشيئة المسؤول مخافةَ أن يكون السؤالُ أكبر من المسؤول أو يعطيه وهو كاره، أما اللَّه -تبارك وتعالى-؛

فهو واسع الفضل، الغني عن جميع خلقه، أكرم الأكرمين، يفعل ما يريد، وهاتان العلتان منصوص عليهما في الحديث.

وعَن عَبدِ اللَّهِ بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا إِذَا كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الصَّلَاةِ، قُلنَا: السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ مِن عِبَادِهِ، السَّلَامُ عَلَى فُلَانٍ وَفُلَانٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَقُولُوا السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّلَامُ..». أخرجه البخاري (٨٣٥)، ومسلم (٤٠٢).

في هذا الحديث: تحريم قول: السلام على اللَّه؛ لأن اللَّه هو السلام المنزّه عن كل نقص، وهو واهب السلامة؛ فكيف تطلب له السلامة، وهو المدعو؛ فكيف يدعى له.

وفيه: أن حسن قصد المتكلم لا يمنع الإنكار عليه إذا خالف الشرع.

وعَن جُندَبِ بن عبد اللَّه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَدَّثَ «أَنَّ رَجُلًا قَالَ: وَاللَّهِ لَا يَغفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ، وَإِنَّ اللَّهَ -تعالى- قَالَ: «مَن ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَن لَا أَغفِرَ لِفُلَانٍ؛ فَإِنِّي قَد غَفَرتُ لِفُلَانٍ، وَأَحبَطتُ عَمَلَكَ» أَو كَمَا قَال. أخرجه مسلم (٢٦٢١).

في هذا الحديث: تحريم الحلف على اللَّه على جهة الحجر عليه والإدلال عليه لما فيه من سوء الأدب مع اللَّه وسوء الظن به، وتحجّرِ فضله، والإعجاب بالنفس، وقوله: «**يتألّى**»؛ أي: يحلف.

أما الحلف على اللَّه على جهة حسن الظن به تعالى وقوة رجائه؛ فجائزٌ؛ لحديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن الرُّبَيِّع -وهي ابنةُ النَّضر- كسرت ثنيةَ جاريةٍ؛ فطلبوا الأرشَ، وطلبوا العفوَ؛ فأبوا؛ فأتوا النبيَّ ﷺ؛ فأمرهم بالقصاص؛ فقال أنسُ بن النَّضر: أتُكسَر ثنيةُ الرُبيِّعِ يا رسول اللَّه؟، لا والذي بعثك

بالحق لا تُكسَر ثنيتُها ؛ فقال : «**يا أنس ، كتاب اللَّه القصاص**» ؛ فرضيَ القوم وعفوا ؛ فقال النبيُّ ﷺ : «**إنّ من عباد اللَّه مَن لو أقسمَ على اللَّه لأَبرَّه**» . أخرجه البخاري (**٢٧٠٣**)، ومسلم (**١٦٧٥**)، واللفظ للبخاري .

وفيه : وجوب رعاية حسن الأدب مع اللَّه -تبارك وتعالى- في الأقوال والأحوال .

وفيه : أن عمل العبد قد يحبط لأجل كلمة لا يلقي لها بالًا .

* * *

٣٨- بابٌ السِّحرُ من نواقض التوحيد

هذا شروعٌ في أبواب نواقض التوحيد، وعدّتها أربعة أبواب، وهي آخر الكتاب.

السحر من عمل الشيطان، وهو نوعان: سحر العطف وسحر الصرف، وهما في الحكم سواء.

وحكمه: أنه كفر أكبر مطلقًا عند جمهور أهل العلم؛ لأن السحر الذي هو سحر لا ينعقد إلا بالتقرب إلى الشياطين بما فيه أقبح الكفر بالله سبحانه وتعالى.

ولا فرق بين أن يكون السحر ابتدائيًّا وبين أن يكون لحلّ سحرٍ مثله، فالنُّشرة التي تكون بحل السحر بمثله؛ حرامٌ كلها، ولو بداعي الضرورة المزعومة، وهي إقرار للساحر على عمله، ووسيلة قريبة إلى إتيان السحرة مع تصديقهم، وذريعة إلى الإبقاء على السحرة، وواجب ولاة الأمور القضاء عليهم، كما هي ذريعة إلى انتشار السحر والسحرة، وكيف يثق عبدٌ رضي بالله ربًّا في ساحر؛ وربُّه -جل وعلا- يقول: ﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩]، ويقول: ﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١]، قال إبراهيم النخعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كانوا يكرهون التمائم والرقى والنّشر». رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢٣٨١٨)، ويعني بالكراهة: التحريم، ومقصوده: أصحاب ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وسئل الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن النّشر؛ فقال: «سحرٌ». رواه ابن أبي شيبة (٢٣٨٦٢).

وأما النّشرة التي تكون بحل السحر بالرقى والأدعية والأدوية المباحة؛ فمشروعةٌ، وفيها عن الشرك وأهله غنيةٌ.

قال يحيى بن سعيد الأنصاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليس بالنشرة التي يُجمع فيها من الشجر والطيب ويغتسل به الإنسان؛ بأس». رواه عبد اللَّه بن وهب في «الجامع» (٦٨١).

وحكم الساحر: أنه كافر أيًّا كان سحره؛ عند جمهور أهل العلم، يقتله إمام المسلمين أو نائبه ردةً بكل حال، ولا يُستتاب، ولو تاب في نفس الأمر؛ فإنما تنفعه توبته يوم القيامة.

وقول اللَّه -تعالى-: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢-١٠٣].

في هاتين الآيتين: خبر منه تعالى عن اليهود أنهم اتبعوا ما ترويه الشياطين كذبًا على ملك سليمان بزعمها أنه كان ساحرًا يثبّت ملكه بالسحر، وهو من ذلك بريء، ولكن الشياطين كفروا بتعليمهم الناس السحر وتعليمهم ما أنزله اللَّه فتنة وابتلاء للناس على الملكين هاروت وماروت بأرض بابل من العراق، وما كانا يعلّمان أيَّ أحدٍ السحرَ حتى يحذراه بقولهما: إنما نحن ابتلاء وامتحان للناس؛ فلا تكفر بتعلمك السحر وطاعة الشياطين؛ فيتعلم الناسُ من الملكين ما يفرّق بين الرجل وزوجه، وما

يضرّ السحرةُ أيّ أحد إلا بإذن اللَّه، ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم، ولقد علم اليهودُ أن من استبدل السحر عوضًا عن كتاب اللَّه ومتابعة رسوله ﷺ ما له في الآخرة من نصيب، ولبِئس ما ابتاعوا به أنفسهم من السحر والكفر لو كانوا يعلمون، ولو أنهم آمنوا باللَّه وخافوه لكان ثواب اللَّه خيرًا لهم مما اختاروه لأنفسهم لو كانوا يعلمون.

وهما تدلان على أن السحر كفر في خمسة مواضع منها: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾، ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾، ﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾.

وفيهما: أن تعلم السحر كفرٌ، ولو لم يعمل به.

وفيهما: أن الفتنة قد تؤول بمن ولج فيها إلى الكفر.

وفيهما: أن السحر حقيقة، مَن أنكر وجود أصله؛ كفرَ؛ لأنه مكذب للقرآن.

وفي قوله تعالى: ﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: إثبات تأثير السحر بإذن اللَّه، وأن منه ما هو حقيقي يؤثر في الأبدان وفي القلوب وفي السلوك.

كما أن منه: ما هو تخييلي، كسحر سحرة فرعون الذي ذكر اللَّهُ في قوله: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦]، ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الأعراف: ١١٦].

وأما ما يرجع إلى خفة اليد وسرعة الحركة ولا يُستعان فيه بالشياطين؛ فليس بسحر في الحقيقة، بل هو غِشٌ وخداع محرم.

وعن بَجالة بن عبدة التميميّ قال: جَاءَنَا كِتَابُ عُمَرَ ﷺ قَبلَ مَوتِهِ بِسَنَةٍ: اقتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ...؛ فقتلنا في يومٍ ثلاثَ سَواحِرَ. رواه أبوداود (٣٠٤٣) وصححه الألباني.

في هذا الأثر: أن قتل السحرة كلِّهم واجبٌ على ولي الأمر أو مَن يُنيبه ولي الأمر، وأنهم لا يُستتابون، إذ لو كانت الاستتابة واجبة؛ لفعلها الصحابة أو بيّنوها، وصح عن نافع عن ابن عمر ﷺ أن حفصة ﷺ سحرتها جاريتُها؛ فاعترفت بسحرها؛ فأمرت عبدَ الرحمن بنَ زيد فقتلها؛ فبلغ ذلك عثمانَ؛ فأنكره؛ فجاء عبدُ اللَّه فأخبره خبر الجارية، قال: وكان عثمانُ إنما أنكر ذلك أنه صنع دونه. رواه عبد اللَّه بن أحمد في «مسائله عن أبيه» (١٥٤٣)، وصح عن جندب بن كعب الأزدي ﷺ أنه قتل ساحرًا في مجلس الوليد بن عقبة. رواه البخاري في «التاريخ الكبير» (٢/ ٢٢٢).

وإذا وُجد السحر في المسلمين في عهد الفاروق ﷺ عصرِ الخيرية وظهور التوحيد؛ فكيف فيما بعده، وفي هذا: تعاظم المسؤولية المنوطة بولاة أمور المسلمين في هذه الأعصار في كف شرّ السحرة وأشباههم عن دين اللَّه وعن عباد اللَّه.

* * *

٣٩- بابٌ ادعاءُ علم الغيب المطلق أو تصديق مدّعيه من نواقض التوحيد

الغيب نوعان: الأول: الغيب النسبي: وهو ما غاب عن قوم دون قوم، وهو الغيب الماضي والحاضر.

والثاني: الغيب المطلق: وهو الذي لا يعلمه إلا اللَّه، وهو الغيب المستقبل، وهو من خصائص اللَّه في باب الصفات؛ فمن ادّعاه أو صدّق مدعيه من السحرة والكهان والعرافين والمنجمين وغيرهم؛ فقد جعلَ ما للَّه لغير اللَّه، وكذّب القرآن، ومن كذّب القرآن؛ كفر كفرًا أكبر.

ويُطلعُ اللَّه من شاء من رسله عليهم السلام على شيء منه آيةً منه على صدقهم؛ كما قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧]، فلا يعلمون منه إلا ما أعلمهم اللَّه، وهذا يعمّ رسلَ اللَّه من الملائكة والبشر.

أما إتيان الكهان؛ فله أحوال:

١) أن يأتي إليهم بدون سؤال ولا تصديق؛ فهذا محرّم؛ لحديث معاوية بن الحكم رضي الله عنه المتقدم في باب الطيرة.

٢) أن يأتي إليهم بقصد امتحانهم واختبارهم لا للأخذ بقولهم، ولديه ما يميِّز به صدقهم من كذبهم؛ فهذا لا بأس به، وقد يستحب وقد يجب؛ لحديث ابن صياد، وسيأتي.

٣) أن يأتي إليهم ويصدّقهم؛ فله ثلاثة أحوال:

الأولى: أن يصدّقهم في دعوى علم الغيب المطلق؛ فهذا كفر أكبر؛ لأنه

تكذيب للقرآن، وبدلالة حديث أبي هريرة حديث الباب.

الثانية: أن يصدّقهم في دعوى استقلالهم بعلم الغيب النسبي؛ أي: دون إخبار الشياطين مسترقي السمع لهم؛ فهذا كفر أكبر أيضًا؛ لأنه تكذيب للقرآن، وبدلالة حديث أبي هريرة حديث الباب.

الثالثة: أن يصدّقهم في دعوى علم الغيب النسبي بإخبار الشياطين مسترقي السمع لهم؛ فهذا لا تقبل لصاحبه صلاة أربعين يومًا لحديث بعض أزواج النبي ﷺ في «صحيح مسلم» حديث الباب، وهو كفر أصغر؛ لأن هذا التصديق لا يستلزم منازعة اللَّه في خصائصه.

ولا فرق بين سؤالهم بإتيانهم أو بمكاتبتهم أو بمهاتفتهم أو بتتبع ترّهاتهم عبر المجلات أو شاشات القنوات أو مواقع التواصل.

وقول اللَّه -تعالى-: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].

في هذه الآية: تفرّد اللَّه بعلم الغيب؛ فلا يعلمه أحدٌ في السماوات أو الأرض، وأمرُ اللَّه نبيَّه ﷺ بقول ذلك للناس.

والآيات في هذا المعنى كثيرة، منها: قول اللَّه: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ [يونس: ٢٠]، وقوله آمرًا نبيه محمدًا ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ [الأنعام: ٥٠]، وقوله له: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وقوله عن الملائكة: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢]، وقوله عن الجن: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤].

وحسبُ المؤمن أن يعلم بأن الكهان وإخوانهم ليسوا بشيء بحكم الصادق المصدوق ﷺ؛ فعن عَائِشَة رضي الله عنها قالت: سَأَلَ أُنَاسٌ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الكُهَّانِ؟ فَقَالَ لَهُم رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَيسُوا بِشَيءٍ**» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَإِنَّهُم يُحَدِّثُونَ أَحيَانًا الشَّيءَ يَكُونُ حَقًّا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**تِلكَ الكَلِمَةُ مِنَ الجِنِّ يَخطَفُهَا الجِنِّيُّ، فَيَقُرُّهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ قَرَّ الدَّجَاجَةِ، فَيَخلِطُونَ فِيهَا أَكثَرَ مِن مِائَةِ كَذبَةٍ**». أخرجه مسلم (٢٢٢٨)، وقوله: «**لَيسُوا بِشَيءٍ**»: بِشَيءٍ: نكرة في سياق النفي؛ فتعم.

وعَن أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَن أَتَى كَاهِنًا أَو عَرَّافًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ؛ فَقَد كَفَرَ بِمَا أُنزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ». أخرجه أحمد (٩٥٣٦)، وصححه الألباني.

في هذا الحديث: كفر من أتى الكهان أو العرافين وصدّقهم في دعوى علم الغيب المطلق أو علم الغيب النسبي استقلالًا، وأن تصديق الكهان والإيمان بالقرآن ضدّان لا يجتمعان.

ومن شابه الكاهن والعراف كالساحر؛ فلإتيانه حكم إتيانهما؛ فعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «**من أتى عرافًا أو ساحرًا أو كاهنًا؛ فسأله فصدقه بما يقول؛ فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ**». رواه أبو يعلى في «مسنده» (٥٤٠٨)، وجوّد إسناده ابن حجر في «فتح الباري» (١٠/ ٢١٧)، وله حكم الرفع.

والكاهن والعراف اسمان لمن يدّعي معرفة الغيوب، وفي الفرق بينهما أقوال؛ فقيل: هما مترادفان، وقيل: إن الكاهن: من يدّعي معرفة الغيوب المستقبلية، والعراف: من يدّعي معرفة المغيَّبات كمكان الضالة والمسروق.

وعن صفية بنت أبي عبيد عَن بَعضِ أَزوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَن أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَن شَيءٍ لَم تُقبَل لَهُ صَلَاةٌ أَربَعِينَ لَيلَةً». أخرجه مسلم (٢٢٣٠)، وأخرجه أحمد (١٦٦٣٨) بلفظ: «فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ. .».

في هذا الحديث: توعّد من أتى العرافين وسألهم عن شيء بألا تقبل له صلاة أربعين يومًا، وقوله: «**صلاة**»: نكرة في سياق النفي؛ فتعم؛ أي: لا يثاب على صلواته طيلة أربعين يومًا، وإن كانت مجزئة بسقوط الفرض عنه.

ويستثنى من ذلك: سؤالهم بقصد اختبارهم؛ لحديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قصة ابن صيّاد، وفيه: ثم قال له رسول اللّه ﷺ: «**قد خبّأتُ لك خبيئًا**»؛ فقال ابن صيّاد: هو الدُّخ؛ فقال له رسول اللّه ﷺ: «**اخسأ؛ فلن تعدوَ قدرَك**». أخرجه البخاري (٣٠٥٥)، ومسلم (٢٩٣٠).

أما رواية أحمد في هذا الحديث: «**فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ. .**»، وفيها تقييد ذلك الوعيد بتصديقهم؛ فالأظهر أنها زيادة شاذة.

وعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنِ اقتَبَسَ عِلمًا مِنَ النُّجُومِ؛ اقتَبَسَ شُعبَةً مِنَ السِّحرِ زَادَ مَا زَادَ». أخرجه أبو داود (٣٩٠٥) وابن ماجه (٣٧٢٦)، وصححه الألباني.

في هذا الحديث: أن علم التنجيم الذي هو الاستدلال بحركات النجوم والأحوال الفلكية على الغيوب المستقبلية؛ من أنواع السحر، ومنه: «برجك اليوم، أو: حظك اليوم مع الأبراج»، و«ما تخبّئ لك السنة القادمة»؛ إذ النجوم خلقٌ من خلق اللّه مسخرٌ، ليس له من الأمر شيء؛ لا يدل على نحس أو سعادة، أو حياة أو موت، أو صحة أو مرض.

وليس منه: توقّع الكسوف والخسوف وأحوال الطقس؛ لأنه يُبنى على أسباب حقيقية حسية؛ فالكسوف والخسوف على الحِساب، وأحوال الطقس على حركة السحب وسير الرياح ونحوهما، والله مقدِّرُها والمتصرفُ فيها.

أما الاستدلال بمشاهدة الشمس والقمر والكواكب على القبلة ومواقيت الصلاة والجهات؛ فلا بأس به، وقد يُستحب، وقد يجب، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ﴾ [الأنعام: ٩٧].

وعن عائشة رضي الله عنها **قالت: من زعم أنَّ رسول الله** ﷺ **يَعلم ما في غد؛ فقد أعظمَ على الله الفِرية، والله يقول:** ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ [النمل: ٦٥]. **أخرجه البخاري (٤٨٥٥)، ومسلم (١٧٧) (٢٨٧) والترمذي (٣٠٦٨)، وغيرهم، واللفظ للترمذي.**

في هذا الأثر: أن رسول الله ﷺ لا يعلم علم ما في غد وهو الغيب المطلق، إلا ما شاء الله.

وفيه: نسبة علم الغيب المطلق إلى رسول الله ﷺ من إعظام الفرية على الله، وهذا تقوله أحب الناس إلى رسول الله ﷺ عائشة؛ فاعتبر هذا بغلو الغالين في رسول الله ﷺ؛ تعلم أيّ الفريقين أكمل تعظيمًا لرسول الله ﷺ وأصدق محبةً له؛ آلموحدون أم الغلاة المشركون؟.

* * *

٤٠- بابٌ سبُّ اللَّه -تعالى- أو سبُّ رسوله ﷺ، أو الاستهزاءُ بدينه من نواقض التوحيد

هذا الباب معقودٌ لبيان سببٍ من أعظم أسباب حلول غضب اللَّه ومقته وعذابه، وناقضٍ من أقبح نواقض الإسلام أعني سبَّ اللَّه سبحانه وتعالى وسب رسوله ﷺ والاستهزاء بدينه؛ لأن أصل الدين مبنيٌّ على تعظيم اللَّه وتعظيم دينه ورسوله ﷺ، والاستهزاء بشيء من ذلك أو الاستهانة به منافٍ لهذا الأصل ظاهرًا وباطنًا منافاةَ الضد للضد، ومناقضٌ له تمام المناقضة؛ فمن ثمة؛ كانت ردة عن الإسلام مادام عقلُ مُجترَحها صحيحًا إلا مَن أُكره وقلبه مطمئن بالإيمان، ولا فرق فيها بين الهازل والجاد، وعلى ذلك أجمع العلماء.

والسب: كلّ ما يعدّه النّاسُ سبًّا أو شتيمة أو تنقصًا أو استخفافًا ولو تعريضًا، والاستهزاء: كلّ ما يعدّه النّاسُ استهزاء أوسخرية من قول أو إشارة، والسب أشد من الاستهزاء، أما ما يحتمل السب وغيره؛ فلا يكفر بها إلا بعد الاستفصال.

وفي الحق أن المجترئ على اللَّه -تبارك وتعالى- بالسب أعظم تنقصًا له سبحانه -حال سبّه- من المشرك بل وحتى من الملحد، أما مِن المشرك؛ فلأن المشرك في الألوهية إنما يرجو بشركه القربى إلى اللَّه أو الشفاعة عنده، وأما مِن الملحد؛ فلأنه جحدَ الخالق، ولسان حاله: لو أني اعتقدته موجودًا لعظّمتُه، والساب يثبت الخالق تعالى ويعتقد أنه معبوده الحق ثم يسبّه جهارًا، والعياذ باللَّه، وربما تذرع بأنه كان غاضبًا، ولا تراه يجترئ على سب ذي سلطان وإن تعاظم غضبه؛ فنعوذ باللَّه من مسالك الردى.

وقول الله -تعالى-: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦]، **وعَن عَبدِ اللّهِ بنِ عُمَرَ ﷺ قالَ: قَالَ رَجُلٌ فِي غَزوَةِ تَبُوكَ فِي مَجلِسٍ: مَا رَأَينَا مِثلَ قُرَّائِنَا هَؤُلَاءِ أَرغَبَ بُطُونًا وَلَا أَكذَبَ أَلسِنَةً وَلَا أَجبَنَ عِندَ اللِّقَاءِ، فَقَالَ رَجُلٌ فِي المَجلِسِ: كَذَبتَ، وَلَكِنَّكَ مُنَافِقٌ، لَأُخبِرَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ، وَنَزَلَ القُرآنُ، قَالَ عَبدُ اللَّهِ بنُ عُمَرَ: فَأَنَا رَأَيتُهُ مُتَعَلِّقًا بِحَقَبِ نَاقَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، تَنكُبُهُ الحِجَارَةُ، وَهُوَ يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلعَبُ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:** ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾. **رواه الطبري في «تفسيره» (١١/٥٤٣)، وصححه مقبل الوادعي.**

في هذه الآية وسبب نزولها: أن الاستهزاء بالله تعالى وآياته ورسوله ﷺ؛ كفرٌ في ذاتها وردّة عن الإسلام؛ ولو لم يقصد فاعلُها الكفرَ، ولو لم يستحلّها، ولو تعذّر بدعوى هزله أو زلل لسانه ما دام عقله سليمًا إلا المكره مع اطمئنان قلبه بالإيمان.

وفيهما: أن وصف رسول الله ﷺ وأصحابه ﷺ بكثرة الأكل والكذب والجبن ونحوها من ذلك.

وأما الاستهزاء بأهل الدين والصالحين؛ فإن كان المراد به الاستهزاء بهم لأجل صلاحهم؛ فهذا كفر أكبر، وإن أريد به الاستهزاء بأشخاصهم بقطع النظر عن صلاحهم؛ فهذا محرّم، ومن آيات النفاق الفاشية في هذا الزمان: إدمان السخرية بالمتمسكين بالسنة وحملة العلم الشرعي وطلبته.

وفيهما: أن لا فرق في السب والاستهزاء بين الهازل والمازح وبين

الجاد؛ فإن اللَّه لم يكذّبهم في قولهم: إِنَّما كُنَّا نخوضُ ونلعب، ثم لم يعبأ باعتذارهم.

وفيهما: أن اللائق بمن تلبّس بذلك أن يُغلَظ عليه أشدّ الإغلاظ.

وفي الآية: أن سبب كفرهم هو استهزاؤهم، وأنهم كانوا مؤمنين قبل.

وذهب بعض أهل العلم إلى أنهم كانوا من المنافقين، وأن اللَّه أظهر كفرهم الباطن بمقالتهم التي قالوا، وأن الإيمان المضاف إليهم ما كانوا يتظاهرون به، وعلى القولين؛ فإن الآية دالة على أن الاستهزاء ناقض من نواقض الإيمان.

وفيها: دليلٌ لحكم الردة؛ وأن المسلم قد يكفر بكلمة يتكلم بها أو عمل يعمله، و«الحَقَب» هو الحزام الذي يربط به الرّحل.

وعن ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ أَعمَى كَانَت لَهُ أُمُّ وَلَدٍ تَشتُمُ النَّبِيَّ ﷺ وَتَقَعُ فِيهِ، فَيَنهَاهَا فَلَا تَنتَهِي، وَيَزجُرُهَا فَلَا تَنزَجِرُ، قَالَ: فَلَمَّا كَانَت ذَاتَ لَيلَةٍ جَعَلَت تَقَعُ فِي النَّبِيِّ ﷺ، وَتَشتُمُهُ، فَأَخَذَ المِغوَلَ فَوَضَعَهُ فِي بَطنِهَا، وَاتَّكَأَ عَلَيهَا فَقَتَلَهَا، فَوَقَعَ بَينَ رِجلَيهَا طِفلٌ، فَلَطَّخَت مَا هُنَاكَ بِالدَّمِ، فَلَمَّا أَصبَحَ ذُكِرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَجَمَعَ النَّاسَ فَقَالَ: «أَنشُدُ اللَّهَ رَجُلًا فَعَلَ مَا فَعَلَ لِي عَلَيهِ حَقٌّ إِلَّا قَامَ»، فَقَامَ الأَعمَى يَتَخَطَّى النَّاسَ وَهُوَ يَتَزَلزَلُ حَتَّى قَعَدَ بَينَ يَدَيِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَا صَاحِبُهَا، كَانَت تَشتُمُكَ، وَتَقَعُ فِيكَ، فَأَنهَاهَا فَلَا تَنتَهِي، وَأَزجُرُهَا فَلَا تَنزَجِرُ، وَلِي مِنهَا ابنَانِ مِثلُ اللُّؤلُؤَتَينِ، وَكَانَت بِي رَفِيقَةً، فَلَمَّا كَانَ البَارِحَةَ جَعَلَت تَشتُمُكَ وَتَقَعُ فِيكَ، فَأَخَذتُ المِغوَلَ فَوَضَعتُهُ فِي بَطنِهَا وَاتَّكَأتُ عَلَيهَا حَتَّى قَتَلتُهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَلَا اشهَدُوا أَنَّ دَمَهَا هَدَرٌ». أخرجه أبوداود (٤٣٦١)، والنسائي (٤٠٧٠)، وصححه الألباني.

في هذا الحديث: أن سبَّ رسول اللَّه ﷺ أو عيبَه أو تنقّصَه في نفسه أو نسبه أو دينه أو خصلة من خصاله أو تشبيهَه بشيء على جهة التصغير لشأنه؛ مبيحٌ لدم الساب أيًا كان الساب مسلمًا قبل سبه كان أم كافرًا ما لم يحصل السبُّ في حياته ﷺ ويعفُ عن الساب.

وأما بعد وفاته؛ فهو مبيحٌ لدم الساب مطلقًا ولو تاب؛ فإنه حق رسول اللَّه ﷺ وليس حيًّا حتى نعلم هل عفا أم لم يعف؛ فإذا قُتل سابُّه بعد توبته؛ صُلِّي عليه ودفن في مقابر المسلمين.

وهذا بخلاف مَن تاب مِن سبِّ اللَّه رب العالمين -تبارك وتعالى-؛ فإنه لا يقتل؛ لا لأن حق اللَّه دون حق رسوله ﷺ، بل لأن اللَّه قد أعلمنا بقبوله توبة التائب من ذنبٍ متعلقٍ بحقه تعالى، وهو سبحانه لا تلحقه بالسب غضاضةٌ ولا معرّةٌ، وإنما يعود ضرر السبِ على قائله، وحرمته في قلوب العباد أعظم من أن تنتهكها جرأةُ السب، أما سبه ﷺ؛ فإنه يُنقِص من حرمته عند كثير من الناس؛ فوجب حفظ حماه بعقوبة المنتهك على كل حال.

وفيه: أن سبَّه -صلوات ربي وسلامه عليه- ناقض لعقد الذمة، و«المِغوَل»: شبه سيف قصير.

وفيه: كمال غيرة الصحابة رضي الله عنهم على رسول اللَّه ﷺ وانتصارهم له.

* * *

٤١- بابُ ما جاء في شِرك الطاعة

التحليل والتحريم من خصائص اللّٰه؛ فمن نازع اللّٰهَ تعالى فيهما بأن أحلّ الحرام المجمع عليه أو حرّم الحلال المجمع عليه؛ فقد كفر باللّٰه الكفر الأكبر، ومن اعتقد في أحدٍ غير اللّٰه أن له يحلل ويحرم بمحض هواه؛ فقد أشرك باللّٰه الشرك الأكبر؛ ولو لم يطعه.

ومن أطاع أحدًا في تحليل الحرام أو تحريم الحلال معتقدًا حِلَّ الحرام وحُرمةَ الحلال؛ فقد أشرك باللّٰه الشرك الأكبر، وهو شرك الطاعة، فإن أطاعه في معصية اللّٰه مع ثبوت اعتقاده بحل الحلال وحرمة الحرام؛ فله حكمُ أمثاله من أهل الذنوب؛ بحسب غلظ تلك المعصية في الشرع شركًا كانت أو دون الشرك.

ومن الأصول المهمة: أن تعلم يا طالب العلم أن الحاكم بما يخالف حكمَ اللّٰه يكفر الكفرَ الأكبرَ في صور:

أولها: الاستحلال، وهي: أن يحكم بما يخالف حكمَ اللّٰه معتقدًا أن حكمَه جائزٌ.

ثانيها: التفضيل، وهي: أن يحكم بما يخالف حكمَ اللّٰه معتقدًا أن حكمَه أفضلُ من حكم اللّٰه.

ثالثها: التسوية، وهي: أن يحكم بما يخالف حكمَ اللّٰه معتقدًا أن حكمَه يساوي حكمَ اللّٰه أو أنه مخيَّر بينهما.

رابعها: التبديل، وهي: أن يحكم بما يخالف حكمَ اللّٰه، وينسبَ حكمَه إلى شرع اللّٰه.

خامسها: التكذيب، وهي: أن يحكم بما يخالف حُكم اللّٰه مكذبًا

بحكم اللَّه .

أما إذا حكم بما يخالف حكمَ اللَّه معتقدًا حرمةَ حكمِه معترفًا بذنبه، ولو ألزم غيرَه به؛ فهذا كفرٌ أصغر، وفسقٌ أصغر، وظلمٌ أصغر أيًا كان فاعله؛ في ولاية عامة أم خاصة حتى رب الأسرة ورب العمل، وهو أحد أسباب الذلّ المضروب على أكثر هذه الأمة منذ أزمان، وهو من خصال الجاهلية، ولا يلزم من ذلك التكفير إلا بدليل خارجي، ولا دليل هنا .

وقول اللَّه -تعالى-: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

وعَن عَدِيّ بنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَتيتُ النَّبِيَّ ﷺ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِن ذَهَبٍ؛ فَقَالَ: «يَا عَدِيُّ، اطرَح عَنكَ هَذَا الوَثَنَ»، وَسَمِعتُهُ يَقرَأُ فِي سُورَةِ بَرَاءَةَ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، **قَالَ: «أَمَا إِنَّهُم لَم يَكُونُوا يَعبُدُونَهُم، وَلَكِنَّهُم كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُم شَيئًا استَحَلُّوهُ، وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيهِم شَيئًا حَرَّمُوهُ». أخرجه الترمذي (٣٠٩٥)، وحسنه الألباني.**

في الآية والحديث: أن اتخاذ اليهود علماءَهم، والنصارى عبّادَهم مشرّعين في تحليل ما حرم اللَّه وتحريم ما أحل اللَّه؛ إشراكٌ لهم مع اللَّه، واتخاذُ أربابٍ من دون اللَّه؛ إذ التشريع من خصائص الربوبية، ويشهد لهذا المعنى: قول اللَّه تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وفيهما: إثبات شرك اليهود والنصارى .

وفي الآية: تنزيه اللَّه نفسه عن شرك اليهود والنصارى .

وفي الحديث: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وقوله ﷺ: «**اسْتَحَلُّوهُ**»؛ أي: اعتقدوا حلَّه، وقوله: «**حَرَّمُوهُ**»؛ أي: اعتقدوا حرمتَه.

تم الكتاب، والحمد للَّه رب العالمين، وصلى اللَّهُ وسلّم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه.

أبو محمد - عفا اللَّه عنه -

* * *

أسئلة جامعة

لاختبار الضبط، ومذاكرة الأقران

الأسئلة

١- بين معنى التوحيد لغة وشرعًا .

٢- أنواع التوحيد ثلاثة باعتبار، اثنان باعتبار، اذكرها .

٣- عرف أنواع التوحيد الثلاثة، وما دليل حصرها في ثلاثة؟ .

٤- اذكر سورتين وثلاث آيات من كتاب اللَّه اجتمعت فيها أقسام التوحيد الثلاثة؟ مبينًا دلالتها عليها .

٥- ناقش من جعل توحيد اللَّه في الحاكمية قسيمًا للأقسام الثلاثة .

٦- اذكر ستة فروق بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية مبينًا نوع العلاقة بينهما .

٧- توحيد الربوبية بمجرده لا يكفي ولا يُنجي، بين معنى ذلك مع الأدلة .

٨- بين دلالة الحمد على توحيد الاسماء والصفات، واذكر موضعين في كتاب اللَّه احتج اللَّه فيهما بتفرده بالربوبية على وجوب إفراده بالألوهية .

٩- كل ما ورد في القرآن من الأمر بالعبادة؛ فهو بمعنى التوحيد، ما وجه ذلك .

١٠- لكلمة التوحيد لا إله إلا اللَّه: معنى، وركنان، ومقتضى، وسبعة شروط: بيّنها، وما الفرق بين شرطي القبول والانقياد من شروط لا إله إلا اللَّه .

١١- ما محل الخصومة بين رسل اللَّه عليهم السلام وأقوامهم، وما وجه استكبار أعداء الرسل عن الاستجابة لدعوتهم، وما الدليل؟

١٢- كيف ترد على من ادعى أن الإله بمعنى الخالق ومن ادعى أنه بمعنى الحاكم .

١٣- ما الطاغوت، وما حقيقة الكفر به، واذكر آيتين وحديثين فيها الجمع بين النفي والإثبات.

١٤- ما معنى الشهادة بأن لا إله إلا اللَّه، والشهادة بأن محمدًا رسول اللَّه ﷺ؟

١٥- آية الكرسي من الاستدلال بتوحيد.............. على توحيد.............، اذكر أربعة من وجوه دلالتها عليه.

١٦- بعث اللَّه رسله بتوحيد العبادة، استدل لذلك بآيتين، وما الإسلام بالمعنى العام وبالمعنى الخاص.

١٧- بعد دراستك للكتاب، اذكر خمسة مواضع من كتاب اللَّه، وخمسة أحاديث يصلح كل منها موضوعًا لموعظة تامة في التوحيد، واذكر سبعة عناوين جامعة في التوحيد تصلح لخطبة الجمعة.

١٨- اذكر ثلاثة وجوه تبيّن فرضية التوحيد، وأربعة وجوه تبين فضل التوحيد مع الأدلة.

١٩- ما الفرق بين الوعد المطلق ومطلق الوعد، ومَن أهلهما من الموحدين؟، وهل كل من قال لا إله إلا اللَّه يحرم عليه دخول النار؟، استدل لذلك من السنة.

٢٠- ما التحقيق الواجب والتحقيق المستحب للتوحيد، وما أقسام الناس من حيث الحساب والعذاب؟.

٢١- إذا وقعت على داعية مجتهد في الدعوة إلى دين اللَّه غير أنه لا يدعو للتوحيد، كيف لك أن تقنعه بأهمية الدعوة للتوحيد وعظيم احتياجه للقيام بها قبل احتياج المدعوين إليها؟.

٢٢- ما منهاج رسول اللَّه ﷺ في الدعوة؟ مع الدليل.

٢٣- كيف تستدل من السنة القولية والفعلية لوجوب البداءة في الدعوة بالتوحيد، ولافتقار الموحدين للدعوة إلى التوحيد والتذكير به على الدوام؟

٢٤- اذكر حقيقة الشرك، ونوعيه، والفرق بينهما من حيث الحد، والحكم.

٢٥- اذكر أربعة وجوه توجب الخوف من الشرك؟

٢٦- كيف نحقق البراءة من المشركين، وموالاة الموحدين؟

٢٧- اذكر ثلاث آيات درستها في الكتاب تذكر الخليل إبراهيم عليه السلام، وثلاثًا تذكر المسيح عليه السلام، ثم ألحقها بأبوابها مبينًا وجه مناسبتها لكل باب.

٢٨- ما الفرق بين مطلق الموالاة وبين التولي وما حكم كلٍ؟

٢٩- ما محلّ إشراك مخالفي الرسل من أبواب خصائص اللَّه، وما مطلوبهم مِن شركهم، وهل عذرهم اللَّه بذلك مع الدليل، وما حكم من شابههم من المتأخرين؟

٣٠- استنبط ثلاث فوائد في التوحيد -على الأقل- تلزم عن علمك بإقرار المشركين الأولين بتوحيد الربوبية في الجملة.

٣١- كيف تردّ على من فرّق بين عبادة الصالحين وعبادة الأصنام.

٣٢- اذكر آيتين وحديثين تبطل التعلق بالأنبياء والصالحين.

٣٣- استنبط خمس فوائد في التوحيد من قصة وفاة أبي طالب.

٣٤- ما سبيل النجاة؟ بين ذلك من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في ما كان من رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم في دعوة عشيرته الأقربين.

٣٥- اذكر آيتين من كتاب اللَّه تبطلان التعلق بالملائكة.

٣٦- من المالك للشفاعة، وما شروطها، وما أثر طلبها من غير اللَّه على استكمال شروطها؟.

٣٧- ما الشفاعة المنفية؟ .

٣٨- اذكر ثلاثة من أصول ذرائع الشرك الأكبر، وما سبب أول شرك حصل على وجه الأرض؟ مع الدليل.

٣٩- كلّ مَن غلا في رسول اللَّه ﷺ ورفعه عن رتبة العبودية؛ فقد أطراه، كيف تستدل على ذلك من حديث عمر رضي الله عنه في النهي عن الإطراء، وترد على المخالفين.

٤٠- اذكر عشر صور من صور الافتتان بالقبور.

٤١- اذكر صور اتخاذ القبور مساجد، وكيف ترد على شبهة الاستدلال بوجود قبر النبي ﷺ في مسجده.

٤٢- اذكر نوعي زيارة القبور، وما الفرقان بينهما حُكمًا وباعثًا وأثرًا على الزائر والمزور، وما حدّ شدّ الرحال المنهي عنه لغير المساجد الثلاثة؟

٤٣- ما علل النهي عن عبادة اللَّه في مكان يشرك فيه بالله؟

٤٤- كيف ترد على من نفى وقوع الشرك ممن يقول لا إله إلا اللَّه من ثلاثة وجوه؟، وبم استدل من الحديث؟، وكيف تجيبه؟.

٤٥- كيف تعلم أن شيئًا ما عبادة؟، ثم اذكر آية من كتاب اللَّه اشتملت على أربعة وجوه من الوجوه المثبتة للعبادة.

٤٦- للذبح ثلاثة أحوال باعتبار المتقرَّب به إليه، اذكرها وأحكامها.

٤٧- اذكر آية تدل على كون كل من: الذبح، الدعاء، الخوف، المحبة، الدعاء، التوكل، الاستعاذة: عبادات صرفها لغير اللَّه شرك.

٤٨- اذكر نوعي النذر.

٤٩- اذكر نوعي الدعاء، وصور دعاء المسألة الشركي، وكيف ترد على شبهة دعاة الشرك مستدلين بقول اللَّه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ﴾.

٥٠- اذكر آية من كتاب اللَّه صرحت بأن دعاء غير اللَّه شرك، وأخرى صرحت بأن دعاء غير اللَّه كفر.

٥١- ما نوع الشرك في الأفراد التالية أكبر أم أصغر: الشرك في الذبح، الشرك في الدعاء، الشرك في النذر، الشرك في المحبة، الشرك في الخوف، الشرك في التوكل فيما لا يقدر عليه إلا اللَّه، الشرك في الحلف، اعتماد القلب على الأسباب الحقيقية معتقدًا كونها أسبابًا، تعليق التمائم معتقدًا أنها أسباب، الرقية معتقدًا أنها تنفع استقلالًا، التبرك بذوات الصالحين معتقدًا أنهم أسباب، التبرك بالقبور معتقدًا أنها تهب البركة استقلالًا، من ردته الطيرة معتقدًا أنها سبب، التسوية اللفظية بين الخالق والمخلوق في الأمور القدرية، اعتقاد استقلال النجوم بإنزال المطر، سب الدهر معتقدًا أنه سبب في حصول المكروه، إرادة الدنيا بشيء من عمل الآخرة.

٥٢- ما الفرق بين المحبة التعبدية والمحبة الطبيعية، وبين الخوف التعبدي والخوف الطبيعي؟

٥٣- ما حقيقة التوكل المأمور به.

٥٤- اذكر أنواع التوسل المشروع، وأنواع التوسل الممنوع، ودليلًا على كل منها.

٥٥- كيف السبيل إلى الانتفاع بجاه رسول اللَّه ﷺ.

٥٦- كيف ندعو اللَّه بأسمائه الحسنى، وما صلته بالتوسل؟.

٥٧- من أصول ضلال مَن ضلّ في باب التوسل: التسوية بين المختلفات، مثّل لذلك، ثم اذكر حديثين في باب التوسل التبس فهمهما على أهل البدع.

٥٨- مما يلحظه دارس آيات التوحيد شيوع قاعدتين فيها : قاعدة العموم في الإخبار عن آلهة المشركين ، وقاعدة القصر اللغوي وتقديم ما حقه التأخير في الأمر بالعبادة أو الثناء على أهلها ، مثّل بآيتين على كل منهما .

٥٩- للأسباب نوعان، بيّنهما مع الأمثلة ، وما حكم جعل ما ليس بسبب سببًا؟ .

٦٠- للرقى نوعان ، اذكرهما مبينًا شروط الرقى المشروعة .

٦١- اذكر أحوال الرقى الجائزة .

٦٢- للتبرك نوعان ، اذكرهما وأنواع كل منهما ، واذكر ضوابط التبرك المشروع .

٦٣- كيف تجيب على من استدل بفعل ابن عمر رضي الله عنهما على جواز التبرك بالآثار المكانية للأنبياء ، وعلى من استدل بتبرك الصحابة بذات صلى الله عليه وسلم وآثاره على التبرك بذوات الصالحين .

٦٤- ما حد التطير المنهي عنه ، وما أحواله ، وكيف تجيب على الأحاديث التي فيها إثبات الشؤم في ثلاث ، وما الفرق بين الطيرة والفأل .

٦٥- كيف تجيب على ما جاء من روايات فيها حلف النبي صلى الله عليه وسلم بغير اللَّه؟ .

٦٦- ما علة النهي عن سب الدهر والريح .

٦٧- كيف تجيب على من عدّ «الدهر» في أسماء اللَّه؟ .

٦٨- متى يصير كل من الرياء وإرادة الدنيا بعمل الآخرة كفرًا أكبر؟ .

٦٩- اذكر أحوال التشريك بين النية الدنيوية والنية الأخروية في العمل الصالح؟ .

٧٠- ما علة النهي عن كل من : تعليق الدعاء بالمشيئة ، التسمي بملك

الملوك، قول: السلام على اللّٰه، الحلف على اللّٰه لا على جهة حسن الظن به.

٧١- اذكر نوعي السحر، وما حكم السحر مع الدليل، وما حكم حل السحر بالسحر؟.

٧٢- ما حكم الساحر، وهل يستتاب؟.

٧٣- اذكر نوعي الغيب، وما حكم دعوى علم الغيب المطلق أو تصديق مدعيه، وما الدليل؟.

٧٤- اذكر أحوال إتيان الكهان؟.

٧٥- ما حكم مطالعة الأبراج لمعرفة الحظوظ؟.

٧٦- ما حكم توقع الكسوف وأحوال الطقس قبل أوقاتها؟.

٧٧- سب اللّٰه تعالى أو سب رسوله ﷺ أو الاستهزاء بدينه ولو على سبيل الهزل والمزاح ردة عن الإسلام، بين وجه ذلك مع الدليل؟.

٧٨- ما الفرق بين ساب اللّٰه تعالى وبين ساب رسوله ﷺ من جهة إقامة الحد عليهما بعد التوبة؟.

٧٩- ما حقيقة شرك الطاعة؟ وما حكمه، وما الدليل؟.

٨٠- اقترح خمس وسائل أو برامج دعوية تُزكّي بها ما علّمك اللّٰه من علم التوحيد.

* * *

فهرس الموضوعات

* * *

ملاحظات

....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....